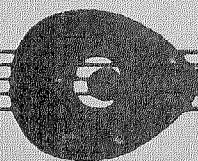


دار الشروق



رتيبة الحفنى

أم كلثوم



أَمَّ كَلْشَوْم

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسن - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلکس : ٥٦٥٧١ SHROK UN
بيروت : ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلکس : SHROK 20175 LE

رتيبة الحفنى

معجزة الغناء العربى

دار الشروق

الإهداء
إلى والدي

المقدمة

قالوا عن أم كلثوم إنها « أسطورة » . . ووصفوها في الغرب بأنها أشهر من «جان دارك» ، وأنها تفوقت على « إديث بياف » و « ماريا كالكاس » .

هذه العملاقة التي بدأت منذ فترة مبكرة ، وعاشت وسط الفلاحين . . لأنها فلاحه ، من ريف مصر السخي ، ذاقت الفقر والحرمان والجوع والشقاء ، واستطاعت في النهاية أن تصل إلى أعلى مراكز التقدير من شعبها ومن شعوب العالم .

وليسمح لي القارئ بإلقاء الضوء على تجربة صغيرة لي مع هذه الشخصية الجبارة؛ فقد أحاطتني بكل الحب والرعاية ، فكانت رحمها الله تتابع كل نشاط موسيقي وغنائي جديد يقدم في مصر ، إلى جانب اهتمامها الخاص بكل ما أقدم من موسيقى وغناء ، كانت الأم الحنون التي تساندني وتقدم لي النصيح في كل مناسبة .

وفي أكتوبر عام ١٩٦١ ، حينما قدمنا على خشبة دار الأوبرا المصرية محاولتنا الفنية الأولى « الأرملة الطروب » المصرية ، والتي كان لي شرف القيام ببطولتها ، حرصت أم كلثوم على حضور عرض هذه المحاولة الجريئة التي كان الوزير الفنان د. ثروت عكاشة قد أشرف على إخراجها . وأعجبت أم كلثوم بهذا العمل الفني . وفي لقاء لها مع الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين جاء ما يلي (*):

« . . في بوفيه دار الأوبرا ، قالت لي السيدة أم كلثوم إنها تجربة عظيمة ، وإنها سعيدة جداً بها . وإن رتيبة الحفنى ممتازة . وإن الناس عندنا لم يتعودوا أن يستمعوا إلى الأصوات دون أن يميزوا في البداية كل كلمة من الكلام الذي يقال . . ولكن المفروض أن القيمة

(*) المساء في ٢٣ أكتوبر عام ١٩٦١ .

العليا في هذا المجال للصوت واللحن . . والمسألة مسألة تعود على أى حال . . وحاسة تنمو مع الزمن » .

وخرج العديد من تصريحات أم كلثوم عن هذا العمل الفنى الجديد فى المجالات والصحف اليومية . ولا أخفى على القارئ هذا الدور الذى لعبه تعليق أم كلثوم واهتمامها فى نشر هذا العمل الجديد . فالناس كانت تقبل على الأوبريت لتشاهد هذا العمل الناجح ، وتستمتع إلى الفنانة التى شهدت بإمكاناتها الفنية ، كوكب الشرق أم كلثوم . وتصور هذه الكتابات الصحفية سعة صدر أم كلثوم لكل التجارب الثقافية الغنائية والموسيقية فى مصر . . وتشجيعها للعناصر الصاعدة فى مجالات الغناء بشتى نواحيه . إن حضورها حفلات الأوبرا وارتباطها بالحركة الموسيقية العالمية هو جانب يجب التنويه عنه أيضا .

أما الأطفال فكانت -رحمها الله- شغوفة بهم ، تعطف عليهم وتبصر . وإنى لأذكر حادثة تأثرت بها كثيرا ، إذ كشفت لى جانباً إنسانياً عميقاً فى شخصية أم كلثوم . اتصلت بى أم كلثوم هاتفياً تطلب « كورال أطفال محافظة القاهرة(*) » للاشتراك معها فى تسجيل « الثلاثية المقدسة » . وعلى الرغم من ثقتى فى إمكانات كورال الأطفال الفنية ، هذا الكورال الذى كنت أشرف عليه وأدربه ، فإننى قرأت على وجوه الصغار الرهبة والخوف ، لا يصدقون أنهم سيشترون مع هذه الشخصية العملاقة فى عمل فنى ، بتصوراتهم عنها من جدية وصرامة .

وفى اللقاء الأول للأطفال مع أم كلثوم فى إستوديو الاذاعة ، تغيرت الصورة التى إفتترضوها فى أذهانهم لهذه السيدة العظيمة . . فكس كانت دهشتهم كبيرة حينها وجدوا

(*) يعتبر أول كورال للأطفال فى الشرق الأوسط . قمت بإنشائه بعد عودتى من بعثتى الدراسية بألمانيا . واحتضن محافظ القاهرة وقتها « صلاح الدسوقى » هذه الفرقة . كما شجعها الفنان محمد عبد الوهاب الذى جاء لحضور حفل الافتتاح . وقدمت الفرقة العديد من الأعمال الغنائية العربية والعالمية . ولها شريط تسجيل وأسطوانة « بصوت القاهرة » .

أم كلثوم تقف بينهم . . تغنى معهم . . وكان الإستوديو مزدحما بالعازفين والمنشدين والأطفال . . والموسيقار الراحل رياض السنباطى الذى يضيق ذرعا بأقل بادرة خطأ منهم . أما أم كلثوم . . فكانت أمأهم جميعا . . تبسط معهم ، وضاحتهم وربت على أكتافهم ، وعاونتهم على التدريب والحفظ والاندماج مع كبار العازفين ، بكل حب ورعاية وثقة . وانتهى التسجيل ، وظلت أم كلثوم تذكر للأطفال صوتهم الملائكى وإمكاناتهم فى أداء جزء :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
لم أسمع إطرأ ومدحا فى الكورال ، كما سمعته من سيدة الغناء العربى ، التى زادت البساطة المتناهية من عظمتها وعمق إنسانيتها .

وكانت أم كلثوم صديقة لوالدى المرحوم ، الدكتور محمود أحمد الحفنى ، رائد الموسيقى فى مصر . . وكانا معا - أم كلثوم وأبى - على اتصال تليفونى كل يوم . وكثيرا ما كنت محظوظة بالرد على التليفون . فتسألنى عن دراستى بالمعهد ومدى استيعابى لما يدرس لى . . وتمدنى بالنصائح .

وحيثما توفى والدى فى مارس من عام ١٩٧٣ ، تلقيت منها برقية طويلة تقرب من الصفحة الكاملة . أثرت كلماتها فى نفسى . وكان فيها بعض العزاء الصادق فى وفاة أعز إنسان عندى .

اتصلت بأم كلثوم تليفونيا أشكرها على البرقية . . فما كان منها إلا أن عاتبته بصوت لائم قائلة :

- لقد فتحت بيتى للعزاء فى فقيد العالم العربى ، الراحل ، والإنسان العظيم . . وتأتين أنت الصغيرة تشكريننى على سطور قليلة لا تساوى أعماله وآثاره فى الموسيقى العربية؟!!

كانت هذه الكلمات آخر ما سمعت بصوت أم كلثوم . . فقد فارقت عالم الفن بعد هذا التاريخ بستتين .

رحلت عنا كوكب الشرق ومعجزة الغناء أم كلثوم . . ولست في معرض تعداد
مآثرها؛ فهي خارج الحصر والتقييم . . إن كل عمل عظيم، يزداد الوعي بقيمته عبر
الآزمنة . . ويظل رصيذا ضخما وتراثا نفيسا . . كذلك أم كلثوم .
إنها معنا باقية خالدة في أعمالها، وفننها، وإنسانيتها، وتاريخها المجيد .
رئيسة الحفنى

الفصل الأول النشأة والتطور الفني

نشأتها :

ولدت أم كلثوم في بيت متواضع ، مكون من طابق واحد ، في قرية « طهای الزهايرة » . والدها الشيخ إبراهيم السيد البلتاجي ، مؤذن مسجد القرية . سميت بأم كلثوم تيمنا بأسم بنت النبي عليه الصلاة والسلام .

روى الشيخ إبراهيم : أنه في ليلة ٢٧ من رمضان (ليلة القدر) غلبه النوم وهو في المسجد . فرأى في منامه سيدة في ملابس بيضاء ، يشع وجهها نورا ، تعطيه لفافة خضراء . وعندما فتحها وجد في داخلها شيئا له بريق . . سأل :

- ما هذا ؟

قالت :

- هذه جوهرة وبشرى السعد . . حافظ عليها .

وعندما سألتها : من أنت ؟ أجابت :

- أنا أم كلثوم ابنة النبي محمد . .

وعندما وضعت فاطمة زوجة الشيخ إبراهيم طفلتها . . احتارت في تسميتها . .

وسألت زوجها الشيخ إبراهيم :

- نسميها إيه ؟

فأجاب على الفور :

نسُميها « أم كلثوم » على اسم بنت النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فالرؤيا كانت لا تزال تملأ عينيه .

شغف الأديب الكبير الراحل عباس محمود العقاد بشرح معنى كلمة « كلثوم » ، واستقر في آخر الأمر على أن أصل هذه الكلمة في اللغة هو « الراية الحربية » التي كان يرفعها المقاتلون في حروب الجاهلية .

* * *

كبرت الطفلة « واشتهرت في الحى بجمال صوتها . فكانت تغنى أغاني الأطفال . . وصديقاتها من حولها يرددن وراءها :

أبويا زرع لى جينة كلها برتقال خالص

أسرح وأروح ألاقى البربرى حارس

والنبي يا بربرى لأبيعك

وأسد دين الوسية

وأطلع م البلد خالص

وكانت أم كلثوم الطفلة تنزل الغيط . . تغنى بصوتها الجميل . . . كما كان مرقص أفندى ناظر العزبة معجبا بصوتها الذى خفف على الفلاحات عناء اليوم الطويل .
وفي المساء كانت الأسرة تجتمع مع الجيران على سطح المنزل . . يفتشون الأرض هربا من الحر . . تغنيهم الطفلة أم كلثوم ويصاحبها والدها بالإيقاع على آنية من أواني المطبخ .

* * *

وكان شهر رمضان من أحب شهور السنة لدى أم كلثوم . . وصفته بقولها :
« في الشهر ده كنا نلم بعضنا - واحنا عيال - نغنى لرمضان . . كنا نمسك بصفائح ندى عليها . ما كانش في القرية عندنا مدفع - لكن كان فيه مسحراتى .
وعلى أيامنا ما كانش فيه فوانيس ملوثة نلعب بها » .

وتضيف : « وأنا عمرى أربع سنوات . . . كنت أعمل نفسى صايمة . . . علشان يصحونى فى السحور . الأكل فى رمضان حلو . . . وكانوا بياكلوا حاجات حلوة فى السحور . . . وفى نفس الوقت أنا كنت عاوزه أبان كبيرة . . . مش عيلة ، وطبعاً أهلى عارفين أنى فاطرة . . . بس واخدينى على قدّ عقلى . . . ومش عاوزين يعرفونى أنهم فاهمين أنى فاطرة . والدتى حاولت تنصحنى كثيراً بأن أنام وتقول لى : حنخلّى لك من أكل السحور !! لكن مفيش فايده !! صمت حقيقى وأنا سبع سنوات . »

وعن العيد تروى أم كلثوم :

« العيد كان بالنسبة لى جلابية وجزمة جديدة . ودايا كانوا بيعجيوها مقاس يابطلع ضيق قوى يا واسع قوى !! أنا وحظى . وكنت من فرحتى بها أضعّوها تحت المخدة . . . وألبس الشراب الجديد وأنام ليلة العيد ، وجنبى الجزمة الجديدة . ومع الفجر نصحى ننتظر العيدية . . . كانوا يدونا أكل . . . واحنا كنا عاوزين فلوس علشان المراجع !! »

وسئلت أم كلثوم . . . هل تذكرين أول فستان كان لونه إيه ؟؟

تقول وهى تضحك :

« ده ما كانش فستان . . . ده كان جلابية بكورنيش كده و « سفرة » حلوة . . . قماشة « شيت » ملون أخضر وأحمر . . . ألوان الموضة بتاعة أيام زمان . »

وفى حديث آخر تقول أم كلثوم :

« كانت طفولتى سعيدة . . . مليئة بالضحكات ، إلى أن صحوت ذات ليلة على صوت همسات بين أمى وأبى . . . سمعت أمى تسأل أبى عن سبب قلقه طوال الليل ؟ وكان رده عليها : العيد جاى . . . ومش قادر أجيب للأولاد جلابيب جديدة . . . وأحسست بآلام أمى وأبى . . . وعندما طلع النهار، ذهبت إلى أمى ، وقلت لها :

- أنا مش عاوزه جلابية على العيد ، جلابيتى القديمة حلوة قوى ، ونفسى ألبسها فى العيد .

وبكت أمى ، وراحت تمطرنى بقبلايتها . وشعرت وأنا محاطة بذراعيها أننى أرتدى
أجل فستان فى الدنيا . »

طفولة أم كلثوم تعكس حياة الريف فى بداية القرن العشرين ، والحب الذى كان
يربط العائلات بعضها ببعض ، بما فيها من تماسك أسرى ، وموقف الفتاة فى المجتمع
الريفى ، بداية من الطفولة . . والحياة الريفية الساذجة البسيطة . فقصة حياة أم كلثوم
تصور لنا بصدق حياة الأسرة الريفية ، متوسطة الحال حتى وصولها لعالم الفن والغناء
فى مصر .

ومن ذكريات أم كلثوم فى طفولتها أيضا ، عروسة جدتها نصرته التى صنعتها لها من
البفتة وملأها قطناً ورسمت لها وجهها . . « عينين وأنفاً وفماً » . لم تكن العروسة جميلة
ولكنها كانت أحب شئ لى لدى الطفلة أم كلثوم .

كان الوالد حريصاً على تعليم أخيها خالد ، فألحقه بالكتاب . . كما كان يلقيه
قصة مولد النبى ، والقصائد والموشحات ، ليساعده فى الليالى التى كان يحبها بالغناء .
واستطاعت الطفلة (أم كلثوم) أن تحفظ كل ما كان الوالد يلقيه لأخيها . فقد
كانت تتميز بذكاء شديد . فكانت تراقب أخاها كل يوم وهو ذاهب إلى الكتاب ويده
لوح « الإردواز » وعلى كتفه حقيبة القماش التى بها كتبه وكراساته . . . وسألت نفسها
لماذا لا تذهب هى أيضا إلى الكتاب ؟؟ لماذا لا تمسك هى أيضا القلم البسط ، وتكتب
على الورق بالخبر مثل أخيها خالد؟؟

أخذت أم كلثوم تلح على والدها أن يلحقها بالكتاب . . ومع إلحاح الطفلة ، اضطر
الوالد أن يرضخ لرغبتها ويلحقها بالكتاب . . رغم ضيق اليد . ومنذ الأيام الأولى
لالتحاقها بالكتاب حفظت أجزاء كثيرة من القرآن الكريم ، وظهر تفوقها فى الدراسة .
تقول أم كلثوم فى مذكراتها :

« لم أسمع من أبى وأمى فى يوم من الأيام شكوى بصوت مسموع من الفقر
والحرمان الذى كنا نعيش فيه ، إذ كانا يحاولان دائماً إخفاء الضيق عنا . . ولا يكشفان

عن هذا الضيق إلا بهمسات بعد صلاة الفجر، عندما يتصوران أننى وأخى نائمان لا نسمع شيئا . ولكن هذه الهمسات عاشت معى . . كانت تدوى فى أذنى . . كنت أتصور أن كل ما أستطيع أن أقدمه لأمى هو أن أتطلع إلى السماء وأقول : يارب ساعد أمى . »

وجاء فى مذكرات أم كلثوم :

« . . بعد بضعة أشهر من التحاقى بالكتاب ، سمعت أبى يهمس لأمى عقب صلاة الفجر مرة : أنا مش قادر أدفع مصاريف أم كلثوم . . ما عنديش غير قرش واحد أدفعه للولد . ورحت ألح على والدى أرجوه أن يبحث عن أى طريقة يدبر بها قرشا آخر . فقد كانت مصاريف الكتاب قرشا واحدا كل أسبوع لفقيه الكتاب . واستطاع أبى أن يدبر هذا القرش . . ولم أخرج من الكتاب » .

ولأم كلثوم قصص طريفة عن مرحلة دراستها بالكتاب . تقول :

« كان الذهاب إلى الكتاب فى الصباح ، مثلا ، حادثا مفاجعا ، يتكرر فى حياتى كل يوم . فكثيرا ما كان يحدث أن أذهب إلى الكتاب فى الصباح ، فإذا « سيدنا » يأمرنى وبعض زميلاتى أن نذهب لنساعد زوجته فى تنظيف الحبوب من الطين والطفيليات . وأذكر أننى كنت أطلب إلى زميلاتى أن يحتفظن بما يجمعن من طين وطفيليات ، حتى إذا جاء الظهر ورأت زوجة سيدنا أننا عملنا ما فيه الكفاية ، فإننا نغافلهما ونعيد إلى الحب المنقى ما جمعناه من الطين والطفيليات . . وكانت زوجة سيدنا تكتشف جريمتنا بعد أن نذهب . وفى الصباح التالى يترك سيدنا « المقرعة » تعبر عن رأى زوجته فىنا ! » .

ومن ذكرياتها أيضا (٦) (*) :

« ذهبت إلى الكتاب ، ذات صباح ، مبكرة على غير العادة . . ولم يكن السبب راجعا إلى نوبة تشايط بقدر ما كان راجعا إلى نوبة من نوبات الشقاوة . . والرغبة فى الأذى . فقد ذهبت قبل كل تلاמיד الكتاب لأكسر ما تقع عليه يداى من ألواح

(*) الترقيم يرمز إلى المرجع فى نهاية الكتاب .

الإردواز والطباشير ، وأنقل كراسة كل تلميذ من درجه إلى درج آخر . ثم أستمتع بعدها بجو الذعر حين يحضر سيدنا ، ويحضر التلاميذ ، ويبدأ الدرس . فإذا هم يفاجئون ، بما حدث ، وإذا الذعر يسيطر عليهم ، فلا يجرؤ أحدهم على أن يفتح فمه بكلمة ، وأنا أغالب الضحك وأكتمه في صدرى .

وذاث يوم ، ذهبت مبكرة إلى الكتّاب . وفجأة سمعت وقع حوافر حمار يركض ، ثم يقف أمام الكتّاب . . وسمعت صوتا يقول :

- افتح الباب لحماره المفتش . . وفهمت أن مفتش وزارة المعارف - وكان الشيخ قنصوة - قد وصل . وقبل أن أفكر في موقفى ، فتح الباب ودخل المفتش . . فجلست في مكاني ونظرت إليه في صمت ! وكان المفتش عصيبا . . فقد فوجئ بكتّاب ليس فيه الافاة واحدة . . فصاح بأعلى صوته : من هنا ؟؟ قلت وأنا أرفع أصبعى : أنا ! ! وأمسك عماثمه ، واقترب منى وهو يقول :

- ما شاء الله . . كتّاب بأكمله ليس فيه إلا بنت واحدة ؟؟

ثم أخذ يتوعد مهديدا سيدنا ، وأنا لا أستطيع أن أغالب الفرحه . وبعد قليل دخل « سيدنا » . وكان خبر وصول المفتش قد وصله . . وانهاى عليه المفتش لوما وتأنيبا . . ولم ينس أن يستغل وجودى ليشيد بنشاطى وإقبالى على الكتّاب ، منددا بكسل سيدنا وانصرافه عن الكتّاب وشثونه !

وانتهت زيارة المفتش ، ولكن « سيدنا » جعلنى أدفع الثمن . فكان يلقي علينا أعقد الأسئلة ، فيرفع التلاميذ أيديهم ليحيبوا فيهز رأسه في ضيق ، ويقول مشيرا إلى :

- لا . . لا بد أن تحيب عنه (الشاطرة الفالحة) التى تحب مبكرة كل يوم . .

وكانت (الشاطرة الفالحة) التى تحب مبكرة تتعثر دائما في إجاباتها ، ويجد « سيدنا » الفرصة ليتنقم منها !

وتروى أم كلثوم أن (خالداً) بحكم أنه « مطرب العائلة » ، كان غير منتظم في الكتّاب ، ويتغيب وقتها يشاء . . فكانت أعذاره وحججه مقبولة دائما ، فالمعروف أنه

يسهر مع والده في الموالد والحفلات . أما أم كلثوم فكانت تجد الحل الوحيد للتزويغ من الكتّاب ، هو وضع الملح في عينيها لتحمر . . . ويكون هذا سببا مقبولا للتخلف عن الكتّاب .

وتقول أم كلثوم . . إنها كانت في بعض الأحيان تعطى « سيدنا » نصف فطيرة مشلّطة أو عود قصب أو برتقالة تأخذها معها من البيت ، والمفروض أنه نصيبها من الطعام . . ولكنها كانت تفضل إعطاء « سيدنا » لتهرب من الدرس .

غير أن أوضاع أم كلثوم في الكتّاب تبدلت ، بعد أن غنت في بيت شيخ البلد . . في حضرة عدد من الرجال . . فبدأ صيتها يلمع في القرية . وكانت تتقاضى قرشا أو قرشين تغطى بهما مصاريف الكتّاب لمدة أسبوعين . . وبذلك هدا « سيدنا » ، وغير معاملته لها . فقد كانت لا تخشى أحدا قدر خشيتها من « سيدنا » . وعندما توفي سيدنا لم تصدق الخبر . . إن سيدنا ليس كبقية الناس ، فهل يمكن أن يموت؟؟ وتحكى أم كلثوم :

« أول ما خطر في بالي هو أن أطمئن على أنه مات بالفعل . . فجريت إلى بيته ، فوجدت زوجته تبكى وتصرخ بشدة ، فلم أصدق . وعدت أجرى وأدور على باقى منازل أقاربه ومعارفه فوجدتهم يبكون ، فرجعت مرة ثانية إلى بيت الرجل ، وقد قررت أن أدخل حجرته لأراه على فراش الموت . وبالفعل تسللت من بين أرجل المعزين ، ودخلت الحجرة ، ورأيت « سيدنا » ممددا على السرير ، ولكننى لم أطمئن إلا بعد أن سرت وراء الجنائز ، ورأيت المشيعين ينزلون سيدنا إلى القبر . . ويقفلون عليه ويعودون من غيره . . . وفي هذه اللحظة وحدها شعرت بالاطمئنان . . ومضيت أجرى وأقفز في سعادة ، فقد تصورت أنه بموت « سيدنا » انتهى عهد التلمذة والذهاب إلى الكتّاب بالنسبة لى . . كنت أتخيل أن « سيدنا » هو الذى بدع مسألة التعليم كلها . . وأنى بانتهائه قد تحررت نهائيا من المذاكرة وتحصيل العلم . ولكن اتضح بعد ذلك أن موت « سيدنا » جاء على « دماغى » . . فقد أرسلونى إلى مدرسة السنبلالوين ، وأصبح على أن أسير على قدمى ، كل يوم ذهابا وإيابا ، خمسة كيلو مترات ونصف كيلو متر . .

ساعتها فقط ترحمت على سيدنا الشيخ . . » .

وعن مدرسة السنبلالوين قالت أم كلثوم^(٧):

« مدرسة السنبلالوين هذه . أو كُتَّاب عزبة الحوال كان « سيِّدُهُ » أو « سيدنا » اسمه الشيخ إبراهيم جمعة ، ولم يضطهدنى هذا الرجل كما فعل المرحوم سيدنا ، فأحببت التعليم ، ربما لأول مرة فى حياتى » .

وكانت ، وهى فى هذا الكُتَّاب ، تذهب فى فترات الراحة إلى بيوت بعض الجيران ، جيران المدرسة ، فتغنى لهم ليعطوا لها خمسة مليات أو عشرة مليات ، فتعود فرحة سعيدة (تعاير) زملاءها وشقيقها وقريبها صابر بالنقود . . ثم تنظر إليهم ، وهم يتميزون من الغيظ .

لقد بدأت تحس بنفسها ، وأنها غدت شيئاً مختلفاً عن قربانها من بنات القرية وأبنائها ، فلم تعد تلعب على التربة مثلهن . . إنها تتلقى العلم فى المدرسة ، وتتلقى الفن فى البيت . . ولوبمفهوم القرية للعلم والفن .

وذاث يوم ، كانت أم كلثوم تجلس على مقربة من الكُتَّاب ، فى انتظار وصول الفقيه . . وأخذت تغنى بعضاً مما كانت تنشده مع والدها الشيخ إبراهيم فى المولد . وإذا برجل وقور يرتدى ملابس أهل المدينة يقترب منها . . ويتابع غناءها ، وبعد أن انتهت من أغنياتها سأها عن اسمها ، وعن قريبها واسم والدها . .

وكان هذا الغريب هو القاضى « على بك حسين » . وكان من محبى الغناء ، المعروف عنهم التمييز بين أنواع الغناء ومراتبه .

وذاث يوم ذهب القاضى « على بك حسين » لزيارة الشيخ إبراهيم (والد أم كلثوم) فى قرينه « طماى الزهايرة » . وراح القاضى يؤكد للوالد - الذى أذهلته الزيارة - أن فى منزله كنز لا يعرف قدره . فسأله الشيخ فى سداجة عن مكان هذا الكنز . فأجابه القاضى أنه فى حنجرة ابنته الطفلة أم كلثوم .

وضحك الوالد ضحكته الريفية متعجبا لرأى هذا القاضى ، لكن « على بك حسين » استطاع إقناع الوالد بالاهتمام بهذا الصوت ، ورعايته ، وصقله ، مبديا استعدادده لبذل أى مساعدة فى هذا السبيل . . .

* * *

أم كلثوم والحفلات :

ومن ذكريات أم كلثوم (مختارات الهلال ١٩٤٦)

« كان والدى يمارس فن الغناء ، وكنت أنا وشقيقى نتردد على كُتَّاب البلدة . حتى إذا شب أخى ، أراد والدى أن يعلمه هذا الفن ليستعين به . فأخذ يلقنه الأدوار والموشحات . وذات يوم كلفه أن يحفظ موشحا ، فلم يستطع حفظه . وظل يعيده عليه عدة مرات ، ولكن أخى لم يحفظ الموشح . مما جعل والدى يعنفه ويضربه . وكنت أنا فى خلال ذلك قد حفظته ، ووجدت فى نفسى ميلا شديدا لإلقائه ، فأسرعت إلى والدى وقلت له :

- « هل تسمح لى أن أسمعك هذا الموشح ؟ »

وكان أبى محافظا ، ولم يفكر يوما فى أن أمارس الغناء ، فأجابنى :

- « ياب تلهى !! »

فألححت فى الطلب ، وأصر هو على الرفض . . . مكررا :

- « يا بت اتلهى . . الى أخوكى ما هو عارف . . حترعنى إنتى ؟ »

ولما يشت من قبوله ، دخلت غرفة أخرى ، وبدأت أغنى الموشح ، فأنصت والدى حتى انتهيت منه ، وكأنه فى هذه الدقائق فقط عرف ما فى نفسى من ميل فطرى للغناء . فاستدعانى وطلب منى أن أعيد الموشح فأعدته .

وعن حفل شيخ البلد روت أم كلثوم :

« كان الوالد مدعوا للغناء فى منزل شيخ البلد ، فألححت عليه أن أشارك فى هذا

الحفل ، مؤكدة أننى أحفظ كل ما يعرفه أخى خالد من قصائد وموشحات دينية » .
وأمام هذا الإلحاح ، وافق الوالد على أن يشرك أم كلثوم معها في هذا الحفل .
كان الحاضرون في الحفل حوالى خمسة عشر شخصا ، اعتبرتهم الطفلة أم كلثوم عددا ضخما . أوقفوها على « دكة » حتى يراها الحاضرون . وبدأت تغنى . وأعجب الحاضرون بأدائها . ولكن الطفلة لم تهتم بهذا الإعجاب ولا التصفيق . . وإنما كانت تنتظر أجراها عن الغناء ، وهو طبق المهلبية الذى وعددها به والدها . فالمهلبية كانت طبقها المفضل . ومن أجله فقط ، وقفت تغنى . علقت أم كلثوم على هذا الحفل بقولها :
« لم أشعر بخوف أو رهبة ، ولم أضطرب أمام الجمهور . لقد وقفت وغنيت بلا اهتمام ، وكأننى أغنى لعروستى الصغيرة . . رغم أننى أخاف اليوم من الجمهور الذى يعرفنى وأعرفه . . وأعمل له ألف حساب . »

كانت أم كلثوم ، وهى فى طريقها إلى الكتاب ، تمر على دار العمدة . وكان بالدار « فونوغراف » تدار عليه الأسطوانات . ولما كانت أم كلثوم من محبى صوت الشيخ أبو العلا محمد ، فكانت تقف إلى جانب سور المنزل لتستمع إلى صوت أستاذ الغناء . . وعلى الرغم من عدم فهمها لمعانى كلمات القصائد ، التى كان الشيخ أبو العلا يتغنى بها . . فإنها استطاعت أن تحفظ الكثير منها . وكانت ، عندما تعود إلى دارها ، تبدأ فى إعادة ما حفظته من أغان . وكان والدها من أشد المعجبين بأداء ابنته لتلك الأغانى .

بدأ الوالد يصطحب ابنته أم كلثوم معه فى الحفلات . . لتشارك بصوتها الجميل . . فقد كان فى حاجة إلى المال ليعيش وأسرته بها . وكانت أولى حفلاتها فى بلدة السنبلوين . . كان على الفرقة أن تسير على الأقدام . وكان أفراد الفرقة يضطرون إلى حمل الطفلة ، حيث يحملها كل منهم مسافة ما ، ثم يحملها الآخر . . وهكذا . .
وبعد الغناء ، كانت تأكل طبق المهلبية . ولم تكن أم كلثوم تفكر فى المال ، بل كان يكتفيها قرش أو قرشان تدفعهما قسطا للكتاب .

بدأ اسم أم كلثوم يلمع . . وبدأت العائلات الكبيرة ترسل في طلبها ، للاشتراك بالغناء في حفلاتها وأفراحها .

ومن القرية انتقلت إلى قرى مجاورة ومدن . . واختلفت أساليب الانتقال . . وتحولت من الانتقال بواسطة الحمير إلى التنقل بالقطار . .

كانت أم كلثوم الطفلة تحب ركوب القطار . . وكانت ، إذا ما وصل القطار إلى محطة الوصول ، فإنها تأبى مغادرته . . وتبدأ في البكاء . . فيضطر والدها إلى الوعد بركوب القطار في طريق العودة .

تنقلت الطفلة أم كلثوم من مديرية إلى مديرية . . وارتفع أجرها ، حتى وصل إلى مائة وخمسين قرشا . وكان ذلك عام ١٩١٥ . . واعتبر الوالد هذا المبلغ علامة نراء . . فاشتري حمارا ، تركب عليه أم كلثوم . . وعلق في رقبته خرزة زرقاء ، منعاً للحسد . ركبت أم كلثوم الحمار ، وسار والدها وخالد على أقدامهما . وفي عام ١٩١٦ ، زاد إيرادهم من الحفلات . . واشتروا حمارين آخرين . . وأصبحوا ثلاثهم يركبون الحمير في تنقلاتهم .

* * *

ولهذه الحفلات قصص طريفة كثيرة ، كما روت أم كلثوم :

« دعينا إلى فرح ببلدة بالدقهلية ، وصعدنا إلى التخت في الساعة العاشرة مساء . وأخذنا نشد الموشحات والأدوار والقصائد ، حتى انتهينا منها كلها في ساعة واحدة . . دون أن يقول أحد « الله » أو « كيان » أو « أنتم فين » . . وأعدنا الأدوار والموشحات والقصائد من جديد . . ولكن الحاضرين ظلوا ساكتين ساكنين . . وقال والدى :

— يظهر أنهم نائمون ، دعونا نكسر ونعيد حتى يصحوا ، أو تنتهى السهرة . وبقينا على هذه الحال حتى انتهينا . فكانت ليلة لم أشهد مثلها في حياتي . . ولا أزال إلى الآن أضحك كلما ذكرتها . ولا أدري السميعة ليلتها كانوا واكلين إليه ؟ »
ورواية أخرى طريفة تقول فيها :

« كثيرا ما نتعرض نحن الفنانين والفنانات للمخاطر . وما أذكره في هذا الصدد ، أننى دعيت ذات مرة إلى حفل في بلدة « القرشية » . فلما ذهبنا إليها ، لم نجد لا فرحا ولا شيئا يمكن أن يشير إلى أن هناك حفلا كبيرا . ولما صعدنا على التخت ، تقدم منا أحد الداعين وقال لنا :

- لما تشوقوا فانوس اتكسر ، قوموا وادخلوا في الغرفة التى بجانب السرادق .
وازدحم السرادق بالحاضرين ازدحاما شديدا ، وماكدنا ننهى الدور الأول حتى رأينا أحد القوانيس ينكسر . فأسرعنا في الدخول إلى الغرفة . وقامت على أثر ذلك معركة شديدة بين أهالى البلد وأهالى بلد مجاور ، لخصومة شديدة قديمة بين البلدين . وقد علمنا ، فيما بعد ، أن أهالى القرشية أقاموا هذه الحفلة خصوصا ليضربوا خصومهم حين يأتون لسماع الغناء . ولكن النتيجة كانت عكسية ، فقد أخذوا هم علقه طريقة» .

ومن روايات أم كلثوم أيضا :

« ركبنا مرة قطار الدلتا لمدة ساعتين ونصف الساعة . ثم ركبنا الحمير لمدة ساعتين ونصف الساعة . . لكى نصل إلى « الكفر » الذى سنحى فيه ليلة الفرح . . ولما وصلنا بسلامة الله بعد هذا المشوار الشاق الطويل ، تبين لنا أن الفرح قد تأجل . فقال أبى لصاحب الفرح :

- طيب لما الفرح اتأجل . . مش كنت تدينا خبر ؟

فأجابه الرجل ببساطة شديدة :

- إيه !! ما كل الناس عارفة إن الفرح اتأجل !! »

عن سنوات السير على الأقدام . . . تحكى أم كلثوم في مذكراتها التى كتبها «على

أمين» ورسمها «بيكار» . . ففى الصفحات الأولى ذكرت :

« مسحت بقدمى الصغيرتين القطر المصرى ، قرية قرية . . . قبل أن أضع قدمى

في القاهرة . »

واستطاعت الطفلة الصغيرة أن تترك في كل قرية عددًا من المعجبين بصوتها . .
حيث كانت تنتقل من قرية إلى أخرى مشيا على الأقدام . . فقد كان أصحاب
الحفلات يرسلون إليهم « الحمير » ، لتحملهم إلى مكان الحفل . . فإذا انتهى الحفل ،
اختفت الحمير . . وهكذا كانوا يركبون ذهابا . . ويمشون إيابا !!

كانت المسافات التي تقطعها الطفلة أم كلثوم والديها وبطانتها - مشيا على الأقدام
تتراوح بين خمسة وعشرة كيلو مترات . ولم يكن السير على الأقدام ، وهى لا تزال
صغيرة ، أصعب متاعبها . . بل كان الانتظار على أرصفة المحطات هو تعبها الأكبر
. . فكانت تقف في عز البرد والمطر اثنتى عشرة ساعة كاملة أحيانا في انتظار مجيء
القطارات . وكانت هذه القطارات تمر أمام المحطة مرتين : مرة في السادسة صباحا .
ومرة أخرى في السادسة مساء . . ولذلك كانت هى وبطانتها يسرعون ، بعد انتهاء كل
حفل ، إلى محطة السكة الحديد . وكثيرا ما كانوا يصلون إلى الرصيف بعد قيام القطار
بدقائق . تقول :

« كنا نضطر إلى الانتظار ١٢ ساعة على الرصيف . وكان الانتظار في معظم الأيام
وسط البرد الشديد . . أو تحت الأمطار الغزيرة ، التى كانت تحرص على استقبالنا في
كل محطة نلجأ إليها .

وفي يوم من الأيام ، عرف أبى سر مفتاح باب « استراحة الركاب . . » وكان سر
المفتاح هو حنجرة الطفلة . . أم كلثوم . . لقد أقنع والدى ناظر المحطة بأن يفتح لى
استراحة الركاب . . وكان الثمن هو أن أغنى للناظر . وغنيت على أرصفة العديد من
محطات السكك الحديدية في الوجه البحري » .

وبدأت الطفلة « أم كلثوم » تكتشف أن الدنيا أكبر من الوجه البحري . . وأن
هناك مدنا أخرى لا تقل أهمية عن المنصورة والزقازيق .

« اكتشفت أن هناك مدينة اسمها القاهرة . . اكتشفتها بمحض الصدفة » . .

فقد حدث أثناء حديث عابر بين الثرى « عز الدين يكن » وناظر عزبته ، أن قال صاحب العزبة إنه سيقم في قصره بحلوان احتفالاً بليلة الإسراء والمعراج ، كعادته كل عام ، فقال ناظر العزبة :

- « والله يا سعادة البية عندنا بنت صوتها حلو قوى » .

فقال صاحب العزبة : « هاتها تغنى لنا »

وسافرت هى ووالدها والبطانة مع ناظر العزبة لأول مرة إلى القاهرة . . ولا تكاد أم كلثوم تذكر شيئاً عن المدينة الكبيرة .

« إن صورتها لم تعش في ذاكرتى . . كل ما أذكره هو محطة « باب اللوق » . فهناك اشترى لى والدى « كراملة » أعجبتنى ، وجعلتنى أتصور أن القاهرة بلد « الكراملة » الحلوة . وذهبنا إلى قصر « عز الدين بك يكن » في حلوان . . وخرج صاحب القصر لاستقبالنا . . »

لم تنس « أم كلثوم » هذا الاستقبال . . فعندما استقبلهم صاحب القصر ، نظر إليها « من تحت لفوق » عدة مرات ، ثم سأل ناظر العزبة في دهشة :

« هى دى البنت اللى ح تغنى في الحفلة ؟ »

ولما هز ناظر العزبة رأسه موافقاً . . صاح عز الدين بك :

« إيه لعب العيال ده . . بلاش كلام فارغ . . انزل مصر حالا ، وهات الشيخ اسماعيل سكر يحمي لنا الحفلة . . »

« ووضعونا في البدروم » مع الخدم . وجاء الشيخ إسماعيل سكر ، وراح يغنى للمدعوين . . وبعد أن اطمأن صاحب القصر على نجاح حفله ، قال لناظر العزبة :

- « هات لنا البنت الصغيرة تغنى . . ونشوف حتقول إيه . »

وجاءت البنت الصغيرة من البدروم . . وصعدت على كنية في الصالون ، وبدأت تغنى ، واستعادها الحاضرون مرات عديدة . . واستعادها معهم الشيخ إسماعيل سكر

نفسه . ثم جاء أحد الخدم ، وقال لعز الدين بك :

« الست عاوزة تشوف البنت الصغيرة فى الحرملك . »

وصعدت إلى الحرملك أنا وأخى خالد . . وأدخلونا صالوناً كبيراً مليئاً بالأثاث الفاخر . . وسمعنا صوتاً يقول لنا :

-اتفضلوا !!

وتلفطنا نبحت عن مصدر الصوت . . فلم نر أحداً فى الصالون . . وعاد الصوت يقول لنا :

-اتفضلوا-اتفضلوا-اتفضلوا . . !!

وهنا رأينا صاحب الصوت : إنه طائر فى قفص . . وأصبت بالفزع وصرخت

« الغراب بيتكلم . . الغراب بيتكلم !! »

وخرجت أنا وأخى من الصالون فى فزع . . واصطدمت عند الباب بحرم عز الدين بك . . وكنت أرتجف من شدة الخوف . وراحت تهدئ من روعى ، وتسألنى عن سبب فزعى ، فرحت أصرخ :

« الغراب بيتكلم !! الغراب بيتكلم !! »

وضحكت حرم عز الدين بك ، وقالت لى :

« إنه ليس غراباً . . إنه ببغاء . . والببغاوات بتتكلم . »

وعادت الطفلة « أم كلثوم » إلى قريتها وراحت تتحدث عن القاهرة بلد العجائب . . البلد الذى تتكلم فيه الغرابان .

وعن ذكريات طفولتها . . تحكى أم كلثوم :

« فى بداية حياتى الفنية ، كنت أتنقل بين القرى والعزب والكفور، أحمى الحفلات والأفراح . وكثيراً ما اضطرتنا الظروف إلى السير على الأقدام مسافات طويلة ، لكى نلحق بآخر قطار . فإذا فاتنا القطار فإننا ننام على رصيف المحطة .

وذات ليلة قارسة البرد ، قضينا الليل فى « زريبة بهائم » . وفى تلك الليلة اتخذت

من كومة قش فراشا لنومى ، وغطاء من البرد . وكان يجاورنى فى « المنامة » جل ضخم . . ورغم الإرهاق الشديد الذى كنت فيه نتيجة السير على الأقدام والغناء طول الليل . . إلا أننى لم أستطع النوم مخافة أن يرفسنى الجمل .

وتقول أم كلثوم أيضا : إنها كانت تركب مع أبيها وأخيها القطار فى الدرجة الثالثة . وعندما يتحرك القطار تسرع مع أبيها وأخيها إلى الثانية . وعندما يمر الكمسارى ، تتحایل عليه أن يتركهم فى الدرجة الثانية ، بسبب زحام الدرجة الثالثة . وعندما يتعرف الكمسارى على شخصيتها ، وأنها الطفلة التى تتمتع بالصوت الجميل ، والتى تحبى الحفلات فى القرى المجاورة ، يتركها لفترة ، ثم يعود مع زملائه ليمكثوا معها فى الديوان مستمعين إلى أغانيها وصوتها الجميل . وتضيف أم كلثوم : « إن الحقيقة لم تكن بسبب زحام الدرجة الثالثة ، وإنما علشان الناس الى مستنيين على محطة البلد الى رايحها يشوفونا نازلين من « البريمو » ، فاحترامهم لينا يزداد ونكبر فى أعينهم » .

كانت أم كلثوم ترتدى ملابس الصبيان . . وتغطى شعرها بكوفية وعقال . فالرجل الريفى يخشى التقاليد . وأراد الشيخ إبراهيم أن تنكر ابنته فى زى غلام . كما خافت الأسرة على ابنتها من الحسد ، فكلف الوالد أحد مشايخ القرية بعمل حجاب لها ، بقيها شر الحاسدين . ومن الطريف أن أم كلثوم ظلت محتفظة بهذا الحجاب إلى آخر يوم من حياتها . . إذ كانت تتفاعل به .

وفى عام ١٩١٨ ، دعيت الصبية أم كلثوم للغناء فى كلوب قناوى حسانين ، بمدينة الزقازيق . وعند وصولها بصحبة والدها ، رفضت أن تغنى القصائد الدينية وسط جمهور يحتسى الخمر . وبعد شد وجذب ، وافق الوالد على غناء ابنته ، بشرط أن يمتنع المكان عن بيع الخمر .

وحينما بدأت أم كلثوم تشتهر بصوتها الجميل . . وأصبح صيتها مدويا فى النجوع والقرى المجاورة . . أراد والدها أن يعاملها الجميع معاملة المطربين الكبار . وكان هناك مطرب مشهور اسمه « الشيخ حسن جابر » ، كان ينص فى بنود عقده على

(إضافة زجاجة كازوزة) أثناء الحفل . ففعل والد أم كلثوم كذلك . . وأضاف الكازوزة في العقد مثل المطربين الكبار .

كما اشترط الوالد ، بعد أن اشتهرت ابنته ، في العقد على صاحب الحفلة (أن يقدم الحميم للمطربة والموسيقيين) ، وكانت هذه هي وسيلة المواصلات في ذلك الوقت . وعن طفولتها وبدايتها الفنية مع والدها . . وعن الحفلات التي أقامتها في القرى والمدن المجاورة قالت :

« لقد دعكتني هذه السنوات ، وصقلت موهبتي ، وجعلتني أكثر جلدًا واحتمالًا ، وعلمتني أن الطريق أمام من يريد الوصول . . طويل . . طويل . . . »
وقالت أيضا :

« نفعني تلك الفترة . . فعندما بدأت أشتهر وأسجل أسطوانات . . اشترى كل أعيان الريف الذين غنيت في بيوتهم وأفراحهم ، أسطواناتي ليقول كل واحد منهم لأصدقائه :

- تعالوا نسمع البنت التي غنت عندنا في الفرح .

لقد كوَّنت لنفسى زباين وسميعة ، ظهروا مرة أخرى بعد ما نجحت » .
وجاء في مذكرات الحاج « إسماعيل أبو العينين »^(*) التي كتبها ، والخاصة بعمله مع أم كلثوم في فرقة واحدة تعريف بحياة أم كلثوم الفنية في قرى السنبلاوين ومحافظتي الدقهلية والشرقية ، ضمت هذه المذكرات نماذج من الأشعار التي تغنت بها أم كلثوم. وفيها يقول :

« التقيت في إحدى السهرات الدينية ، التي كان يقيمها المرحوم « على بك أبو العينين » من أعيان مدينة السنبلاوين في ليالى رمضان المعظم ، بالخالدة « أم كلثوم » . . وكان عمرها حوالى ١٢ عاما يرافقها والدها المرحوم الشيخ « إبراهيم السيد البلتاجى » وشقيقها الشيخ « خالد » .

(*) (الحاج اسماعيل أبو العينين من قرية تمى الامديد - مركز السنبلاوين - بدأ الغناء في حفلات القرية - كهاو .

وفي هذا الحفل الدينى أنشدت أم كلثوم لحنا دينيا (رغم صغر سنها) ويقول
الموشح الدينى :

اللهم صل وسلم على	أحمد محمد نبى الهدى
صلاة نفوز بها فى غد	ونسعد بها ونكيد العدا
بعد الحصى والرمال	وموج البحار وقطر الندى
بعد الملائكة القائمين	كذا الراكعين مع السجدا
وآلف صلاة وآلف سلام	على أحمد محمد نبى الهدى

وقد غنتها مرات ومرات ، بناء على طلب الحاضرين . ثم أعلن شقيقى الوجيه «على بك أبو العينين» اسمى ، وقدمنى للغناء . وشعرت برهبة وخوف ، خاصة وأن الفتاة الصغيرة أم كلثوم - غنت ونالت إعجاب الحاضرين . غنيت موشحا دينيا من تأليف شقيقى «على بك أبو العينين» . وأثناء غنائى كانت عيناى على الفتاة الصغيرة « أم كلثوم » ، لأرى مدى تأثير غنائى عليها . كانت تتمايل طربا . وبدأت تردد معى بصوت منخفض كلمات الموشح . وما إن انتهيت من الأداء حتى صفقت لى ، وقامت وصافحتنى وقالت لى مبتسمة : برافويا أبو السباع ، صوتك جميل - عربى أصيل .

ثم ذهبت إلى أبيها ، وهمست فى أذنه بكلمات لم أسمعها - وبعد قليل ، وجدت الشيخ «إبراهيم البلتاجى» يتحدث لى شقيقى الوجيه «على بك أبو العينين» . ثم نادى على وقال :

- أنا خلاص اتفقت مع سعادة على بك . . أنك تكون معانا فى الحفلات والليالى الدينية ، تغنى موشحات مع أم كلثوم . . رأيك إيه يا أبو السباع ؟ ولم أتمالك نفسى من الفرحة وأسرت أقول :

- أنا تحت أمرك يا سيدنا الشيخ إبراهيم ، ده شرف كبير . . صحيح أننى هاو،
لكن حاسنفيد وأتعلم على إيدك الكريمة .
ومنذ هذا اليوم بدأنا جولات فنية فى قرى السنبلاوين . ثم انتقلت شهرتنا إلى قرى
محافظتى الدقهلية والشرقية .

أم كلثوم تؤلف :

كانت أم كلثوم تختار كلمات القصائد والموشحات الدينية من المؤلفين فى
السنبلاوين والدقهلية . وأحيانا من تأليف والدها الشيخ إبراهيم . كانت تمتاز - رغم
صغر سنها - بالبلاغة ، وبخاصة اللغة العربية ، لحفظها القرآن الكريم . ولذلك
كانت ذات حاسة أدبية لماحة . فكانت تضيف وتحذف من القصائد والموشحات
الدينية ، وأحيانا تغير معنى الكلمة إلى معنى آخر أعذب وأرق . وبعد ثلاث سنوات
من العمل معا - وأصبح عمرها ١٥ عاما - أقدمت على تأليف القصائد والموشحات .
وأول قصيدة ألقتها أم كلثوم وغنتها كانت بعنوان « تبارك من تعالى فى علاه » ، وتقول
فيها :

تبارك من تعالى فى علاه	يقول للعبد اطلبنى تجدى
أنا المطلب فاطلبنى تجدى	وإن تطلب سوى لم تجدى
أنا المقصود لا تقصد سوى	كثير الخير فاطلبنى تجدى
أنا الملك المهيمن جل قدرى	عظيم الخير فاطلبنى تجدى
تجدى فى سجودك حين تدعو	و حين تقوم فاطلبنى
تجدى راحما بارا رءوفا	بكل الخلق فاطلبنى تجدى
وإذا اللهفان نادانى حزينا	أقول لييك فاطلبنى تجدى

وهناك الكثير من الموشحات والقصائد غنتها أم كلثوم من تأليف والدها الشيخ
إبراهيم البلتاجى . . والحق أن موشحات والدها كانت أم كلثوم تغنيها بدون تعديل

أو إضافة أو حذف . وكانت تعلق على ذلك بقولها :
- إنه والدى - وأستاذى - ومعلمى يا أبو السباع ، إزاي التلميذة تعدل وتضيف
وتحذف لأستاذها ومعلمها ؟

ومن القصائد التى تعتر بها أم كلثوم من تأليف والدها ، وكانت تغنيها فى أغلب
الحفلات والليالى الدينية ، موشح دينى بعنوان « من الله نرجو الغفران » . ويقول الموشح :

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

من الله نرجو الغفران

إن كنت يا ولهان

خائفا من الديان

قم فى الدجى سهران

بالذكر والقرآن

واترك جميع دنياك

واقصد حى مولاك

فهو الذى أنشاك

بالفضل والإحسان

تب توبة الأبرار

وابك على الأوزار

يرضيك بالغفران

وكانت أم كلثوم تردد قصيدة من تأليف الشيخ « إبراهيم جمعه » - شيخ الكتاب
بحى الحوال بالسنبلاوين الذى التحقت به بعد وفاة الشيخ « عبد العزيز » شيخ كتاب

قرية طهای الزهارة . والقصيدة بعنوان « الدهر لوعنى فى الحب من صغرى » وتقول
القصيدة . .

الدهر لوعنى فى الحب من صغرى فلا مفر من المحتوم فى القدر
إلى متى اللوم يا خالى من الفكر ألا ترى الدمع من عينى كالمطر
والجسم ذاب من التبريح والغير عدتك خالى لأسرى بمستتر

وأم كلثوم كانت تؤلف أيضا تواشيح دينية أذكر منها موشح :
« يا حبيبى يا محمد » وهو من تلحينها . وتقول فيه :

صل يارب وسلم	ع النبى بدر التمام
يا حبيبى يا محمد	أنت مصباح الظلام
أنت سر الله حقا	والمظلل بالغمام
أنت نور أنت بدر	أنت كهف للأنام
أنت أصل للبرايا	أنت مولانا الإمام
يا رسول الله إنى	أبتغى نيل المرام
كن مغشى كن مجرى	فى الورى يوم الزحام
أنت مطلوبى فهب لى	نظرة لسوف المنام

وظللنا نجوب القرى والنجوم نشد فى الحفلات والليالى الدينية . وكان لأم كلثوم
العديد من القصائد والموشحات الدينية . والمديح فى الرسول عليه الصلاة والسلام . .
أذكر منها : « صلى وسلم يا كريم » و « يارب صلى على المختار » و « ألا إن رب
العرش بالعفو ناظر » و « إلهى توسلنا تجاه محمد » و « لولاك يارب الوجود » و « يا أمة
الهادى لنا وذويه » و « نبى على الرسل الكرام مكرم » . وفى الحب كانت تغنى قصائد
منها : « سلوا الحب عنى » و « ساقى المحبة قد سقى » و « تعجب الناس من الصبر
فى لوعة الحب » و « إن قلبى ذو هيام » .

لقاء أم كلثوم والشيخ أبو العلا محمد :

روت أم كلثوم لقاءها الأول مع الشيخ « أبو العلا محمد » فقالت : « كنت أغنى بلا إحساس ولا شعور . . لقد كنت أردد الأغاني التي أسمعها من أبي بنفس الطريقة التي يردد بها التلميذ الصغير جدول الضرب ، وقواعد النحو والصرف . . ثم غيرني فونوغراف العمدة . لقد سمعت من هذا الفونوغراف صوت الشيخ أبو العلا محمد . . وهزنى صوته . كنت أشعر أنه يغنى لى وحدى . . وسمعت صوته مئات المرات - من الفونوغراف - وهو يغنى « أفديه إن حفظ الهوى أو ضييعا » ، وسمعت صوته مئات المرات وهو يغنى « وحقك أنت المنى والطلب » و « غيرى على السلوان قادر » .

. كان الفونوغراف يسكت . . ولكن صوت الشيخ أبو العلا كان يستمر فى أذنها وكانت تتصور أنه قد مات ، إلى أن جاء اليوم الذى التقت فيه بالشيخ أبو العلا فى محطة السنبلاوين . وبالطبع لم تتعرف عليه إلا بعد أن سمعت والدها يقول :
- الشيخ أبو العلا هنا . .

وتقول أم كلثوم :

« لم أصدق أذننى ، ورأيت أبى يسرع نحو الرجل الكبير، ويصافحه فى احترام . وأسرعت وراءه وأمسكت بيده ، ورحت أحدثه على الفور عن إعجابى به . »
وجاء فى روايتها عن هذا اللقاء . . أن الشيخ أبو العلا لم يهتم بحديثها واستمر فى حديثه مع الآخرين . حاولت أن تمنعه من الحديث مع آخر غيرها . . أمسكت بيده وألحت عليه أن يأتى معهم لزيارتهم فى القرية . . وأمام هذا الإلحاح رضخ الشيخ أبو العلا وذهب معهم إلى قرية « طماى الزهايرة » .

تقول أم كلثوم :

« دخلت إلى أمى ، وأنا أكاد أطير من شدة الفرح ، وقلت لها إن أهم إنسان فى الدنيا سيتناول معنا طعام الغداء . كل حاجة عندك قدميها له . . ادبحى الفراخ اللى عندك ، والى عند الجيران . » كانت لا تصدق عينيها . . عاشت فى حلم . . .

ولما جلست أم كلثوم أمام الشيخ أبو العلا طلبت منه أن يغنى . . فطلب منها أن تغنى هى أولا . . ورفضت فى خجل . . فكيف تجرؤ على الغناء أمام هذا العملاق . . ؟ فغنى لها . . وغنت له . تقول :

« شعرت أن فى بيتنا أجمل أحلامى . . وأحسست بضربات قلبى وأنا أسمع صوته . . »

أعجب الشيخ أبو العلا بصوت أم كلثوم . واقترح أبو العلا على والدها الشيخ إبراهيم أن يترك قرية « طماى » وينتقل إلى القاهرة . ولكن الوالد كان يشعر بالطمأنينة فى قريته . . ويخشى الغربه . . فقال الشيخ أبو العلا :

« إن مستقبل ابنتك أكبر من طماى . . وحرام عليك تحبس هذه الموهبة فى قرية صغيرة . »

وأجاب الوالد :

« لما نشوف اا ربنا يعمل اللى فيه الخير . . . »

وتروى أم كلثوم :

« دخلت فى المناقشة . . وكانت أول مرة فى حياتى أناقش والدى ، وألح عليه فى ضرورة السفر إلى القاهرة . . ولم أتعب من « الزن » و « الإلحاح » . إلى أن حدث أن اتفق أحد أهالى القاهرة مع الشيخ إبراهيم على أن تحمى أم كلثوم فرح ابنته فى كوم الشيخ سلامة المجاور لحي العتبة الخضراء . سافرت الأسرة . . وأخذت معى « تحويشة العمر » . . »

نداء القاهرة :

تقول أم كلثوم : « فقدت الخمسة عشر جنيها التى ادخرتها من مصروفى «وعيديتى» . فى القاهرة نزلنا فى بيت صغير - بيت صاحب الفرح - وقبل خروجنا من البيت لإحياء الحفلة ، وضعت ثروتى « الضخمة » فى جيبى . ولما انتهى ، الحفل وعدنا إلى

البيت ، أسرع إلى « تحريشة العمر » لأخرجها من جيبى فلم أجدها . لم أصدق عيني . . رحلت أبحث في جيب أخى . . وتحت الكراسى فلم أجدها أثرا . . ولم أذرف دمعة واحدة . لقد كانت نكبتى أقوى من الدموع .

أنخت أم كلثوم الحادث عن والدها في أول الأمر . . ولكنها اضطرت أن تعترف بما حدث . . وعاهدت نفسها على ألا تحىء إلى القاهرة مرة أخرى . ولكن نداء القاهرة كان أقوى من ضياع أموال قارون ، فعادت إليها أكثر من مرة . وكانت إقامتهم في -
لوكاندة «جوردن هاوس» التى تطل على شارع فؤاد الأول (٢٦ يوليو حاليا) .

وذات مرة ، جاء « الشيخ أبو العلا » لزيارتهم باللوكاندة . . وطلب منها أن تغنى له . . فغنت . . وسكت « الشيخ أبو العلا » . . تقول أم كلثوم :

رأيت دمعة تسقط من عينيه ثم قال :

- لن أفترق عن هذا الصوت طول عمري . .

وفعلا ، لم نفترق منذ تلك اللحظة . . كان يصحبنى مع أبى وأخى في كل حفلاتى . . وفى كل مكان نذهب إليه .

تعلمت أم كلثوم من « الشيخ أبو العلا » الكثير . . إذ قدم لها خلاصة تجاربه وفنه . . علمها كيف تتذوق الشعر وتفهم مضمونه قبل أن تحفظه وتغنيه . قالت :

« استمرت صداقتى بأستاذى الشيخ أبو العلا سنين طويلة . . كنت أبحث عنه في كل مكان لأستظل برعايته وأستاذيته ، وكنت أطلب في كل مرة نلتقى فيها أن يغنى لى . . كان غناؤه غذاء روحى . »

أنا وأحمد رامى :

« وعن طريق الشيخ أبو العلا عرفت الشاعر أحمد رامى . فقد التقى رامى بالشيخ أبو العلا ذات يوم وسأله :

- فيه بنت بتغنى اسمها أم كلثوم . . إيه رأيك فيها ؟

فأجاب الشيخ أبو العلا :

- دى بتقول لروحها « آه » .

وفى إحدى حفلاتى بحديقة الأزبكية ، عرفت أن أحمد رامى جاء يسمعى ، فأردت أن أحيى الشاعر الذى غنيت أشعاره قبل أن أراه . أردت أن أقول له أهلا . فغنيت له قصيدة « الصب تفضحه عيونه » . وكانت مفاجأة له . . كان رامى يحب الغناء . . وكنت أنا أحب الشعر . ويرجع له الفضل كل الفضل فى تذوقى للشعر وفهم معانيه . . كان يقدم لى فى كل مرة يزورنى فيها ديوان شعر . وتعلمت على يديه أوزان الشعر . وبدأت أفرق بين البيت المكسور والبيت الذى يقف على قدميه »

ومنذ أن التقت أم كلثوم بأحمد رامى ، لم تنظم بيتا واحدا من الشعر . وحول هذا الموضوع تقول أم كلثوم :

« لعل السبب هو كثرة قراءتى . . ولأننى قرأت الشعر الجيد وتذوقته . ولولا قراءتى لحاولت أن أنظم عددا من القصائد ، أعب فيها عن مشاعرى . . ولكننا عندما نتعلم ، نعرف مكاننا بين العلماء !! » .

وعندما توفى الشيخ أبو العلا محمد ، غنت أم كلثوم فى حفل أقيم لإحياء لذكراه . غنت بصوت يتمزق ألما وهى تذرف الدموع . . لقد مات أستاذها ، ومثلها الأعلى فى الغناء .

وعن أيامه الأخيرة روت أم كلثوم :

« أصيب الشيخ أبو العلا فى أيامه الأخيرة بالشلل ، فتعذر عليه أن يغنى وأن يلحن . وعندما كنت أذهب لزيارته ، كنت أشاهده وأنا مكتوفة الأيدى ، لا أستطيع شيئا أمام عذاب ذلك الرجل الذى أحب الغناء والموسيقى والطرب ، والذى أوجد أنغاما ساحرة . لقد تألم كثيرا ، لكنه حاول بالرغم من ألمه أن يغنى لى . وعندما يخونه صوته أثناء الغناء ، كان يقول لى « أنت عارفة أنا عاوز أقول إيه ؟ » كان يجا من أجل

جمال الحانه ، لن أنسى هذا كله ، وسأحفظ له جميل الذكرى .
وعند تشييع جنازة الشيخ أبو العلا محمد ، لم يشيعه من أهل الفن سوى أم كلثوم
وأخيها خالد ، وأستاذ الكمان سامى الشوا . تقول أم كلثوم :
« لم أستطع أن أبقي في بيتى . . ولم أحتمل أن أذهب إلى بيته . . كنت أحس أن
البيوت لا تتسع لحزنى . »

فضل الشيخ أبو العلا :

ومن روايات أم كلثوم عن الشيخ أبو العلا :
« علمنى الشيخ أبو العلا أن أفهم الكلام قبل أن أحفظه وأغنيه . فقد كنت أردد
الكلام بلا فهم ولا اهتمام . بدأت الكلمات غير المفهومة تتعثر في فمى ، وترفض
الخروج من بين شفتى . وفى إحدى الليالى كنت أغنى مع أفراد الفرقة :

جل من طرز الياسمين فوق خدك بالجلنار
واصطفى ذا الجمان الثمين معدنا من لماك العقار

ووقفت كلمة « ذا الجمان » فى فمى ، ورفضت الخروج من بين شفتى . وتركت
باقى أفراد الفرقة ينطقون الكلمة وحدهم .

تصور أبى أننى نسيته ، فلم يعر الأمر اهتماما . ولما تكرر وقوفى عند نفس الكلمة
مرة أخرى ، أحس والدى بأن المسألة ليست مسألة نسيان . فسألنى لم لا أغنى هذه
الكلمة ؟

فأجبت :

- مش عارفة أقولها ازاي ؟ موش عارفة أقولها وأنا بضحك ، ولا أقولها وأنا مكشرة ؟

أنا مش فاهمة معناها إيه !!

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أواجه فيها والدى بما تعلمته من الشيخ أبو العلا ،
وهو أنه يجب أن أفهم المعانى قبل أن أغنى الكلمات . . . »

- غنت أم كلثوم العديد من القصائد والموشحات الدينية، وبقي لنا من ألحان أبو العلا محمد تسع قصائد، سجلتها على أسطوانات، هي :
- ١ - الصب تفضحه عيونه (أحمد رامى) على أسطوانة جراموفون عام ١٩٢٤ (أول قصيدة تغنيها أم كلثوم لأحمد رامى ، وأول ما لحن الشيخ أبو العلا من كلمات رامى .
 - ٢ - وحقك أنت المنى (الإمام عبد الله الشبراوى) جراموفون عام ١٩٢٦ .
 - ٣ - أقصر فؤادى (أحمد رامى) جراموفون عام ١٩٢٦ .
 - ٤ - مثل الغزال نظره (صفى الدين الحللى) جراموفون عام ١٩٢٦ .
 - ٥ - يا آسى الحى (إسماعيل باشا صبرى) جراموفون عام ١٩٢٦ .
 - ٦ - أفديه إن حفظ الهوى (ابن النبيه المصرى) جراموفون عام ١٩٢٨ .
 - ٧ - أمانا أيها القمر المطل (ابن النبيه المصرى) جراموفون عام ١٩٢٨ .
 - ٨ - قل للنجيلة بالسلام تورعا (؟) جراموفون عام ١٩٢٨ .
 - ٩ - أكذب نفسى (بكر بن النطاح الحنفى) أوديون ١٩٣١ .
 - ١٠ - كم بعثنا مع النسيم سلاما (إبراهيم حسنى ميرزا) لم تسجل .

أم كلثوم تغنى فى القاهرة :

يروى مدحت عاصم :

« . . دُعيت مع والدتى إلى حفل بقصر آل عبد الرازق . وكانت هذه هى أول مرة يتردد فيها صوت أم كلثوم بالقاهرة . كان حفلا خاصا جدا ، أقامه آل عبد الرازق خصيصا لأم كلثوم ، كى يفتحوا أمامها أبواب بيوتات القاهرة . وقد حضر هذا الحفل نخبة من رجالات مصر ، أذكر منهم : عدلى باشا يكن ، وعبد الخالق ثروت ، وعلى ماهر ، وأستاذ الجليل لطفى السيد . ومازلت أذكر استخفاف الحاضرين بهذه الفتاة الصغيرة القد ، التى ترتدى ثوبا ريفيا بسيطا جدا ، يتوارى خجلا أمام الأزياء التى

ارتدتها سيدات الحفل . وسارت الفتاة بين صفوف المدعوين ، وشالها الأسود يخفى كل رأسها ، ما عدا عينيها وفمها ، حتى وقفت في المكان المخصص لها ، وبدأت في الشدو .

وفي البداية انصرف المدعوون عنها إلى أحاديث جانبية لاهية . وما كاد صوتها الرخيم يخرج من فمها ، حتى صمتت الأحاديث القرية منها . وبعد لحظات كان المكان يسيطر عليه الصمت العميق . وشدت أم كلثوم بكلمات دينية تقول : «مولاي كتبت رحمة الناس عليك فضلا وكرما» .

وما كادت تستطرد في الغناء حتى أقبلوا عليها بكل جوارحهم ، وقد أصبحوا كالسكارى . . وما هم بسكارى . وتعالص أصواتهم من كل جانب تطلب منها أن تعيد وتكرر . وكانت دهشتي بالغناء لا تتناسب وسنى الصغير ، لأننى كنت أرى أغلب المطربين والمطربات ، الذين يدعون إلى مثل هذه الحفلات ، يغنون لأنفسهم فقط . منذ ذلك اليوم ، بدأت أهتم بهذه الفتاة الصغيرة . . الكبيرة والعظيمة المستقبل . .» .

تروى أم كلثوم :

« حدث عام ١٩٢٣ ، أنها كانت تغنى في كازينو « البوسفور » ، وقد ارتدت العقال و الباطلو الأزرق . فبدأت كعادتها تنشد واحدة من المدايح النبوية مطلعها : «سبحان من أرسله رحمة» . وإذا ببعض أفراد الجمهور يطلبون منها أن تتوقف عن غناء هذه القصيدة ، وأن تغنى واحدة من الأغاني الهابطة السائدة آنذاك . ولما لم تلتفت واستمرت في الإنشاد ، إذا عدد من الحاضرين يصعدون إلى المسرح ويسدلون الستار» . كانت القاهرة حينذاك تعيش فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وكانت الأغاني المترددة في المقاهى والمسارح يسودها جو من الانحلال والهبوط والإسفاف في كلماتها وألحانها وأسلوب أدائها . . فكان من الطبيعى أن تتعرض هذه البدوية الصغيرة لبعض من المخاطر .

ويروى أن أم كلثوم تعرضت ، ذات ليلة ، لمستمع خمور يشهر في وجهها مسدسا ،
ويطالبها بالتوقف عن الغناء « الغم » . . وأن تغنى أغنية من أغاني « الفرقة » .
ظلت أم كلثوم في القاهرة ثلاث سنوات تغنى دون فرقة موسيقية ، على مسرح
كازينو « البوسفور » بميدان المحطة شتاء ، وعلى مسرح صالة « سانتى » بحديقة
الأزبكية صيفا . في هذه الفترة كانت تغنى قصيدة

« وحققك أنت المنى والطلب وأنت المراد وأنت الأرب »

وموشحة : « جل من طرز الياسمين » . وقصيدة :

« لى لذة فى ذلتى وخضوعى وأحب بين يديك سفك دموعى »
وقصيدة : « غرى على السلوان قادر » وقصيدة : « أمانا أيها القمر المثل » .
وكان أغلبها من ألحان الشيخ أبو العلا محمد ، بها فى ذلك قصيدة : « أراك عصى
الدمع » . ومن بين ما كانت تغنيه كذلك قصيدة لأحمد رامى مطلعها :

« الصب تفضحه عيونه وتنم عن وجد شجونه »

وهى من تلحين الشيخ أبو العلا أيضا .

من البيت إلى القصر :

فى عام ١٩٢٦ ، اتجهت أم كلثوم اتجاها جديدا فى أسلوب غنائها . وكونت أول
تخت لها من الفنانين ، محمد العقاد (قانون) سامى الشوا (كمان) محمد القصبجى
(عود) محمود رعى (إيقاع) ، وبعض المذهبية (*) . وفى العام نفسه تغير زى أم كلثوم
من بالطر وكوفية وعقال ، إلى ملابس حديثة . . . وكانت حريصة على أن ترتدى رداء
الرأس المعروف باسم « التول » . كما انتقلت من « بيت الدرى » بشارع قوله بحى
عابدين ، إلى عمارة « بهلر » المطلة على قصر عائشة فهمى بالزمالك .

(*) وكان من بينهم شقيقها خالد .

واستمرت أم كلثوم في إقامة حفلاتها الشهرية يوم الخميس الأول من كل شهر على مسارح « سينما فؤاد » و « البسفور » و « حديقة الأزبكية » و « رمسيس » .
وفي هذا العام أيضا ، تعاقدت معها شركة أسطوانات « أوديون » ، فسجلت أسطواناتها الأولى بأجر قدره مائة وخمسون جنيها عن الأسطوانة الواحدة . واعتبرت أم كلثوم هذا المبلغ صفقة رابحة ، وبدأت تفكر في بناء فيلتها بشارع أبو الفدا بالزمالك ، والتي انتقلت إليها عام ١٩٣٦ .

كان والد أم كلثوم قد تقاعد عن العمل ، منذ أن استقلت أم كلثوم بحفلاتها بمصاحبة تحتها الجديد . وأخذ يدير أعمالها ويتعاقد باسمها . . ويقبض الذي تتقاضاه . . ويعطيها مصروفها الخاص . . ويوفر المبالغ الباقية . . وبذلك تمكنت أم كلثوم من شراء مائة وخمسين فدانا في قرعتها . . زادت فيها بعد إلى مائتي فدان . وبنت هناك بيتا من طابقين بالطوب « اللبن » ، أقام والدها فيه إلى أن توفي عام ١٩٣٢ .

بعد أن افتتحت أم كلثوم بصوتها محطة الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤ ، تعاقدت معها الإذاعة على إحياء حفلين في الشهر ، يذاعان من إستوديوهاتها ، في مقابل أجر قدره خمسة وعشرين جنيها عن كل حفل . . وتغنى في كل حفل وصلتين . . كل وصلة تستغرق نصف ساعة . ثم ارتفع هذا الأجر عام ١٩٣٦ ، فبلغ أربعين جنيها ، ثم زاد إلى خمسين جنيها ، على أن تستغرق كل وصلة أربعين دقيقة .

اقترحت أم كلثوم على الإذاعة أن تقيم لها حفلات خارجية ، ينقلها الميكروفون من أحد مسارح القاهرة . والمعروف أن أم كلثوم كانت لا تشعر بالاندماج أثناء غنائها داخل الإستوديو . . كانت تفتقد جمهورها . واقترح أحمد رامى أن يحضر تسجيلاتها من داخل الإستوديو ليستمع إليها ، ويعبر عن طربه وإعجابه بالإبيات والإشارات . . وانطلقت أم كلثوم في الغناء داخل الإستوديو ، لمستمع واحد ، هو شاعر الشباب الذي أطلق على نفسه لقب « سميع الغبرا » . وقدمت أم كلثوم أول

حفل مذاع لها بمسرح دار الأوبرا ، في يوم ٧ يناير عام ١٩٣٧ . . وزادت في هذا الحفل من عدد أفراد العازفين بفرقتها . وعندما توفي عازف القانون الكبير « محمد العقاد » ، حل محله في فرقة أم كلثوم الموسيقية « عبد الحميد القضاي » ، ثم « إبراهيم العريان » ، وبعد ذلك « محمد عبده صالح » . كما حل محل ضابط الإيقاع « محمود رحى » ، العازف « إبراهيم عفيفى » . وأخذ « كريم حلمى » مكان عازف الكمان « سامى الشوا » . كما أدخلت آلتين لم تتواجدا من قبل في فرقتهما ، هما آلة الناي التى قام بالعزف عليها « حسن فاضل » ثم « سيد سالم » . وآلة الفيولنسل التى قام بالعزف عليها « محمود رمزى » . كما زادت أم كلثوم على عازفى الكمان « أنور منسى » و « أحمد الحفناوى » . وكان من بين عازفيها « عبد المنعم الحريرى » و « أحمد العريان ونجيب رزق الله ومحمود القصبجى » . كما كان يتناوب وظيفة ضابط الإيقاع مع إبراهيم عفيفى كل من « سعيد الموجى » و « صالح الكرانى » .

أول أسطوانة :

وتعتبر أسطوانة قصيدة « أراك عصى الدمع » من أولى أسطوانات أم كلثوم ، وهى من شعر « أبى فراس الحمدانى » ولحن عبده الحامولى . وقد سجلتها أم كلثوم على أسطوانات أوديون عام ١٩٢٦ ، وهى من مقام البياتى .

وأعاد زكريا أحمد تلحين هذه القصيدة فى مقام السيكا ، وغنتها أم كلثوم عام ١٩٤٤ ، ولم تسجل .

ثم أعاد رياض السنباطى تلحينها للمرة الثالثة من مقام الكرد ، وغنتها أم كلثوم يوم الخميس ٣ ديسمبر عام ١٩٦٤ . وأضيف إلى القصيدة الأبيات التالية بعد البيت الخامس :

وفيت وفي بعض الوفاء مذلة لفاتنة في الحى شيمتها الغدر
تسائلنى من أنت وهى عليمه وهل لشج مثل على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى قتيلك قالت أيهم فهم كثر
وقد سجلت على أسطوانة صوت القاهرة .

ومن الملاحظ أن تسجيلات أم كلثوم من الأسطوانات في العشرينات . كانت
أغلبها من الطقاطيق الخفيفة مثل : « يا كروان والنبى سلم » - « حبيت ولا بانث على »
و « أنا على كيفك » . إلى جانب بعض القصائد الشعرية القديمة مثل : « أفديه إن
حفظ الهوى أو ضيعا » و « أمانا أيها القمر المثل » - و « أكذب نفسى عنك في كل ما
أرى » .

وبذلك استطاعت بأغانيها أن تواكب موجة الغناء الخفيف ، إلى جانب حرصها
على الارتقاء بذوق الجماهير بأدائها لبعض القصائد . . وكان في هذا أيضا إرضاء
لنفسها ولفنها .

ولكن أم كلثوم أخطأت مرة ، بنزولها على رغبة الجمهور ، وسجلت لإحدى شركات
الأسطوانات أغنية من ألحان الدكتور صبرى النجريدى ، الذى كان يتميز بألحانه
الخفيفة المرححة ومطلعها :

« الخلاعة والدلاعة مذهبي من زمان »

ولما طرحت الأسطوانة في الأسواق ، إذا محبو فن أم كلثوم يلومونها على انسياقها وراء
موضة العصر من الأغاني الهابطة الخليعة .

وسارعت أم كلثوم إلى جمع أسطوانات الأغنية من الأسواق ، بعد أن دفعت تعويضا
لشركة إنتاج الأسطوانة . ولكنها عادت وغنت الأغنية من جديد ، بعد أن أجرى أحمد
رامى تعديلا على الكلمات . . فأصبح مطلعها :

« الخفاقة واللطافة مذهبي من زمان » . .

ومن الظواهر اللطيفة ، أن المطربين والمطربات ، والفنانين عموما ، كان لهم العديد

من الألقاب . . فمثلا :

دولت أبيض ، كانوا يسمونها : صديقة العمال
 وزينب صدقى ، كانوا يسمونها : صديقة العظماء
 ومنيرة المهديّة ، كانوا يسمونها : سلطنة الطرب
 وفتحية أحمد ، كانوا يسمونها : مطربة القطرين
 ومحمد عبد الوهاب ، كانوا يسمونه : مطرب الملوك والأمراء
 أما أم كلثوم ، فعرفت باسم : كروانة مصر - أميرة الإنشاد والغناء - وفيها بعد كوكب
 الشرق - ثم سيدة الغناء العربى .
 كانت شركات الأسطوانات والحفلات تهتم بالإعلانات . كما جاء فى عام ١٩٢٨
 إعلان عن حفل تقيمه أم كلثوم . . جاء بالطريقة الطريفة الآتية :

نحييكم وتستقبلكم بعد احتجابها الطويل فحيوها -
 وتطربكم بصوتها الحنون بكل جديد مدهش لأول مرة
 بمسرح ومسيح شارع عماد الدين
 الأنسة أم كلثوم
 على نخت مؤلف من محمد العقاد ومحمد القصبجى وكريم حلمى
 أغانى شعرية من نظم شاعر الشباب
 الأستاذ أحمد رامى .
 توجد ألواح حريمى غاية فى الحفظ والصون
 فتذكروا ولا تنسوا يومى ٦ ، ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٨
 توجد مراوح كهربائية كبيرة لجلب الهواء فى داخل التياترو

لقاء أم كلثوم والشيخ سيد درويش :

جاء على لسان محمد علي حماد^(٦)

« . . في صيف عام ١٩٢٣ ، كنت أجتازحنة نفسية شديدة أثر وفاة أمى المفاجئة . . وكان سيد درويش يمر هو الآخر بأزمة نفسية عنيفة أثر حل فرقة الخاصة التى قدم معها رائعته شهرزاد والباروكة . . وأعاد درته الخالدة : العشرة الطيبة . واجتمعنا حزنين . . وقرنا أن نمضى بضعة أيام فى مصيف رأس البر . وكان فى ذلك الوقت ، أشبه ما يكون بقرى الريف المصرى الجميل بهدوئه وقله رواده . . وما يمتاز به من جو ساحر لطيف يناسب الأعصاب المرهقة المشدودة . وتخبرنا فندقا متواضعا ، كان يمتاز بالنظافة والأكل الجيد . . مع الأجر القليل المناسب للتزليلن الكريمين . . المفلسين .

و ذات مساء ونحن نتناول طعام العشاء ، لاحظنا جمعا من أصحاب العائم ، لعل عددهم لم يكن يزيد على ثلاثة أو أربعة ، يتناولون عشاءهم على مائدة قريبة . ولفت الأنظار صغير كان يجلس معهم . يلبس العقال فوق بالطولا يكاد يبين له لون من القدم .

وكان التنافر يبدو شديدا واضحا ، بين وقار هذه العائم وحركة الصغير النشطة الدائبة . . وسأل سيد درويش صاحب الفندق . وكان قد اعتاد أن يتناول عشاءه معنا تحية منه لنزله الكريم سيد درويش .

— من هؤلاء . . ؟ وما قصة هذا الصغير الذى معهم !

وقال الرجل :

— إن هذه أم كلثوم . . وهؤلاء أبوها وأخوها وخطيبها .

وسأله سيد :

— ومن تكون أم كلثوم هذه ؟

ولم يخف دهشته من أن يكون هذا الطفل هو هذه الفتاة . .

وقال الرجل :

-إنها مغنية ريفية من قرية قريبة من بلدة السنبلاوين . . وإن أحد نزلاء الفندق من أعيان الدقهلية يعطف عليها . . وقد استقدمها هى وبطانتها حيث نزلوا جميعا فى ضيافته بالفندق . وستغنى الليلة فى صالة الفندق للنزلاء . . ولن يشاء من نزلاء رأس البر . . والدخول بخمسة قروش . وحصيلة الدخل لها ولن معها . أما نفقات الإقامة فقد تكفل بها وجيه الدقهلية .
وضحك سيد وهو يقول .

-الموسيقى ورائنا ورائنا حتى فى هذا المهجر . نسهر ونسمع وأمرنا لله .
وسهرنا وسمعنا . . سمعنا عجا . بدأت السهرة ، وكانت قد أعدت (للمنشدین) دكة عالية بعض الشيء ، كالتى يجلس عليها الفقهاء فى المآتم لتلاوة أى الذكر الحكيم .

بدأت الوصلة الأولى . . وفيها أنشدت أم كلثوم أنشودتها المأثورة :

مولاي كتبت رحمة الناس عليك فضلا وكرم

فالمرجع والمآل والكل إليك عرب وعجم

ثم فجأة ، إذا بها تغنى : « والله تستاهل يا قلبى » .

وهى - كما هو معروف - من أشهر أغاني سيد درويش ، ومن أحلاها وأعذبها . وكانت أكثر من مفاجأة لسيد ولى . وتجمع سيد درويش كله فى أذنيه . وبدا عليه ما كنا نلمسه فيه ، عندما تتابه نوبات الوجد والتصوف . . ولزمت الصمت . . والسمع . وفى منتصف الأغنية تقريبا ، صمتت الصغيرة . . وتعالى التصفيق من كل مكان يستعيدهما ، فأعادت . . وعند نفس المقطع توقفت : وصمتنا مرغمين ، لنعطيهما فرصة لنتم باقى الأغنية . . ولكن طال صمتها . ثم بدأت أغنية أخرى . وكان واضحا تماما أنها لا تحفظ من أغنية سيد درويش إلا ما غنت ، وهو لا يتجاوز النصف الأول من هذا اللحن .

ونظرت إلى سيد . . ولم يفتنى أن ألاحظ أنه في قمة الوجد والصوفية . ساهما . . صامتا . . عيناه مشدودتان ناحية الصغيرة . يحملق فيها بنظرة عجيبة ، كأنه يرى شيئا عجبا ، لا عهد له به من قبل .

وانتهت السهرة . . وبدأت الصغيرة تنزل من فوق الدكة قفزاً إلى الأرض ، بينما تتحرك البطانة في وقار واحتشام . وفجأة رأيت سيد يتجه إليها . . إلى أم كلثوم . . يربت على رأسها في حنان واضح .

وجذبني سيد برفق ، وأخذ يتمشى في هدوء على شاطئ البحر ، ولا يزال صامتا . ومضيت معه أنا أيضا صامتا . فقد اعتدنا . . نحن خاصة أصدقائه ، على مثل هذه الحالات . . وتعلمنا أن نلزم الصمت حتى يبدأ هو الكلام .

وأخيرا . . تكلم سيد . . قال وكأنه يتحدث إلى نفسه :-

.. هذه الفتاة سيكون لها شأن كبير في يوم من الأيام . . إن صوتها جميل طروب . . وأداءها طيب ، بل ممتاز . ولكن ، ليس هذا هو الذى أثار إعجابى وتقديرى لها ، إنما تعيش النغم بكل وجدانها ، وبكل كيائها . إنما لا تغنى اللحن . . هى تعيشه ونحيها . . فى أدائها شيء لست أدري ما هو ، ولا كيف أعبر عنه . لقد عشت فى صوتهما اللحظات النفسية التى عشتها - وأنا أضع موسيقاه ، (كان هذا اللحن آخر لحن فى رواية راحت عليك) . وجاءنى ، لحظة بدأت أمسك بكلمات اللحن وأهم بوضع موسيقاه ، نبأ وفاة أختى فى الإسكندرية . وكانت أعز إخواتى ، وأحبهن إلى قلبى . فعشت فى الألم الموجه المريع . وظهر فى موسيقى اللحن صدى هذا الحزن العميق الذى كنت أعيشه . فخرجت الموسيقى كأنها دموع وآهات . ومن يسمع تسجيل لهذا اللحن فى الأسطوانة التى سجلته فيها ، لن يخفى عليه أننى كنت أبكى وأنا أسجله . فقد عشت أثناء التسجيل نفس اللحظة التى عشتها عند التلحين .

والليلة عشت هذه اللحظة مرة أخرى ، وأنا أسمع أم كلثوم . هذه الفتاة سيكون

لها فى يوم من الأيام شأن كبير . »

أم كلثوم والملحن الهاوى :

وفي عام ١٩٢٤ ، تعرفت أم كلثوم على ملحن هاو، هو طبيب الأسنان الطنطاوى الدكتور أحمد صبرى النجرىدى ، الذى يمكن اعتباره امتدادا للشيخ أبو العلا محمد . كان الطبيب الهاوى ملحنًا جيدًا مجتهدًا ، وقد لحن لأم كلثوم ما يقرب من أربع عشرة أغنية ، سجلت جميعها على أسطوانات . . كما لقنها النجرىدى العزف على العود . والذى يستمع إلى ألحان الدكتور النجرىدى ، يظن أنها من تلحين الشيخ أبو العلا محمد ، لشدة تأثره بصديقه الشيخ أبو العلا . وقد بلغ الدكتور النجرىدى فى « كم بعثنا » و « مالى فتننت » قمة عالية فى فن التلحين .

والأغاني التى لحنها الدكتور النجرىدى لأم كلثوم والمسجلة بصوتها هى :

- ١- مونولوج : خايف يكون حبك (أحمد رامى)
- ٢- طقطوقة : الخلاعة والدلاعة
- ٣- طقطوقة : الفل والياسمين والورد (أحمد رامى)
- ٤- طقطوقة : أنا على كيفك (أحمد رامى)
- ٥- طقطوقة : شفت بعينى (أحمد رامى)
- ٦- طقطوقة : يا ستى ليه المكايده (أحمد رامى)
- ٧- طقطوقة : يا كروان والنبي سلم
- ٨- طقطوقة : التقل ليه يا مالك قلبى
- ٩- مونولوج : طلع الفجر ولاح
- ١٠- مونولوج : الحب كان من سنين (أحمد رامى)
- ١١- مونولوج : والله ما حدش جنى غير قلبى ده علىّ
- ١٢- قصيدة : كم بعثنا مع النسيم (إبراهيم حسنى ميرزا)
- ١٣- قصيدة : لى لذة فى ذلتى (نصر الله الدجاجى)
- ١٤- قصيدة : مالى فتننت بلحظك (على الجارم)

والدكتور أحمد صبرى النجريدى من الأفراد القلائل الذين عملوا بالفن من أجل الفن فقط . واعترفت أم كلثوم فى لقاءات عديدة بالدور الهام الذى لعبه د. النجريدى فى حياتها الفنية .

داود حسنى :

ومر، ملحنى أم كلثوم داود حسنى، الذى تخرج على يديه كبار الفنانين أمثال : أسمهان - وعبد المطلب . ولىلى مراد وغيرهم . حيث غنت أم كلثوم العديد من الأدوار فى الفترة ما بين عام ١٩٣٠ - ١٩٣٢، وتم تسجيل بعض هذه الألحان بصوت أم كلثوم منها :

- ١ - دور شرف حبيب القلب (أحمد رامى) مسجلة على أسطوانة جرامفون ١٩٣٠ .
(وهو أول ألحان داود حسنى لأم كلثوم) .
- ٢ - دور يوم الهنا حبى صفالى (أحمد رامى) مسجلة على أسطوانة جرامفون ١٩٣١ .
- ٣ - دور البعد علمنى السهر (أحمد رامى) مسجل على أسطوانة جرامفون ١٩٣١ .
- ٤ - طقطوقة جنة نعيمى (؟) مسجلة على أسطوانة أوديون ١٩٣١ .
- ٥ - دور حسن طبع الى فتنى (كامل الخلعى) مسجل على أسطوانة جرامفون ١٩٣١ .
- ٦ - دور روحى وروحك فى امتزاج (حسن والى) مسجل على أسطوانة أوديون ١٩٣١ .
(وهو من مقام طراز جديد) .
- ٧ - دور كل ما يزداد رضا قلبك (؟) مسجل على أسطوانة جرامفون ١٩٣١ .
- ٨ - دور كنت خالى لا حبيب يهجر (كامل الخلعى) مسجل على أسطوانة جرامفون ١٩٣١ .
- ٩ - دور يا فؤادى إيه ينوبك (أحمد رامى) مسجل على أسطوانة أوديون ١٩٣١ .
- ١٠ - دور يا عين دموعك فى الغرام يشفينى (أحمد رامى) مسجل على أسطوانة أوديون ١٩٣٢ . (ولم تطبع الأسطوانة) .

١١ - دور قلبي عرف معنى الأشواق (كامل الخلعى) مسجل على أسطوانة جراففون . ١٩٣١ .

* * *

الصراعات الفنية :

تقول الدكتورة نعمات فؤاد (٦)

كان الصراع الفنى من ١٩٢٠ - ١٩٣٠ صاخبا . . ولم تكن أم كلثوم طرفا بارزا فى هذا الصراع - على الأقل فى أوله - فقد كانت صغيرة لا تلاحظها العين . فقد حدث فى عام ١٩١٨ أن أخذ جلساء فاطمة قدرى التى كانت يومئذ مطربة ذائعة الصيت ، يتحدثون عن فتاة مسكينة اسمها أم كلثوم ! فتاة يقولون عنها إنها تغنى ، وإن لها صوتا لا بأس به ، ولكنها لا تغنى كما يغنى الناس . بل هى (تولّد) للننى عليه الصلاة والسلام ، وتنشد الأناشيد فى موالد الريف ، وتلبس العقال . .

وأخذ الحاضرون من الفلاحة الصغيرة مادة للتندر والضحك والتسلية : مرة يطلقون النكات على اسمها ، ومرة يتساءلون عن سر العقال ، ومرة يتساءلون عن الجبة التى تلبسها وتزعم أنها (بالطر) ، وهل هى بنت أم ولد ؟ وترتفع القهقهات منها كانت النكتة سخيفة . وبينما هم يضجون بالضحك ، طلعت عليهم مطربتهم فاطمة قدرى ، فهبوا وقفا : وأدوا التحية . وبعد أن اطمأن بهم المجلس ، استأنفوا الحديث . فتساءلت الست فاطمة من طرف أنفها من هى أم كلثوم هذه ؟ فقصوا عليها قصتها من جديد . فارتسم على وجهها تعبير من تتذكر شيئا سمعت به قبلا .

- آه . . لقد سمعت بالبهت أم كلثوم ، و (لا مانع عندى) من أن أراها . وسرعا ما تطوع (المطيباتية) بإحضارها ، لكى تحظى بمقابلة المطربة المشهورة فاطمة قدرى . وحين جاءت (البنت أم كلثوم) ، دخلت تتعثر فى خطواتها . . ففيها انكسار المساكين من أهل الريف ، وفيها حياؤهم ، على الرغم من أنها كانت قد قطعت شوطا فى القرى والمحافظات . ولكن القاهرة وأهلها فى أعين الريفيين شىء آخر .

- قريبي . قالت فاطمة قدرى .

(قربت) أم كلثوم . . تقدمت من ست الحسن والجمال ، حائرة مرتبكة ليس لديها ما تقوله للست فاطمة قدرى التى تعرف مصر كلها قدرها .
ثم انصرفت أم كلثوم ، بعد أن أعطت المجلس مادة أغزر للسخرية والتفكه والضحك . أما هى فلعلها كانت تحلم باليوم الذى تصبح فيه مثل فاطمة قدرى .
وحتى بعد قصة فاطمة قدرى ، كانت (نعيمة المصرية) من رأيها أن « منيرة المهديّة لا يُعلّى عليها . . وأن فتحية أحمد لا بأس بها ، على ألا تغنى من أنفها . أما أم كلثوم فكانت تقول إنها لا تتوقع لها مستقبلا . . »

البنت المفجوعة :

وروث مجلة مصر الحرة عام ١٩٢٩ عن أم كلثوم ، « أنه حدث ذات مساء أن صعدت سيدة إلى المسرح ، قبل أن تغنى أم كلثوم ، تطلب مقابلتها . . وتصادف أن كانت أم كلثوم نفسها أول من قابلت السيدة المذكورة . ودار الحديث الآتى :

قالت السيدة :

- عاوزه أقابل أم كلثوم

- علشان إيه ؟

- نفسى أشوفها وأبوسها .

- عمرك ما شفتيها ؟

- لا . . . بس معجبة بها من صوتها فى الفونوغراف . . ونفسى أشوفها .

- طيب ياستى ، أنا أم كلثوم ا بوسينى بأه واخلصى ا

ولكن السيدة نظرت إلى أم كلثوم من (تحت لفوق) باحتقار وقالت :

- حضرتك بتضحكى علىّ ؟ ليه ؟ هو أنا مجنونة علشان أصدق أن أم كلثوم

مفجوعة كده ؟ !

ورأت أم كلثوم من عيني السيدة أنها حقيقة غير مصدقة أن الواقعة قبالتها هي
أم كلثوم ، فقالت لها :

- صحيح أنا كنت بس باضحك ! أنا يا ستي خدامة أم كلثوم .

- طيب وهي فين ؟

- في أودتها ، دلوقت بتلبس علشان حتطلع تغنى بعد خمس دقائق . وأظن أحسن
حضرتك ترجعى تقابلها بعد ما تغنى الوصلة الأولى ، علشان يكون عندها وقت تقعد
معاك شوية .

وانصرفت السيدة على ذلك .

ثم رفع الستار ، وظهرت أم كلثوم مع تحتها وغنت الوصلة ! وطبعا ، رأتها السيدة ،
وعرفت أنها أم كلثوم ، وليست خادمتها . ولكن السيدة لم ترجع ؛ فقد خجلت أن
تقابل أم كلثوم واكتفت برؤيتها على البعد . «

وشربت أم كلثوم ووالدها الكثير من المقالب . من بينها ، أن متعهدي الحفلات
كانوا يتفقون مع والدها على الحفلة بسبعة جنيها ، ويتفقوا مع المنظم عند بوابة
المسرح بعدم إدخال أى واحد قبل رفع الستار بدقائق . وعندما يرى والد أم كلثوم
المسرح خاويا يضطر إلى تخفيض الأجر . . بعد ذلك يبدأ الناس في الدخول ، ويهرب
المتعهد .

ومن الروايات أيضا ، أنه حدث أن تعاقد والد أم كلثوم على أن تحيي ابنته حفلة في
كازينو البوسفور . ووضع متعهد الحفلة « مسيو فيتاسيون » صورتها في الإعلانات .
ولم تكن صورتها قد نشرت من قبل في الصحف أو المجلات . غضب الوالد ، وبكت
أم كلثوم . . وهددوا بعدم إحياء الحفل . . واضطر المتعهد ، إرضاء للفنانة ووالدها
الرجعى ، إلى إعادة طبع الإعلانات ، مع تقديم الاعتذارات والترضية الكافيين .
وقد روت أم كلثوم أنها في ليلة ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٧ ، عندما كانت تؤدي
وصلتها الغنائية في كازينو البوسفور . . فوجئت بالجمهور يخرج من المسرح . . حتى

بقيت وحدها تغنى . وعندما سألت عن سبب خروج المستمعين ، عرفت أن سعد زغلول قد مات . فامتنعت عن الغناء فترة طويلة حدادا على وفاة الزعيم الكبير . . ثم غنت بعدها قصيدة من نظم الشاعر أحمد رامى تقول :

إن يغب عن مصر سعد ، فهو بالذكرى مقيم .

وقد بيعت هذه الأسطوانة . . وضربت رقما قياسيا فى المبيعات . . وقامت صداقة وطيدة بين صفية زغلول (أم المصريين) وأم كلثوم ، استمرت حتى وفاة صفية .

بين منيرة المهديّة وأم كلثوم :

عندما جاءت أم كلثوم إلى مصر . لم يكن طريقها مفروشا بالورود . . هذه القروية الساذجة التى جاءت لتدخل ميدان الفن . . وتقف جنبا إلى جنب مع المطربات العتيدات ، وعلى رأسهن منيرة المهديّة وفتحية أحمد . ولكن أم كلثوم استطاعت بصوتها الجميل وموهبتها الموسيقية الكبيرة ، فى فترة قصيرة ، أن تصعد إلى قمة الهرم . . فذاع اسمها ، وأصبحت حديث الناس . أحست منيرة المهديّة بأن العرش الغنائى بدأ يهتز من تحتها . الناس تتحدث عن أم كلثوم . . وجمال أدائها ، فأرادت أن تستمع إليها بنفسها . يقول مصطفى أمين : « . . فى إحدى الليالى ، ارتدت منيرة المهديّة ملءة لف سوداء . ووضعت على وجهها برقعاً ، وارتدت شبشباً فى قدميها ، حتى تبدو كبنات البلد . وصحبت معها الممثل محمد بهجت ، وذهبت إلى مسرح رمسيس حيث كانت تغنى أم كلثوم . واشترت منيرة تذكرتين فى أعلى التياترو (وهى أرخص مقاعد المسرح) . وجلست منيرة المهديّة تسمع ، والجمهور يهلل . . وشهدت سيطرة أم كلثوم العجيبة على المستمعين ، وهى تتحكم فيهم بصوتها الخلاب ، تجعلهم يرقصون فى مقاعدهم ، ويتأيلون على نغماتها ، ويبهون واقفين مصفقين لها ، هاتفين بحياتها .

ولم تحتل منيرة المهديّة أن تحضر أكثر من الوصلة الأولى من غناء أم كلثوم ، فتركت المسرح غاضبة ساخطة ، على غباء الجمهور وجحوده ، وقلة ذوقه . وعادت إلى

عوامتها في النيل ، وهي تكاد تجن سخطا وغضبا . وأخذت تفكر كيف تقضى على هذه الفتاة الصغيرة التي جرؤت على عرشها ، وأصبحت تهدد سلطانها ؟ وهداها شيطانها إلى حيلة غريبة للقضاء على المنافسة الخطيرة .

في ذلك الوقت ، كانت تصدر مجلة فنية اسمها مجلة « المسرح » . وكانت من أوسع الصحف انتشارا في تلك الأيام . وكان صاحبها شابا اسمه الأستاذ محمد عبد المجيد حلمي « الناقد الفني لجريدة كوكب الشرق . وكان ناقدا عنيفا لاذعا ، له قلم يشبه الحراب . وأسلوب أقوى من المدفع الرشاش . وكان شابا صعيديا بريئا ، لم تسبق له غزوات أو مغامرات في عالم العشق والهوى والغرام .

وقررت منيرة أن توقع هذا الصحفى الشاب في غرامها . ودعته إلى الغداء في عوامتها . وبعد ساعة واحدة ، كان يجلس تحت قدميها يبادلها عبارات العشق ، وهي تلقى البترول على قلبه المشتعل فتندلع النيران . .

وخرج الصحفى الطيب من عندها ، وهو مقتنع بأنه حبها الأول والأخير . وأصبحت مجلة المسرح هي مجلة منيرة المهدية سلطنة الطرب في مصر والشرق . وبدأت مجلة المسرح تهاجم أم كلثوم (*) حيث قالت (في ١٧ يناير عام ١٩٢٧) : « . . أم كلثوم لها مئات العشاق ، ولا أدري ماذا يحبون فيها . . فهي ليست على شيء من الجمال ولا خفة الروح ولا سلامة الطبع .

وفي ٣١ يناير كتبت نفس المجلة تقول :

« . . إن أم كلثوم نجمها قد غرب » .

وفي ٣١ يناير أيضا كتبت مجلة المسرح تقول :

(*) كانت المجالات الفنية تترصد كل حركة للنجوم . وما لا يعجبها من هذه الحركات تشهر به في تندر وسخرية أو نقد مر . وكانت الجرائد أيضا تتخصص في فن مطربة معينة تمتدحها وتتابع أخبارها . إن تهليل الصحف لفنانة لم يمنع الكاميرا أن تلهث وراء أخرى .

«إن أم كلثوم قدمت - وهى بنت صغيرة - شكوى لمحكمة السنبلولين مؤداها أن شابا من القرية اغتصبها .» ووعدت بنشر نص الحكم . ولم تنشره أبدا ، لأنه كان خبرا مختلعا بالطبع . وكاد هذا الخبر ينجح فى إعادة أم كلثوم إلى قريتها ، فقد قرأه والدها الشيخ إبراهيم ، وأقسم ألا تبقى أم كلثوم فى القاهرة يوما واحدا . وأمر بحزم الحقائق . وركعت أم كلثوم على قدمي والدها ، تتوسل إليه أن تبقى فى القاهرة بعد أن بزغ نجمها . ولكن الأب أصر على موقفه . . لولا أن صديقا للأسرة حضر فى تلك اللحظة ، واستطاع أن يقنع الشيخ إبراهيم بالبقاء فى القاهرة (الملعونة) . واستمر الهجوم على أم كلثوم . وتقول د . نعمات فؤاد (٦) :

« كانت الفترة بين ١٩٢٦ - ١٩٣٠ تتميز بعملية تصفية للمطربات الكثيرات اللاتى ظهرن فى العقد الثالث من القرن العشرين . تصفية كانت نتيجتها أن انحصرت المقارنة وإعجاب المعجبين بين ثلاث :

منيرة المهدية - فتحية أحمد - وأم كلثوم .»

* * *

المنافسة بين المطربات الثلاث :

فى مقال بمجلة الناقد (العدد الثالث الصادر فى ١٧ / ١٠ / ١٩٢٧) للأستاذ حماد ، يقارن فيه بين أم كلثوم ومنيرة المهدية ، وفيه يقول :-

« . . منيرة المهدية لها صوت رنان جميل النغم . وقد وهبتها الطبيعة حنجرة سليمة الأوتار صافية نقية . لولا أنها لا تحسن استخدامها . وما قيمة الثبر لدى من يجمله والماس عند من لا يفرقه من الزجاج البراق ؟ فهى لا تتحكم فى نبرات صوتها ، ولا تستطيع أن تضبطها وفق ما تشاء . وكثيرا ما تستمع منها فتلمس الاختلاف بين ما تشد وما تعزفه الموسيقى ، وكان هذا أوضح عيوبها . وإذا كانت لا تستطيع إصلاحه ، فمرجع ذلك إلى الطبيعة وإلى ما أخذت به هى نفسها بين الإهمال وعدم التدريب الصحيح على أيدى أساتذة الفن . تستمع لها وهى تغنى ، فيطير بك صوتها

الجميل ولكن أى حسن ينقله إليك وأى شعور يثبته فيك ؟ لا شيء . . فلا تلمس في إنشادها عاطفة من عواطف القلب . ولا يمكن أن يكون له وقع لديك أكثر من وقع منظر عادى تأخذه عينك فيمصر . . دون أن يبقى منه في دخيلة وجدانك بقية لها قيمة . إنها تغنى لتطرب أذنك وحاستك المادية فقط ، أما دون ذلك ، فتطلبه عند أم كلثوم ، أو فتحية أحمد . »

وفي جريدة السائح سنة ١٩٢٦ (التى تصدر في مدينة نيويورك) :
 . « أم كلثوم المغنية الدائعة الصيت مازالت تتقدم في عالم الغناء منذ وصلت القاهرة فتاة ساذجة حتى أصبحت اليوم سيدة المغنيات وأميرة المطربات بلا منازع » .
 يقول عبد الفتاح غبن (مجلة الإذاعة ١٩٧٥) :

« كانت في صوت سلطنة الطرب منيرة المهدية « بحة جنسية » يطير لها صواب الناس . . . وكان الطرب في أغلبه تقريبا يعبر عن الجنس بوضوح شديد . ولكن هذه الفتاة الجديدة « أم كلثوم » جاءت ولا رصيدها إلا صوته ، منذ جاءت تغنى قصائد دينية ، على طريقة المشايخ ، ووراءها أهلها يرتدون العمم ، وهى نفسها تلبس البالطو الأزرق فوق جلابية بسيطة . . وعلى رأسها عقال . كانت جميلة نعم . . ولكن هذا الإطار من حولها بما فيه ثيابها ، لم يكن يسمح لها بأن تخاطب الناس إلا بشيء واحد : هو صوتها ، ولأن صوتها كان خارقا ، فقد أصبح لها بسرعة أنصار كثيرون . . ولكن غالبية جمهور الطرب رفض أن يستسلم للمطربة الجديدة « أم كلثوم » . وخلال عامين فقط ، كانت « أم كلثوم » تنازع « منيرة المهدية » على عرش الطرب . . بعد أن كونت فرقة موسيقية من أشهر العازفين . . ولكن هذا لم يكن غاية طموحها . . لقد فرضت بهذه الفرقة الموسيقية أسلوبها الجديد - الذى لم يكن فيه (هنك ولا نرك) - وفرضت أيضا ذوقها في اختيار الكلمات التى تشدو بها . . »

وعن مجلة الصباح (العدد ٨٧ السنة السادسة ١٩٢٧) :

« جمعت حفلة المواساة على مسرح الأوبرا بين منيرة المهدية والمطربة أم كلثوم . وقد

وصف محمود زكى باشا هذه الحفلة، وقارن بين منيرة وأم كلثوم وما سمعه من الجمهور عنهما في هذه الحفلة، فقال :

« . . أجادت منيرة في جميع أدوارها، فخلبت عقول السامعين . . وساعدها صفاء صوتها، وتأثير نبراتها، وشدة شغف الناس بها، وسرورهم من تمثيلها، وإعجابهم برخامة صوتها فقد فاقت حد الإبداع، وظهرت مواهبها السامية وقدرتها العجيبة، وارتفعت إلى منزلة (أعظم مغنيات الشرق) . أما عظيم تأثير صوتها في النفوس فلا يستطيع القلم وصفه . وكفى شاهدا على ذلك أن أم كلثوم، مع شهرتها، لم تستطع أن تأتى بعدها في تلك الليلة على أقل شيء من الإجادة . . بل فشلت وأسدل عليها الستار وهي في حالة يرثى لها . »

وعن مجلة الصباح أيضا (العدد ١٠٣ السنة السادسة سنة ١٩٢٧)

« . . كانت منيرة المهديّة تغنى في حفلة أقيمت في (بوفيه لونا بارك بمصر الجديدة)، فطلب إليها الجمهور أن تغنى أنشودة « إن كنت أسامح وأنسى الأسى » التى تغنيها أم كلثوم . فأنشدت منيرة الأنشودة بين تصفيق الجمهور، وتذوق الجمهور طعما شهيا للفن في إنشاد منيرة لهذه الأنشودة .

وتحدث الجمهور بحسن صناعة منيرة ذات الحنجرة القوية والصوت العذب الحنون في إلقائها وإجادة إنشادها وضبط ألحانها، مع أن منيرة لم تكن قد عملت (بروفات) لالقاءها قبل هذه الليلة .

وأيضا غنت (إن حالى فى هواها عجب) ونجحت منيرة في إنشادها نجاحا لم تنجح به المطربة التى نظمت ولحنت هذه الأنشودة خصيصا لها . »

وعن المجلة الموسيقية جاء :

« . . ظلت منيرة تتربع على عرش الطرب، إلى أن ظهرت أم كلثوم التى كانت المؤهلة الوحيدة لمنافستها من حيث الصوت القادر - القوى، ومن حيث لون الغناء،

وهو اللون الكشومي الذى يتسم بالكلمة النظيفة ، والغزل العفيف ، والبعد لا عن الإباحية ، بل عن كل ما ينافى الذوق السليم . »

وبدأ القراء يشمون ريح فئسל منيرة الفنئى ، حتى لتقول مجلة المسرح فى وقت مبكر (١٩٢٦) :

« . . لم يتوقع أحد لمنيرة المهديـة ، يوم كوئت فرقتها فى العام الماضى ، أن تفئسل هذا الفئسل الذى لا تعرف كيف الخلاص منه . . »
ويقول أحمد رامى :

« . . مطرب القصائد الأصيل لابد أن يكون فقيها ابن فقيه . ومن هنا تفوقت أم كلثوم . فقد حفظت القرآن . . وهى طفلة ، ثم أنشدت المدائح والموشحات وقصائد « أبو العلا » . وقد قوم هذا لسانها تقويا لم يتيسر لغيرها . لأن أهم ركن فى القصائد سلامة النطق ونهاذج الحروف وإخراج المعانى . وقد برعت أم كلثوم فى هذا كله براعة فائقة . . - حين يقول الذين سمعوا منيرة المهديـة إنها صوت فائق ، ولكنها كانت عامية النطق والإشارة ، أمية المفاهيم . فضلا عن أن منيرة ليس عندها « القفلة » التى هى ألزم الأشياء للمطرب » .
ويقول سامى الشوا :

« . . إن منيرة المهديـة صوت جميل بلا فن ، ولكن أم كلثوم صوت تسانده أذن موسيقية مرهفة ذواقه ناقدة وعالمة بأصول فن الموسيقى » .
ويقول رياض السنباطى :

« إن منيرة المهديـة صوت قوى بلا فرامل » .

وكان متعهد حفلات أم كلثوم هو يوسف حسين (الفتوة البورسعيدى) الذى كان لا يقيم حفلة إلا بعد أن يحضر عددا من الفتوات لحراسة الساهرين فيها من أى مشاغب .

و ذات حفلة ، كانت أم كلثوم فى « كازينو الكوبرى الأعمى » (مكان فندق شيراتون القاهرة اليوم) . انتشرت الملصقات على كل جدران الأحياء الراقية ، تدعو الجمهور لسماع الصوت الساحر . وهو الأمر الذى أزعج سلطنة الطرب . فأرسلت مجموعة من عمالها لتخريب السهرة . وحمل العمال معهم مسحوقا كيميايا يسبب الحكاك (بودرة العفريت) . وكانت مهمة عمال منيرة أن يرشوا هذه البودرة على جمهور أم كلثوم . وهكذا كان . . وتحولت سهرة الطرب إلى سهرة هرش .

ولكن أم كلثوم استمرت فى التأتلى . وكذلك استمرت سلطنة الطرب فى محاربتها بمختلف الوسائل المشروعة واللامشروعة . ولكن ذلك العداء لم يدم . فقد شعرت منيرة بأن فن أم كلثوم لا يقاوم . فكانت الهدنة ، ثم الصلح الذى توج بقاء فى عوامة منيرة . . ثم تكررت اللقاءات .

. . مضت الأيام وانقطعت منيرة المهديّة عشرين سنة عن الغناء . وفى عام ١٩٤٨ قررت العودة ثانيا إلى المسرح لتتارس نشاطها الفنى من جديد . فاستأجرت مسرح كازينو أوبرا وقدمت أعمالها الفنية من مسرحيات قديمة لمدة ثلاثة شهور . « وقد قوبلت عودة منيرة بالدهشة والإشفاق . فعامل السن والتطور الذى حدث فى فترة انقطاعها أثرا على الأعمال التى قدمت . وبذلك لم تحقق النجاح الذى كانت تهفو إليه . وكتب محرر مجلة دنيا الفن (العدد ٨١ فى ١٣ / ٤ / ١٩٤٨ : لا أدري الباعث الذى حدا بها من التبتل والعبادة إلى العودة إلى المسرح . فإن كانت تنشئ المجد فقد توجهها على مدى نصف قرن أو يزيد . وإن كانت تبغى الثروة فقد فاتها القطار » . ويقول مصطفى أمين :

« . . ذات مساء اتصلت بى أم كلثوم تليفونيا ، وقالت لى : إننى أدعوك معى فى حفل ساهر . اشتريت بنوار فى حفل منيرة المهديّة . وأنا أريد أن أشجعها وأصفق لها .

وألحت أم كلثوم إلحاحا عجيبا أن أصحابها . وذهبنا . . وغنت منيرة المهديّة وباليتهما

ما غنت . كان صوتها أشبه بالاسطوانة المشروخة . فقد صوتها حلاوته وبخته ورخامته وجاذبيته . كانت أقرب إلى ملكة محنطة في تابوت ترى فيها الماضي الخالد . . ولا تجد من أثر الحاضر سوى التراب .

وكانت أم كلثوم تلهب يديها بالتصفيق ، وتزغدن في كتفى لأشاركها في التصفيق . وخيّل إلى أننا وحدنا الذين كنا نصفق . وأن الجالسين في الصالة انهمكوا في الحديث عن ذكريات سلطنة الطرب التي مكثت مصر تردد أناشيدها وأغانيها أكثر من خمسة عشر عاما . فقدت عيناها بريقها الفتان . . وظهرت التجاعيد تملأ وجهها بقسوة ووحشية . وانطفأت روحها التي كانت تملأ المسرح حيوية .

لم تكن منيرة المهدي . . بل كانت شبح منيرة المهدي . . وجاءت نفس القصة بأسلوب روائي مختلف في حديث أدلت به الفنانة زينب صدقي لمجلة الكواكب :

« . . منيرة بعد ما اعتزلت ييجي (بخمستاشر سنة) . . طلع في دماغها ما أعرفش إيه إلى طلّعه . . إنها ترجع للمجد ثاني ، ترجع لعرش السلطنة . . سلطنة الطرب وكان حقها راجعت نفسها في العملة دي . . لكن ما حدش نصحتها .

الحقيقة أم كلثوم كانت حزينة . . لأن السلطنة في القرار ده مسكينة ، ويومها كتب محمد التابعي مقالا بعنوان « الدين أوتوا المجد وبدوده » . الحقيقة أن محمداً كان قاسيا على منيرة التي كانت مهدي . وكان نفسنا تفضل مهدي . . وتتقبل نفسيا أن كل وقت وله أذان لكنها كانت عاوزه ترجع أجداد الماضي (بالعافية) .

كانت منيرة في سن السبعين ، طلعت على المسرح شهرين واتقفل سنين . أعادت (الغندورة) رواياتها ولكن بعد أن أصبحت لا (غندورة) ولا (سنيورة) .

دعنا أم كلثوم في البنوار أنا وأنور أحمد والتابعي . . (إلى في النقد ما يعرفش أبوه . . حتى لو وصوه) . وكان هذا في الأربعينات .

كان هناك من يصطادون في المياه العكرة ، أوعزوا إلى منيرة (الغلبانة) أن أم كلثوم تخاف على عرشها من أن تخطفه السلطانة منها ، وأنها تغار منها وتخشى رجوع فنها مرة أخرى .

واتصلت بها أم كلثوم تليفونيا وقالت لها : أنا أتمنى لك الرجوع لمجدك . .
متصدقيش الى يقال ، وكلنا ولادك . ردت منيرة وهي مرتبكة : خلاص ياثومه . .
العداوة بيننا بقت معدومة . البنوار باسمك وأنا مصممة على العزومة .

ليلتها ذهبنا . ثومه والقصبجي وأنور أحمد وأنا ، وإذا بمنيرة تغنى بصوت فيه حشجة . راح الجهمال وراح الطرب . . وانفجرت أم كلثوم في بكاء ونواح . حاولت إسكاتها . طلب منى القصبجي تركها حتى ترتاح ، وعندما مسحت دموعها ، قلت لها هامة :-

« كلنا حنجز . . دوام الحال من المحال . . لكن لما نعجز بإذن الله بعد عمر طويل . . ربنا يديم علينا نعمة التمييز والتقدير . . ما نعملش في روحنا كده . .
نقعد في بيوتنا وكرامتنا مصانة » .

وشعرت سلطنة الطرب بأنه بات عليها أن تترك الساحة لأم كلثوم . وتفرغت منيرة لهواياتها ، وفي مقدمتها تربية الحيوانات الأليفة ، كالقطط والكلاب . كان يشاركها هذه الهواية الرجل الذي عاش معها قرابة ربع قرن من الزمن . . وهو إبراهيم كمال . .
آخر أزواجها ، والذي كان يعمل سكرتيرا للنحاس باشا .

وفي حديث بمجلة الكواكب أجراه الفنان عبد الحليم حافظ مع منيرة المهدي ،
قالت عن أم كلثوم :

« أم كلثوم كانت بتعجبني خالص أيام كانت بتغنى حاجات الشيخ أبو العلا محمد . لكن لما بقت تغنى الحاجات بتاعة اليومين دول ما عجبتيش » .

والمعروف أنه عندما اشتد التنافس بين منيرة وأم كلثوم ، حاولت منيرة لإغراء القصبجي للتلحين لها . . فلم يمتنع ؛ فقد كانت المهدي آنذاك سلطنة الطرب . غير

أن فشلها في أداء ألقانها المتقدمة على صوتها جعله ينصرف إلى التلحين لأم كلثوم .

وعودة لحديث عبد الحليم حافظ مع منيرة المهدية :

« حكّت منيرة . . أن الست أم كلثوم جاءت لزيارتها مع القصبجى . ولما قدمت لهم الكازوزه قامت أم كلثوم سابت القزازه الى قدامها . . وشربت من القزازه الى قدام القصبجى . فأنا ساعتهما اتضايقت وحييت أوريها أن الدار أمان . . فأخذت القزازه الى قدامها وشربت منها ، عملت نفسى أنى أخذتها غلط . »

وجاء حديث للأستاذ حسين عثمان ، فى مجلة الكواكب ٢٥ فبراير سنة ١٩٧٥

تحت عنوان :-

« حديث عن أم كلثوم - ومنيرة المهدية » :

وقف والد أم كلثوم عقبة فى طريق تحول ابنته ، من منشدة تنشد المدايح النبوية - إلى مطربة تغنى الأغانى العاطفية . وذات يوم ، اتفق الأديب يونس القاضى على أن يتولى مهمة إقناع والدها بأن تتحول إلى مطربة ، ويرجع سر تحمسه لهذه الفكرة إلى أنه اختلف مع السيدة منيرة المهدية . وقرر على أن يعمل على إظهار مطربة جديدة تنافسها على عرش الطرب . كان يعرف مدى خوف منيرة من هذه الصبية الصغيرة التى تملك من المواهب الفنية ما يجعلها - أى منيرة . تعمل لها ألف حساب .

وفعلا ، سافر يونس القاضى إلى بلدتها « طماى الزهايرة » بصحبة بعض الأصدقاء الصحفيين الذين ناصبوا منيرة المهدية العداء بسبب غرورها الشديد ، وقابلوا والدها ، وتولى الشيخ يونس القاضى الحديث حول تحول ابنته أم كلثوم إلى الغناء . ولكن الشيخ إبراهيم ثار وغضب ، ورفض بشدة ، مؤكدا أنه وهب أم كلثوم لتلاوة القرآن وإنشاد السيرة النبوية فقط .

لكن الشيخ يونس القاضى لم ييأس . ولما عاد إلى القاهرة راح يتحين الفرصة لمعاودة إقناع الأب . وتصادف أن جاءت أم كلثوم مع والدها إلى القاهرة فى مولد سيدنا

الحسين ، فذهب الشيخ يونس القاضى مع سيد درويش ، الذى كان قد سبق أن سمعها عدة مرات . وحاول الاثنان إقناع الأب ، وعرض سيد درويش أن يقدم لها الألمان مجاناً ، ولكن الأب رفض مجرد مناقشة الفكرة . وطلب من سيد درويش ألايعاود زيارتهم مرة أخرى .

وتألم سيد درويش غاية الألم من سوء معاملة والد أم كلثوم له ، وهو الملحن الذى يخطب وده كبار الفنانين والمطربات والمطربين .

وظل يونس القاضى يلح على والد أم كلثوم ، حتى وافق على أن تغنى قصائد عبده الحامولى . فغنت أغنيتهما المشهورة « وحققك أنت المنى والطلب » . وكانت بداية موفقة . فسرعان ما تقدمت أم كلثوم واشتهرت ، وطغت شهرتها على منيرة المهديّة سلطنة الطرب . فقد كانت أم كلثوم تتمتع بذكاء نادر ، واستعداد طيب للمعلم ، فزودت نفسها بثقافة أدبية وفنية واسعة . فى حين بقيت منيرة تعتمد على حلاوة صوتها وروعة جمالها . وعشاق فن أم كلثوم ، الذين كانوا يحرصون على حضور حفلاتها الشهيرة فى المسرح الذى تغنى فيه ، كانوا يتمنون معرفة ماذا يحدث وراء الستار وبين الكواليس . ذلك أن أم كلثوم كانت تضرب حصاراً من حديد حول الكواليس ، ولا تسمح إلا لقلّة قليلة من الأصدقاء المقربين بالدخول إلى هذه الكواليس .

... كان يحلو لأم كلثوم أن تجعل الأغنية سرا لا تذيعه إلا قبل رفع الستار ببضع دقائق - وكان المذيع المنوط به وصف الحفلة يقف قريباً منها ، وعلى وجهه علامات اللهفة على معرفة هذا السر . وعندما يقرب الوقت ، يتقدم المذيع نحو أم كلثوم . فتلقاه باسمه ، وتهمس فى أذنه باسم الأغنية التى تنوى إنشادها - فيجرب بسرعة نحو الميكروفون ليذيع هذا الخبر على جمهور المستمعين فى البيوت والأندية . ويبقى جمهور الصالة فى لهفة لمعرفة اسم الأغنية ، حتى تبدأ الفرقة الموسيقية فى عزف المقدمة الموسيقية للأغنية . فيتعالى هتاف الجمهور وتصفيقه . وكانت أم كلثوم تسعد جداً عندما ترى وقع المفاجأة على جمهور الصالة ، وتشرق على وجهها ابتسامة رائعة .

..... وعندما لمع اسم أم كلثوم في منتصف العشرينات ، كان متعهد حفلاتها يبحث لها عن لقب تتميز به عن باقي المطربات ، وخاصة ، بعد أن قدمت منيرة المهدي مطربة ناشئة سميتها أم كلثوم . وكان المتعهدون يكتبون اسم أم كلثوم مصحوبا بكلمة « الأصلية » . . لكن متعهد حفلاتها في ذلك الوقت واسمه يوسف حسنين ، رأى بأن يكتب اسمها في الإعلانات . . « الأسطى أم كلثوم » . وكان لقب « أسطى » في ذلك الوقت ، هو أقصى ما يطمع في الوصول إليه فنانة أو فنان . وهو لقب مشتق من لقب أستاذ . وكان سلاطين آل عثمان ينعمون به على الفنانين والأدباء . فلما ظهرت الإعلانات باسم الأسطى أم كلثوم ، غضبت منيرة المهدي ، وأوعزت إلى أحد المؤلفين بأن يضع لها أغنية تقول فيها « أنا الأسطى والأسطى أنا » . وكانت تغنيها كلما اجتمعت في حفلة تعلم أن أم كلثوم موجودة فيها .

ومن الطريف ، أنه حدث بعد ذلك أن سجلت إحدى شركات الأسطوانات بعض أغنيات أم كلثوم ، وقدمتها على أنها « الست أم كلثوم » ، فغضبت أم كلثوم ، واتهمت الشركة بأنها حرمتها من لقب « الأسطى » إرضاء لمنيرة المهدي . وظلت أم كلثوم متمسكة بلقب « الأسطى » عدة سنوات ، إلى أن جاء وقت اقتنعت فيه بأن اسمها ومكانتها لا يحتاجان لأى لقب من الألقاب .

فتحية أحمد وأم كلثوم :

كانت فتحية أحمد من أكبر الأصوات الغنائية التى عاصرت أم كلثوم . وكانت تعرف « بمطربة القطرين » ، لقضائها بعض الوقت في مصر ، والجزء الآخر كانت تقضيه في الشام . وصفت بأنها مطربة إدارية . . بمعنى أنها تطوِّع صوتها كيفما تشاء . وكان صوتها يجمع الكثير من الدرجات التى يمكن أن تشكلها كما تريد . كانت فتحية أحمد تمتاز بفنها الذى أدخلت عليه الكثير من الفن التركى . . هذا الفن الواسع الأطراف ، البعيد المدى . .

جاء في تعبير عنه (أنه بحر . . لا تستطيع أن تسير سفينة فيه إلا إذا كان ربانها ماهرا . .) . والعجيب أن فتحية أحمد لم تكن تفهم قليلا أو كثيرا من هذا الفن التركي ، وإنما كانت تدخل في بعض ألحانها نغمة بسيطة مأخوذة عن لحن تركي . وفتحية أ - كانت تمتاز بجمال وقوة صوتها وشهرتها الكبيرة في عالم الغناء . . . وعندما جاءت أم كلثوم إلى مصر . . ذاع صيتها وأصبحت منافسة لمنيرة المهدية ، التي كانت تعلى عرش الغناء ، وكانت أم كلثوم لا تحيى ليلة تشد فيها إلا ويمتلئ المكان بالناس . .

وجاء في مقال بمجلة المسرح (١٤ يونيو ١٩٢٦) بقلم جمال الدين حافظ عوض . . بعنوان « أم كلثوم وفتحية أحمد » :

« لعل أهم مشاغل الناس ، طوال هذه المدة ، الضجة القائمة بين المغنيات والمفاضلة بينهن . ولعل أبرز المغنيات وأولهن في هذا الميدان ثلاث : منيرة المهدية ، أم كلثوم ، فتحية أحمد . ونحن في كلماتنا هذه سنترك منيرة جانبا ، داعين الله أن يلبسها ثوب العافية ، وأن يحفظ لمصر البلبل الغريد . أما أم كلثوم وفتحية أحمد ، فهما موضوع حديثنا ، والحديث عنهما يطول . والمسألة في عرفي تنحصر في أمر واحد بسيط »

كانت أم كلثوم ومازالت إلى اليوم ، موضوع إعجاب الناس من الفنانين والموسيقيين وأصحاب الأذان السليمة . . أما فتحية أحمد ، فجاءت من الشام ، واشتغلت في أول أمرها بالتمثيل والإنشاد المسرحي ، فنجحت نجاحا باهرا . ثم انتهى عملها المسرحي ، ودخلت ميدان التخت والآلات الموسيقية . وفتحية لها أصدقاءها - وأصدقاء زوجها أيضا . . أصدقاء يمثلون الدنيا صراخا وضجيجا ، مسبحين باسم فتحية أحمد ، ورقة صوتها . وهم لا يكتفون بأن تكون هذه فكرتهم وحدهم ، وإنما الغريب أنك إذا ناقشت واحدا من هؤلاء الأنصار ، وأوشكت أن تقنعهم بالبراهين والأدلة الملموسة المحسوسة ، صاح بك قائلا : المسألة مسألة مزاج .

آين هذا الصوت من صوت أم كلثوم ، الذى إذا ما سمعه شخص له قلب ، فإنه يخفق خفقانا . . ؟ آين هذا من صوت أم كلثوم ، الذى ما استمع إليه بائس ، إلا وانفتحت أمامه أبواب الرجاء ؟

إن كان لمصر أن تفخر يوما بأن فيها موسيقى ، وأن فيها غناء ، فلن تفخر إلا بفتى وفتاة . . صالح عبد الحى وأم كلثوم . إن الحرام ظاهر، والحلال ظاهر . . ومن كانت له أذنان للسمع فليسمع . وروى المخرج الكبير « حسن الإمام » :

« استمرت الأحزاب تاريخا طويلا ، شاهدته بنفسى . . قصة معهد الموسيقى مثلا تبدأ عندما ذهبت أم كلثوم إلى الولايات المتحدة لتعالج عينيها ، ثم عادت إلى الوطن عام ١٩٤٩ ، وأراد المعهد أن يكرمها . . فأقاموا لها حفلاً كبيراً . . وكانت عروس الحفل فتحية أحمد . وأرادت فتحية أن تتحدى أم كلثوم . . ليس بالكلام ولكن بالفعل . فاختارت لحنا للشيخ زكريا أحمد ، كان حديث القاهرة في هذا الوقت . . وهو من أوبريت « يوم القيامة » . . وهذا اللحن من مقام « الزنجران » . ومقام الزنجران هذا قليل التعامل معه . . لماذا ؟؟ أنا لا أفهم كثيرا في الموسيقى . إن زكريا لحن لأم كلثوم أغنية في هذا المقام ، وهى « هو ده يخلص من الله » (بديع خيرى) . وفى أوبريت يوم القيامة ، أعاد زكريا عشقه لمقام الزنجران . . ولحن أغنية كان لها دوى . . هى « يا حلاوة الدنيا يا حلاوة . وقفت فتحية على المسرح ، وكأنها فى حلبة مصارعة أو بوكس . وغنت هذا اللحن . واستمرت فى كلمة يا حلاوة . . وللمرة الأولى ، خرجت مطربات الدرجة الأولى عن الشعور، فقد كان الجمهور دائما يستمع فى صمت واحترام . لكن فتحية أحمد أرادت أن تظهر لأم كلثوم أنها « أسطة » . ففى اللحن كلام يقول : « خلوها حلوة » . . فشاورت فتحية للمستمعين لكى يرددوا « يا جدعان » . يعنى حولت المتفرجين إلى كورس . كل ذلك وهى تنظر لأم كلثوم ، وكأنها تقول : هل رأيت ؟ إننى مازلت متربعة على عرش الغناء » .

وللحق فإن فتحية أحمد كانت طيبة القلب ، لا تتقن إعلان الحرب واستخدام

الأسلحة كزميلتها منيرة المهديّة .

وفى هذا الحفل نفسه ، غنت فتحية أحمد أحد المواويل تحمى به أم كلثوم نيابة عن أسرة الفن . . جاء فى كلماته :

الناس تقدم تهانيها وأنا جاية
جاية أبيع الأزاهر للجناينية
أهدى الطرب للطرب والركع النيّة
طبع الكريم السباح أما القليل يرضيه
لو كنت أفدى يا ثومة الروح داشويه

اشتهرت فتحية أحمد بالعقد اللولى الذى كانت تحركه بين أصابعها أثناء الغناء (وكانها تسبح) بينما أم كلثوم اشتهرت بمنديلها الطويل . فتحية أحمد كانت قمة فى فن الموالي . . كما غنت من ألوان الغناء المونولوج والقصيدة والطقطوقة . وفتحية قامت بدور كليوباترا أمام منيرة المهديّة ، بعد استغناء منيرة عن محمد عبد الوهاب . كما اشتركت فتحية بصوتها مع أم كلثوم فى أوبرا عايدة ، حيث قامت بدور الأميرة «أميريس» ، وذلك فى فيلم عايدة (عام ١٩٤٣) .

والمعروف أن فتحية أحمد كانت من أقرب المطربات إلى قلب أم كلثوم ، وأنها فى مرضها الأخير لم تجد أكثر حنانا من قلب أم كلثوم عليها . . فهى التى أمدتها بالمال ، وتابعت علاجها حتى وفاتها .
تقول د . نعمات فؤاد^(٦) :

« كانت مقالات الصحف واستفتاءات الجمهور ، ترجح كفة فتحية التى كثر القول سنة ١٩٢٦ عن جمعها بين (حلاوة الصوت) و (إحكام القفلة) ، مضافا إليها (قدرة التلحين) . . هكذا ! ولو أن الصحف كانت لا تثبت على حال . فإن تهليل الصحف لفتحية لم يمنع الكاميرا ، وفى سنة ١٩٢٦ أيضا ، أن تلهث وراء أم كلثوم .

فهى صورة الغلاف فى روزا اليوسف التى نقلت (١ / ١٢ / ١٩٢٦) عن جريدة السائح التى تصدر فى مدينة « نيويورك » ، تحت عنوان (أم كلثوم فى صحف أمريكا) : (أم كلثوم المغنية الذائعة الصيت ، ما زالت تتقدم فى عالم الغناء منذ هبطت مصر وهى فتاة ساذجة حتى أصبحت اليوم سيدة المغنيات وأميرة المطربات بلا منازع) . واستمرت المنافسة بين الثلاث مطربات . . منيرة - فتحية - أم كلثوم . . وانتهت باعتلاء أم كلثوم عرش الغناء .

التنافس بين أم كلثوم وعبد الوهاب

روى حسن لاشين^(١) :

« كان التنافس قائما دائما بين أم كلثوم وعبد الوهاب . وعندما لحن زكريا أحمد أغنية « الى حبك يا هناء » ، وشاع فى الوسط الفنى أن هذه الأغنية ستكون قبلة الموسم ، وأن زكريا أحمد قد بذل المستحيل لتكون هذه الاغنية حدثا فنيا جديدا ، حاول محمد عبد الوهاب أن يتعرف على اللحن الجديد قبل أن يظهر فى الجو الفنى . ودعا عبد الوهاب ثلاثة من أصدقاء الشيخ زكريا إلى تناول الشاي فى محل « سولت » ، ودفع هو الحساب . . وعندما خرجت الشلة من المحل طالبتها عبد الوهاب بأن تغنى اللحن الجديد ، وغنت الشلة للحن مأخوذة بدعوة الشاي من عبد الوهاب . وقال عبد الوهاب بعد أن سمع الجزء الأول من اللحن : « اللحن درويشى خالص » . . وقال حسن لاشين ضاحكا : « ما احنا كلنا دراويش ياسى محمد » .

أعطى الشاعر أحمد رامى كلمات مونولوج « سهران لوحدى » إلى محمد عبد الوهاب الذى أبدى رغبته فى تلحينه . . وكان ذلك عام ١٩٤٤ . وقيل إن عبد الوهاب لحنه فعلا . . ولكنه لم يغنه لجمهوره . كانت المنافسة خلال هذه الفترة كبيرة بين أم كلثوم وعبد الوهاب ، كل منهما يرغب فى الزعامة الفنية .

استطاعت أم كلثوم ، بها لها من دلال على أحمد رامى ، أن تستحوذ على كلمات هذا

المونولوج . . وقدمتها إلى رياض السنباطى كى يلحنها . وكان رياض على علم بأن عبد الوهاب يلحن هذا المونولوج ، وخاف المنافسة والمقارنة . يقول رياض :

« لحننت هذا المونولوج عشر مرات . . كل مرة فى مقام شكل . . أبحث عن المقام الملائم للمعنى . . إلى أن استقررت على المقام المناسب . وخرج اللحن بديعا . غنت أم كلثوم مونولوج « سهران لوحدى » الذى يعتبر من روائع ما غنت أم كلثوم من ألحانها عام ١٩٥٠ »

وعلى الرغم من هذا النجاح . . ظل رياض متخوفا من عبد الوهاب ، ومن مفاجآته . . كان يخشى أن يخرج عبد الوهاب بلحنه يغنيه لجمهوره . . وربما يتفوق فى تلحينه عليه . لكن عبد الوهاب حتى وفاته لم يغن هذا المونولوج . . وأسدل عليه النسيان .

ومن الروايات التى رويت عن التنافس الفنى الذى كان موجودا بين أم كلثوم وعبد الوهاب ، أنه فى أوائل الثلاثينيات ، كان المسرح هو أعلى الفنون ، وأكثرها برقا . وكان يوسف وهبى يؤجر مسرحه مرتين شهريا ، مرة لأم كلثوم وأخرى لعبد الوهاب . محاولة للجمع بين أم كلثوم وعبد الوهاب فى عمل فنى واحد . روى الصحفى والكاتب الكبير مصطفى أمين :

« تم لقاء فى بيتى بين أم كلثوم وعبد الوهاب ، للاتفاق على تمثيل فيلم عن المظ وعبد الحامولى . على أن يمثل عبد الوهاب دور « عبده » ، وأم كلثوم دور « المظ » . وكان رأيها الذى أصرت عليه أن يلحن أغانى الفيلم الملحنون السنباطى - وزكريا والقصبجى . ولكن عبد الوهاب طلب أن يلحن كل أغانى الفيلم . ولم توافق أم كلثوم إلا على أغنية واحدة يلحنها لها عبد الوهاب . ولم يقدر لمشروع الفيلم بعد هذا أن يخرج إلى حيز الوجود بسبب إصرار عبد الوهاب على موقفه . »

محاولة أخرى قام بها طلعت حرب ، للجمع بين القطبين أم كلثوم وعبد الوهاب في عمل فنى واحد :

دعا طلعت حرب (باشا) أم كلثوم وعبد الوهاب أيضا ومعهما الشاعر أحمد رامى إلى لقائه . . وناشدهما بحب الوطن والفن أن يقبلا الاشتراك معا فى فيلم سينمائى غنائى يتجه ستوديو مصر . وطلب منهما تحديد الأجر الذى يروونه مناسبا لهما . وأجاب الطرفان أن الأجر لا يلعب دورا هاما فى هذا المشروع . فقط طلبا أن يتساويا فى الأجر بالنسبة للتمثيل . أما ألحان الأغانى فلعبد الوهاب أجر خاص له . أصر عبد الوهاب على تلحينه جميع الأغانى . . وعارضت أم كلثوم هذا رأى ، وطلبت أن يلحن أغانيها ملحنوها - القصبجى - زكريا - والسنباطى . . مع احترامها لألحان عبد الوهاب . . وأخيرا وافق عبد الوهاب .

وتنبه أحمد رامى لوجود أغان مشتركة بين البطلة والبطل « الديالوج » ، وسأل من الذى سيقوم بتلحينه ؟

وبروح ودودة ، قالت أم كلثوم : بالطبع عبد الوهاب إذا كان ديالوج واحد . أما إن زاد . . فيكون الديالوج الثانى لأحد ملحنىها . وعاد عبد الوهاب يعترض ، فقد رأى فى ذلك مساسا بفنه . وتأزمت الأمور ، وألغى طلعت حرب فكرة اشتراك القطبين فى عمل فنى واحد .

والمعروف عن طلعت حرب أنه كان يساند الفنانين ، كما كان صديقا لهم . روى لى أحد المسئولين الكبار لشركة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى ، أن لأم كلثوم الفضل فى استمرار وجود هذه الشركة . قال المسئول :

«إنه فى عام ١٩٢٧ دخلت أم كلثوم على طلعت حرب (باشا) فى مكتبه ببنك مصر، فوجدته حزينا بائسا . سألته :

- خير يا باشا . .

فأجابها :

.. أنا حزين للغاية . . . فالיום سأدفن بنفسى أحد أبنائى .

ارتبكت أم كلثوم عند سماعها لهذا الخبر . . وأرادت أن تستفسر عن تفاصيل هذا الحادث . .

واستطرد طلعت حرب حديثه قائلاً :

حدث إفلاس لشركة الغزل والنسيج بالمحلة . . ومطلوب منى دفع الدين أو حتى جزء منه . . وللأسف ليس لدى من المال ما يمكن به إنقاذ هذا المشروع القيم من الإفلاس .

طلبت أم كلثوم معرفة رصيدها بالبنك . . وعلى الفور أخرجت دفتر الشيكات ، وكتبت شيكا بالمبلغ كله الموجود برصيدها . وبهذا المبلغ ، استطاع طلعت حرب (باشا) إنقاذ الشركة التى تعتبر اليوم علامة حضارية لمصر العظيمة » .

وعلى الرغم من عدم اتفاق الطرفين ، أم كلثوم وعبد الوهاب ، على الاشتراك فى عمل واحد ، إلا أن لقاءاتهما فى المجتمع كانت تجمع بينهما فى أداء بعض الأغانى .

فكثيراً ما كان يطلب منهما الغناء فى المناسبات الخاصة . ومن بين ما روى عن هذه اللقاءات ، أنه فى عام ١٩٤٥ احتفل بعيد ميلاد الأستاذ حسن الأحرور . وكان من بين المدعوين : أم كلثوم ، وعبد الوهاب ، وتوفيق الحكيم ، وفكرى أباطة ، والدكتور عبدالوهاب مورو ، وكامل الشناوى ، وصديقه كاميليا ، التى اشتركت بالتمثيل فى س الأفلام السينمائية ، والتى توفيت فى حادث سقوط طائرة . كانت كاميليا رائعة بال ، وكان الملك فاروق ينافس كامل الشناوى على حبها آنذاك . وبدأت أم كلثوم يلها للدعابة فى هجوم تداعب به كامل الشناوى الذى اتهمته بتحيزه للفنانة ميليا . واعترف كامل الشناوى بهذا التحيز . فطالبت أم كلثوم باللقاء شعر يصف فيه مال كاميليا .

وفعلا نظم كامل الشناوى أبياتا من وحى اللحظة ، قال فيها :
 لست أقوى على هواك ومالى
 أمل فيك . . فارفقى بخيالى
 إن بعض الجمال يذهل عقلى
 عن ضلوعى . . فكيف كل الجمال .

وأمسك عبد الوهاب بعوده وبدأ فى تلحين هذه الأبيات الشعرية . . وأم كلثوم بدورها ، أخذت عن عبد الوهاب اللحن وغنته ، واستعاد الحاضرون هذا اللحن مرات حتى مطلع الفجر .

كما جاء فى الروايات أخبار عن لقاء أم كلثوم وعبد الوهاب فى منزل والد الفنان الدكتور أبو بكر خيرت ، الذى اشتهر بإقامة أمسيات يجمع فيها الفنانين والأدباء . وفى إحدى هذه الجلسات غنت أم كلثوم وعبد الوهاب معاً ثنائية سيد درويش « على قد الليل ما يطول » .

أم كلثوم نقية للموسيقين :

كانت أم كلثوم تنوق إلى إقامة نقابة . . وكذلك رغبة محمد عبد الوهاب . وقد كان من أصدقائها الدكتور محمود أحمد الحفنى (رائد التعليم الموسيقى فى مصر) وعبد الله بك أباطة (وكيل وزارة الاقتصاد) . وكانت وزارة الشؤون الاجتماعية لا تجيز إقامة نقابتين . وقد ساعدها فى إقامة النقابة . وكان بالطبع بعض من العازفين ينضمون إلى عبد الوهاب ، وبذلك لم ينضموا إلى النقابة . .

يروى الفنان أحمد الحفناوى :

« . . قررنا إقامة حفل لزيادة موارد النقابة المالية . . فكنا نمر أنا والقصبجى ومحمد بخيت (سكرتير النقابة) لتوزيع تذاكر الحفل . فمررنا مثلاً على نادى محمد على وجروبي . وعرضنا على محمد عبد الوهاب أن يغنى ، كما ستغنى أم كلثوم ، فوافق . . ولكن عندما أردنا تحديد ميعاد الحفل تراجع عبد الوهاب عن موافقته

للغناء . وعليه فقد اجتمعت أم كلثوم بمجلس إدارة النقابة ، وقرر المجلس عدم التعامل مع عبد الوهاب ، إلا إذا حدد ميعادا للحفلة وأعلن موافقته على الاشتراك فيها .

وعندما أصر عبد الوهاب على عدم الغناء ، قالت له أم كلثوم :

- طالما أنك مش عايز صوتك يغنى . . ادفع فلوس . .

فوافق ودفع ألفى جنيه . . قالت أم كلثوم لمحمد بخيت سكرتير النقابة :

روح اصرف الشيك فى الصباح الباكر بسرعة . . قبل ما يرجع فى كلامه . واجتمع مجلس الإدارة مرة أخرى ، وألغى القرار السابق بعدم التعامل مع محمد عبد الوهاب . أقيمت الحفلة فى مسرح ليتروريا ، وكان دخلها كبيرا . . فقد كانت النقابة فى هذه الفترة عام ١٩٤٨ أغنى نقابة موجودة . . .

ولكن بعد قيام الثورة ، فوجئنا بأحد رجال الثورة يسألها عن الأجر الذى تتقاضاه فرقتها منها . ولما عرف هذا الرجل المبلغ . قال للفرقة : لابد أن تثوروا على أم كلثوم . . وأثناء اجتماع الجمعية العمومية للنقابة . . احتد أحد العازفين مع أم كلثوم فى الحديث . فأمرت بخروجه من الاجتماع . ومن هنا بدأ الأعضاء يتضايقون من قوة شخصيتها .

اجتمعت الجمعية العمومية ليقبلوا أم كلثوم من منصب النقيب . وقد بلغ ذلك أنور السادات المشرف على الإذاعة وقتذاك ، فجاء السادات والتقى بعدد من أعضاء مجلس الإدارة . . فشكوا إليه من معاملتها مع الأعضاء بقسوة . فطيب خاطرهم وقال لهم .

- من حقكم أن تعملوا أى حاجة تجاهها . . ولكن لاتنسوا أنها كان لها الفضل فى تأسيس وإقامة النقابة ، فيجب أن تنصبوها رئيسة شرفية للنقابة .

وأثناء اجتماع المجلس للنظر فى موضوع خروجها أو التمرد عليها . قدمت أم كلثوم استقالتها من منصب النقيب .

الفصل الثانى

ملحنو أغانى أم كلثوم

فى بداية حياة أم كلثوم الفنية لم يكن لها ألحان خاصة بها . . كانت وهى طفلة صغيرة ، تغنى من ألحان والدها الشيخ إبراهيم ، كما كانت تؤدى القصائد الدينية والتواشيح التى كانت تحفظها كما هى بكلماتها ولحنها وطريقة تقديمها . . والتى أخذتها عن المقرئين والمترلين فى الموالد .

تتلمذت على يد المطرب الكبير الشيخ أبو العلا محمد . . وحفظت أغانيه ، وأدتها فى حفلات عديدة ، كما سجلتها على أسطوانات . وبرعت أم كلثوم فى أداء ألحان الشيخ أبو العلا محمد ، كعادتها منذ أن بدأت تغنى . وقد سبق الكلام فى هذا الصدد . وتعرفت أم كلثوم على ملحن آخر، هو الدكتور أحمد صبرى النجريدى ، وكان طبيباً للأسنان فى طنطا . وكان أول من لحن لها أغانى خاصة بها . وقد سبق عرض للألحان التى تغنت بها أم كلثوم .

ثم جاء محمد القصبجى الذى أخذ بيد تلميذته . . فمهد لها طريق النجاح . . أخذت أم كلثوم عنه الكثير . . ولازمها القصبجى فى فرقته حتى وفاته . ومن ملحنى أم كلثوم داود حسنى الذى غنت له ، فى الفترة ما بين عامى ١٩٢٧ - ١٩٣٤ العديد من الألحان ، منها عشر أدوار .

أما الشيخ زكريا أحمد ، فكان قد تعرف إلى أم كلثوم فى قريتها ، فى بداية حياتها الفنية . . ولازمها فى حفلاتها . . وقدم لها العديد من ألحانه ، اختتمها بأغنية « هوه صحيح الهوى غلاب » .

ومن ملحنى أم كلثوم فريد غصن الذى غنت له لحنا واحدا هو « وقفت أودع حبيبي » من كلمات أحمد رامى ، وذلك عام ١٩٤٤ .

ومنذ عام ١٩٤٥ ، انضم رياض السنباطى إلى ملحنى أم كلثوم . ثم بدأت فنانتنا تتعامل مع الملحنين الشبان ، أمثال : محمد الموجى ، وكمال الطويل ، وبليغ حمدي ، والشيخ سيد مكاوى .

وفى نهاية حياة أم كلثوم الفنية ، تم اللقاء بين القمتين ، أم كلثوم ، ومحمد عبدالوهاب . . .

لقاء أم كلثوم ومحمد القصبجى :

يقول القصبجى :

« أول مرة سمعت فيها أم كلثوم - ولم أكن أعرفها من قبل - كانت فى أواخر عام ١٩٢٣ . وكانت تغنى قصائد وطقطوقة لإبراهيم فوزى مطلعها : « فى غرامك ياما شفت عجائب » .

وتعرفت على أم كلثوم بعد ذلك بسنة ، (أى عام ١٩٢٤) . ومنذ ذلك التاريخ لم أفرق عنها . وقد عرفنى بها أبى . فقد كان من أصدقائه ، متعهد حفلات الغناء « الشيخ محمد أبو زيد » . فصحبني لأسمعها ، وأعجبت بصوتها . وصعدت إلى خشبة المسرح لأرى عن قرب صاحبة هذا الصوت الجميل . وحييتها فردت التحية ، دون أن تعرف من أنا .

وفى منتصف عام ١٩٢٤ ، وكنت فى هذا الوقت ألحن لجميع شركات الأسطوانات ، ومن بينها شركة أوديون ، كانت أم كلثوم تسجل فيها بعض أدوارها ، ومعظمها من تلحين الدكتور « أحمد صبرى النجرىدى » ، وكان موسيقيا هاويا . وكان من بين الأدوار التى سجلتها له : « أنا على كيفك » ، و « الفل والياسمين والورد » ، و « مالى فتنت » ، وغيرها . وفى هذا الوقت ، سجلت أم كلثوم أغنية من تلحيني ، دون أن تعرف أنها من ألحان موسيقى يدعى القصبجى . وهى « آل إيه

حلف ما يكلمنيش . وكنت قد لحنتها للسيدة «نعيمة المصرية» . شعر السيد «ألبير ليفي» ، مدير شركة أوديون ، بأن الأمور سوف تتعقد ، فصحبني إلى منزل الأنسة أم كلثوم في شارع قوله بعابدين ، وقام بتعريفني إليها قائلاً :

« الشيخ محمد صاحب لحن «آل إيه حلف» .

وأسمعتها اللحن على أصوله ، وأعيد تسجيله . وبدأت علاقتي بها ، وتعرفت إلى أحمد رامى . . وألف لها : «إن حالى فى هواها عجب أى عجب» و «إن كنت أسامح» ، وقمت أنا بالتلحين» .

وأخذت أم كلثوم عن القصبجى لحنين ، غنتهما فى حفلاتها ، بالاشتراك مع بطانتها من المشايخ . واللحنان هما : «أنا عندى أمل تنسى الى حصل» (مقام بياتى) و «م السنة للسنة يا حلو لما أنظرك» (مقام عجم) . ثم خصصها محمد القصبجى ببعض ألحانه . . وعهد إلى الشاعر أحمد رامى بنظم أغانيها ، وهى :

- إن حالى فى هواها عجب

- ياريتنى كنت النسيم

- ولحد لمتى حتدارى حبك

- صدق وحبك مين يقول

- أيقظت فى عواطفى وخيالى

- أخذت صوتك من روحى

- صحيح خصامك ولا هزار

- متنا فى حبك يا نور العين وجينا

- بحبك وأنت مش دارى

- قلبك غدر بى ورمانى

وسجلت أم كلثوم هذه الأغاني العشر على أسطوانات ، وارتفع أجر القصبجى فى

هذه الألحان عند شركة الأسطوانات ، فزادت من ثمانية جنيهاً إلى خمسة عشر جنيهاً عن اللحن الواحد .

وكان محمد القصبجي قد كوّن لها أول تحت (فرقة موسيقية صغيرة) لتصاحبها في الغناء ، بدلا من فرقة المنشدين التي كانت ترافقها . وكان هذا التخت يضم أعلام العازفين آنذاك :

محمد العقاد (قانون) - سامي الشوا (كمان) - محمد القصبجي (عود) محمود رحى (إيقاع) . واختار القصبجي لها مسرح « دار التمثيل العربي » لتقدم فيه حفلاتها الغنائية ، بدلا من الصالات العادية . . مثال « البوسفور » - « وسانتى » . وكان المعروف أن منيرة المهدية تقدم حفلاتها على هذا المسرح . وخشى مدير المسرح من غضب منيرة ، إذا ما سمح لأُم كلثوم بالغناء في مسرحه . ولكن القصبجي استطاع إقناعه . ووقع عقدا طويلا المدى بينه وبين أم كلثوم . ومنذ عام ١٩٢٦ و حفلات أم كلثوم تستقطب الجمهور ، رغم ظهور حملات صحفية مغرضة ، قامت بها منيرة المهدية ، عندما أحست الخطر الذي يهدد فنّها ، بعد ظهور المطربة الشابة التي بدأت تصعد نحو قمة الغناء . أحست أم كلثوم مدى إخلاص محمد القصبجي لها ولفنّها . . فاستسلمت لرأيه . . ونفدت له ما طلب . . واستمر محمد القصبجي يشترك بعوده في تحت أم كلثوم . . ولم يفارق أغنياتها حتى آخر أيام حياته . كان القصبجي في هذه الفترة يعتبر ملحن أم كلثوم الأول . . يرافقها في أسفارها ، ويصاحبها في جميع حفلاتها التي أحيتها في سوريا والعراق وفلسطين والكويت وبيروت ، إلى غير ذلك .

القصبجي ودوره في المونولوج :

وكانت الأغاني التي تؤدي من كبار المطربين والمطربات ، حتى عام ١٩٢٨ ، لاتخرج عن القوالب الغنائية : الموشح - الدور - القصيدة - الموال - والطقوقة . عاد أحمد رامى من بعثته في فرنسا . . وجاء بلون جديد من القوالب الغنائية . .

وهو المونولوج . . وهو لون من الغناء الفردى الرومانسى ، أعجب القصبجى بهذا القالب الغنائى الجديد ، ولحن تحفته الفنية التى أصبحت نقطة تحول فى تاريخ الغناء العربى . . وهو مونولوج « إن كنت أسامح وأنسى الأسيه » (أحمد رامى) ، وسجلتها أم كلثوم على أسطوانات (صوت سيده) " His Master's Voice " ، بيع منها مليون نسخة . . ومنحت الشركة أم كلثوم ثمانين جنيها ، نظير الغناء . . بيننا تقاضى القصبجى خمسة عشر جنيها ، مقابل التلحين .

ومما يذكر، أن شركة الأسطوانات كانت قد عرضت على أم كلثوم أن تحصل على خمسة قروش على كل أسطوانة مباعه . . لكنها رفضت هذا العرض ، وفضلت الحصول على الثمانين جنيها . ولو أنها قبلت عرض الشركة لكان مكسبها خمسين ألف جنيها . يقول المؤرخ الموسيقى محمود كامل^(٣) :

لم تكن « إن كنت أسامح » أول محاولة فى تلحين المونولوج . . فإن لبعض الملحنين محاولات سبقت فى هذا المجال . فقد كان المرحوم الشيخ سلامة حجازى يقدم ألحانا من هذا اللون خلال فصول رواياته المسرحية ، مثل « أتيت فألفيتها ساهرة » و « أتيت الحبيبة فى ليلة وبعد اللتيا وبعد التى » ، وأيضا فى ثنايا مسرحياته مثل : « أحبابنا زار طيف منكمو ومضى » فى رواية (تسبا) ، و « شهيدة الوفاء » و « يا غزالاصاد قلبى جفنه » من رواية (روميو وجوليت) . ولكن هذه الألحان كانت أميل فى صياغتها إلى القصيدة .

كما قدم الشيخ سيد درويش نموذجا للمونولوج فى أوبريت (راحت عليك) أو (بنت الحاوى) ، وهو لحن « والله تستاهل يا قلبى » ، ولحن الدكتور أحمد صبرى النجريدى ثلاثة مونولوجات غنائية لأم كلثوم :

ـ خايف يكون حبك لى شفقته على (أحمد رامى)

ـ الحب كان من سنين (أحمد رامى)

ـ والله ما حدش جنى غير قلبى ده على

كما غنى المطرب عبد الوهاب ثلاثة مونولوجات أخرى :

- عايزك تصد وتهجرنى

- شبكتى قلبى يا عينى (أحمد شوقى)

- الصد طال وانت مش راضيه تخنى

ولم يكن «إن كنت أسامح» أول ألحان القصبجى لأم كلثوم من قالب المونولوج . .
ولكنه سبق أن لحن لها مونولوجين هما :

«أخذت صوتك من روحى وحزن لحنك من نوحى»
و «ياريتنى كنت النسيم الى يداعب شعورك»

وكانت هذه المونولوجات التى سبقت «إن كنت أسامح» صورة بدائية لقالب
المونولوج .

ابتكر القصبجى أسلوبا فنيا جديدا فى تلحينه لمونولوج «إن كنت أسامح» جعله
نموذجا للتأليف الموسيقى . . ففيه أعطى القصبجى انطلاقة جديدة للآلات الموسيقية
التي أصبح لها دور ظاهر بجانب الغناء .

ومن أشهر ما لحن القصبجى لأم كلثوم من لون المونولوج :

- خلّى الدموع دى لغتى

- الشك يحبى الغرام

- سكت والدمع اتكلم

- خيالك فى المنام حلمى

- خاصمتنى وأنا حيران من أمر الخصام

- انظرى هذى دموع الفرح حالت

- يا غائبا عن عيونى

- يا عشرة الماضى الجميل

وكانت كلها من كلمات الشاعر أحمد رامى . وقد أعجب عبد الوهاب بهذا اللون الجديد ، فنحنا منحاه فى التلحين . . . كما أخذه السنباطى أيضا عن القصبجى ، فبدأ فى تلحين المونولوج .

ولما نجح القصبجى فى تلحينه للمونولوج ، أقبلت عليه المطربات يطلبن ألحانا من طرازه . فلحن لمنيرة المهديّة ، وفتحية أحمد وغيرهما . وروى المرحوم « عبده قطر » أستاذ الغناء العربى . . أنه قد بلغ من إعجاب المطربة المهديّة بمونولوج « إن كنت أسامح » - وهى فى قمة تألقها وازدهارها - أنها كانت تغنيه فى حفلاتها العامة . وأن منصور عوض - المدير الفنى لشركة أسطوانات (صوت سيده) أقام دعوى ضد منيرة بسبب غنائها هذا المونولوج . . فاضطرت إلى التوقف عن غناؤه .

اهتز الوسط الفنى عندما غنت أم كلثوم مونولوج « إن كنت أسامح وأنسى الأسية » من كلمات أحمد رامى ولحن محمد القصبجى فى موسمها الغنائى لعام ١٩٢٨ . وبالرغم من أن أم كلثوم غنت فى نفس هذا الحفل أغنية « سكت والدمع اتكلم » و« تبيعينى ليه كان ذنبى إيه » وهما أيضا من ألحان محمد القصبجى ، إلا أن مونولوج « إن كنت أسامح » اعتبر فتحا جديدا فى مجال الأغنية العربية ، بفضل الأسلوب الجديد الذى اتبعه القصبجى فى تلحينه . . بإظهار معانى الأغنية ، وترجمة الأحاسيس المؤدية لكلام الأغنية .

دفع هذا الأسلوب الجديد فى التلحين والملحنين المعاصرين ، ومن بينهم كل من محمد عبد الوهاب ورياض السنباطى ، للوقوف ، وتأمل هذا الأسلوب الحديث . . وظهرت ألحان عديدة فى قالب المونولوج من صنع عبد الوهاب والسنباطى ، الذى كان أكثر تأثرا من غيره . فغنى له عبد الغنى السيد مونولوج « شكيت يا قلبى » وأحمد عبد القادر « آه يا قمر وإنّ شايّف ذلى » (مناجاة عاشق) .

وغنت أم كلثوم روائع من ألحان محمد القصبجى فى أفلامها الخمسة . أما فيلمها السادس (سلامة) ، فقد خلا من ألحان القصبجى .

واقترن اسم القصبجى باسم أم كلثوم نحو أربعين عاما . . كان مخلصا لها . .
غيروا على فنها . . كان يتلو بعض الآيات القرآنية ، وهى تغنى أمام الجمهور على
خشبة المسرح . . ويدعو لها بالتوفيق . وكان القصبجى يقوم بإدارة فرقها الموسيقية .
وهو يعتبر أكثر الفنانين الذين شاركوا أم كلثوم فى كثير من الميادين الفنية : فى نقابة
الموسيقيين - وفى أول لجنة استماع بالإذاعة - واللجنة الموسيقية العليا (١٩٥٢) - ولجنة
الموسيقى بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب - وكان ، وهو فى فرقة أم كلثوم
الموسيقية ، يؤدى ألحان غيره من الملحنين الذين لحنوا لها بنفس الإتقان الذى كان يؤدى
به ألحانه .

وأخر ما غنته أم كلثوم للقصبجى « رق الحبيب » (١٩٤٦) . . وحتى الآن لم
يعرف سبب إقلاع أم كلثوم عن غناء ألحان القصبجى ، رغم اعترافها طوال حياتها
بفنه وإمكاناته . . كما كانت تشجعه على التلحين للأصوات الأخرى . . وتطلب منه
عرض هذه الأغانى عليها ، قبل عرضها على هؤلاء المطربات والمطربين . وكانت دائما
تبدى رأيا فى اللحن . . ومع ذلك ، لم تغن للقصبجى لحنا بعد « رق الحبيب » رغم
محاولات عديدة من جهته . . ومن المقربين إليه ومحبي فنه محمود كامل الذى روى
مايلى :

« عهدت أم كلثوم إلى القصبجى تلحين بعض أغانيها بعد « رق الحبيب » ، ولكن
هذه الألحان لم تغنهما أم كلثوم . فقد حدث فى عام ١٩٥٤ . أن اختارت أم كلثوم أغنية
وطنية من شعر أحمد رامى مطلعها :

« يا دعاة الحق هذا يومنا » لكى تسجلها بالإذاعة بمناسبة أعياد الثورة . وطلبت
من القصبجى تلحينها ، وعاد الأمل من جديد إلى قلب القصبجى . . وأحس بأن
أبواب السماء بدأت تتفتح له مرة أخرى . وتوجه بقلبه إلى الله أن يلهمه التوفيق
والسداد ، وأن ترضى أم كلثوم عن هذا اللحن وتقبل غناؤه ، وبدأ يلحن كلمات
الأغنية . . وكان من فرط فرحته ونشوته ، كلما انتهى من تلحين مقطع منها ، حمل
عوده وأسرع إلى فيلا أم كلثوم بالزمالك ، يسمعها ما لحنه . وكانت تبدى له علامات

بينهما . . وأضحت علاقة عمل فقط . . ولم يكن القصبجي يدري سر هذا الفتور .

ويرجح صديقه محمود كامل أن هذا الفتور جاء لثلاثة أسباب :

أولاً: سوء الحالة الصحية للقصبجي في السنوات الأخيرة . . وعدم استطاعته حفظ الألحان بدرجة الإتقان التي كان يحفظ بها من قبل .

ثانياً : كثرة شكواه لزملائه من سوء معاملة أم كلثوم له . . ويبدو أن واحداً من هؤلاء الزملاء حمل إلى أم كلثوم صورة غير حقيقية ، فصعب عليها أن تسمع مثل هذه الألفاظ ، وهى التى تكن له كل تقدير .

ثالثاً : كان القصبجي يصّر دائماً على الحصول على أجره كاملاً عن الحفلات التى تتبرع بإحيائها أم كلثوم ولا تتقاضى عنها أجراً ، وتقوم بدفع أجور الفرقة من جيبتها الخاص .

يقول المؤرخ كمال النجمي :

« ماذا حدث للقصبجي في هذه المرحلة الطويلة التى بلغت عشرين عاماً تقريباً ؟ قيل إنه كان فى تلك المرحلة يهمس لأصدقائه بأن أم كلثوم قد أصابته « بعقدة نفسية » ، فلم يعد قادراً على التلحين ، فقد كانت ترفض ما يلحن لها . . لحناً بعد لحن ، وتعطى الكلمات التى فرغ من تلحينها لغيره من الملحنين ، ليصوغوا لها ألحاناً أخرى .

وقالت أم كلثوم للقصبجي :

- يبدوا يا « قصب » أنك تحتاج إلى راحة طويلة !!

وارتاح القصبجي عشر سنوات كاملة . . ثم أعطته أم كلثوم كلمات أغنياتها « للصبر حدود » ، ولكنها لم تقبل اللحن ، وأخذت الكلمات فأعطتها لمحمد الموجي الذى صاغ منها لحنه المشهور .

ومع ذلك لم تتخل أم كلثوم عن القصبجي كملحن ، بل شجعتة على استرداد

قدرته على التلحين لها ، ولكنه لم يستطع استردادها ، وكانت آخر محاولة في هذا السبيل حين سمعت أم كلثوم لحنا للقصبي تغيته سعاد محمد في حفلة أقيمت تكريما لأم كلثوم ، فأعجبها اللحن ، وظنت أن أخاها القديم محمد القصبي قد استرد موهبته ، فكلفته بتقديم لحن لها يختار كلماته بنفسه . ووجد القصبي الكلمات الجميلة التي أعجبت ، وسهر الليالي في تلحينها ، ولكن اللحن لم يعجب أم كلثوم . . وردته إليه .

وكانت هذه آخر محاولات أم كلثوم مع القصبي ، وآخر محاولات القصبي مع أم كلثوم !!

وبدأ اليأس يدب إلى قلب الملحن الكبير الذي امتنعت مواهبه عن العطاء ، بعدما تدفقت طويلا بالعطاء الغزير . فكف عن محاولات التلحين ، ولم يعد يعنيه إلا ملازمة أم كلثوم كرئيس لفرقتها الموسيقية ، يتقاضى عن كل حفلة عشرين جنيها !! ولكن حتى رئاسته للفرقة لم تدم له . وبدا بعد ذلك العمر الطويل في رئاستها كأنه لم يعد قادرا على ضبط أدائها ، وقيادة آلاتها الموسيقية ، وأصابته بلبلة جعلته ينسى بعض أجزاء من اللوازم والجمل اللحنية والكلمات في هذه الأغنية أو تلك ، فترتبك الفرقة ، وترتبك أم كلثوم على مرأى ومسمع من جمهور حفلاتها .

ولم يكن بد ، في آخر الأمر ، من أن تعهد أم كلثوم بقيادة فرقتها إلى أعظم عازف القانون ، محمد عبده صالح ، الذي كان أشبه بالكومبيوتر في حفظ جميع الألحان الكلثومية . . .

وبعد تلك المحاولات الطويلة غير المجدية في العودة إلى التلحين ، ثم بعد عزله عن رئاسة الفرقة الموسيقية ، وتحوله إلى مجرد عازف في الفرقة ، وهو الملحن ذو التاريخ العريق ، واضطراره إلى قبول هذا الوضع غير اللائق لكيلا ينقطع عن مورد رزقه الوحيد . .

بعد هذه التحولات الأليمة في حياته ، استسلم محمد القصبجى لليأس ، ووجد فيه راحة من النضال العقيم من أجل العودة للتلحين ، وكان استسلامه لليأس هو الباب الذى دخل منه المرض إليه ، فى السنوات الأخيرة من حياته . فأصابته الذبحة الصدرية ، وقرحة الأمعاء ، والصداع الدائم الذى لا علاج له . وكان فى آخرياته لا يخرج من بيته خشية أن يصيبه الإغماء فى الطريق . ومع ذلك ، كان لا يتخلف عن حفلات أم كلثوم ، فيراه جمهورها جاثما بعوده إلى يسارها ، صامتا واجها ، لا يبدو على وجهه تعبير الألم ، ولا تعبير السرور ، كأنه لا يشعر بما يجرى حوله . .

ولم يعد له دور حقيقى فى الفرقة الموسيقية . فهو إذا شاء ، هز أوتار عوده متابعا أم كلثوم ، وإذا شاء ترك أوتار عوده صامته بلا حراك . وإذا شاء الحاليتين لا تعاتبه ولا تكلفه مالا طاقة له به ، حتى قالت له وقد ملأها الإشفاق عليه :

« اسمع يا « قصب » . . إنت تستريح فى بيتك وتهتم بصحتك ، وأنا أرسل إليك أجرك عن كل حفلة عامة أو خاصة ! . .

استاء القصبجى من هذه الدعوة الكلثومية إلى تقاعده ، وقال لها : بل أعمل معك إلى آخر يوم فى حياتى ! ! . .

وتركته أم كلثوم يحضر حفلاتها ، ويتخذ مكانه فى الصف الأول من « التخت » ، لأن أم كلثوم كانت تعتبره أبا لها . ولم تكن تسمح لنفسها بالخروج إلى السينما ، مثلا ، مع أحد سواه . فالناس إذا رأوها معا ، لا يتطرق الشك إلى أى أحد فى أخوتها . وكان ذلك شأنها حتى بعد زواج أم كلثوم فى أوائل الخمسينيات ، واستمر كذلك إلى آخر حياة القصبجى .

ومات القصبجى فى سنة ١٩٦٦ فى أعقاب عملية جراحية ، ولكن أعماله الفنية الكبيرة بقيت حية لم تمت .

من أشهر ألحان محمد القصبجي لصوت أم كلثوم :

أحمد رامى	إن يغيب عن مصر سعد (رثاء)	قصيدة
أحمد رامى	أيقظت فى عواطفى وخیالى	قصيدة
أحمد رامى	أخذت صوتك من روحى	قصيدة
أحمد رامى	الشك يحى الغرام	قصيدة
أحمد رامى	إن كنت أسامح وأنسى الأسى	مونولوج
أحمد رامى	انظرى هذه دموع الفرح جالت فى عيونى	مونولوج
أحمد رامى	أيها الفلك على وشك الرحيل	مونولوج
أحمد رامى	جفاك الحبيب	مونولوج
أحمد رامى	حيرة له يا دموعى	مونولوج
أحمد رامى	خاصمتنى وأنا حيران فى أنه الخصام	مونولوج
أحمد رامى	خلى الدموع دى لعينى	مونولوج
أحمد رامى	خیالك فى المنام حلمى	مونولوج
أحمد رامى	رق الحبيب وواعدنى يوم	مونولوج
أحمد رامى	زارنى طيفك فى منامى	مونولوج
أحمد رامى	سكت والدمع اتكلم	مونولوج
أحمد رامى	عينى فيها الدموع	مونولوج
أحمد رامى	فین العیون الى سابتنى	مونولوج
أحمد رامى	یا ریتنى كنت النسيم يداعب شعورك	مونولوج
أحمد رامى	یا ما ناديت من أسایا	مونولوج
أحمد رامى	أحب أقول الى فى بالى	مونولوج
أحمد رامى	البعد طال والله على	طقطوقة
أحمد رامى	بعدت عنك بخاطرى	طقطوقة
أحمد رامى	هايم فى بحر الخيال	مونولوج
أحمد رامى		مونولوج

أحمد رامى	إنت فاكرانى والا نسيانى	طقطوقة
حسين المانسترلى	بحبك وانت مش دارى	طقطوقة
أحمد رامى	تبعينى ليه كان ذنبى ليه	طقطوقة
أحمد رامى	تراعى غيرى وتتبسّم	طقطوقة
أحمد رامى	تشوف أمورى وتتحقّق	طقطوقة
أحمد رامى	حببت ولا بانّش على	طقطوقة
أحمد رامى	حرمت أقول بتحبينى	طقطوقة
أحمد رامى	صحیح خصامك والا هزار	طقطوقة
أحمد رامى	صدق وحبك مين يقول	طقطوقة
أحمد رامى	قال ليه حلف ما يكلمنیش (*)	طقطوقة
أحمد رامى	ليه تلاوعينى وانت نور عينى	طقطوقة
أحمد رامى	ما تروق دمك مين حيهمك	طقطوقة
أحمد رامى	متنا فى حبك يا نور العين	طقطوقة
أحمد رامى	مختار يا ناس فى دى الغرام	طقطوقة
أحمد رامى	ما دام تحب بتنكر ليه	طقطوقة
أحمد رامى	ولحد إمتى حنّدارى حبك	طقطوقة
أحمد رامى	يا فايّتنى وأنا روحى معاك	مونولوج
أحمد رامى	ياللى انت حبتنى وانت بعيد	مونولوج
أحمد رامى	ياللى جفاك المنام	طقطوقة
أحمد رامى	يا للى جفيت ارحم حالى	طقطوقة
أحمد رامى	ياللى شغلت البال	طقطوقة
أحمد رامى	ينوبك ليه من تعذيبى	مونولوج
أحمد رامى	يا عشرة الماضى الجميل يا ريت تعودى	مونولوج
أحمد رامى	يا غائبا عن عيونى وحاضرا فى خيالى	موال
أحمد رامى	الليل أهوه طال	طقطوقة

(*) مذهب الطقطوقة لمحمد يونس القاضى - والأغصان لأحمد رامى .

وشارك القصبي في ألحان أفلام أم كلثوم :

أحمد رامى
أحمد رامى
أحمد رامى

فيلم وداد : (١٩٣٥)
ياللى ودادى صفا لك
ليه يازمان كان هوايا
يا طير يا عايش أسير

أحمد رامى
أحمد رامى
أحمد رامى
أحمد رامى
أحمد رامى

فيلم نشيد الأمل :
(١٩٣٧)
منيت شبابى النعيم
يا بهجة العيد السعيد
يا مجد يا ما اشتيتك
ياللى صنعت الجميل
نامى يا ملاكى

أحمد رامى
أحمد رامى
أحمد رامى

فيلم دنائير : (١٩٣٩)
طاب النسيم العليل
الزهر فى الروض ابتسم
يا فؤادى غن ألحان الوفاء

فيلم عايدة : (١٩٤٢)

أحمد رامى
أحمد رامى
أحمد رامى
أحمد رامى
أحمد رامى

الفصل الأول من أوبرا عايدة
يا قلبى بكره السفر
عطف حبيبى وهنانى
يا قلبى بكره السفر
إحنا وحدنا (محاورة مع إبراهيم حمودة)

فيلم فاطمة : (١٩٤٨)

بيرم التونسى
بيرم التونسى
أحمد رامى

يا صباح الخير ياللى معانا
نورك يا ست الكل
ياللى انحرمت الحنان

والقصبجى هو المعلم - والأستاذ المعجب والمتيم بتلميذته . « أخذ بيد أم كلثوم إلى أن أوصلها إلى الشهرة والنجاح . وكان أيضا أستاذها في العزف على آلة العود .

زكريا أحمد وأم كلثوم :

في عام ١٩٢٠ . . وفي السنبلوين . . دعا التاجر « على أبو العينين » زكريا أحمد لإحياء ليلة رمضان - وخلال إقامته بالسنبلوين ، سمع عن جمال صوت الطفلة أم كلثوم . . فسعى للتعرف عليها . وبعد أن التقى بها واستمع إلى أحاديثها الذكية . . ثم إلى صوتها الذى كان له أثر كبير في نفسه قال :

« منذ ليلتها ، وأنا كالأصم لا أسمع إلا صوتها . . كالأبكم ، لا أتحدث إلا باسمها . . فقد أصبحت مفتونا بها . . أحببتها حب الفنان للحن خالد - تمنى العثور عليه دهرًا طويلًا . »

دعته أم كلثوم لزيارتها وأسرتها بقرية « طماى الزهايرة » ، وقبل زكريا الدعوة . . وعن هذه الزيارة روى :

« لبيت الدعوة . . وتناولت الطعام على طبلية . . وجلسنا حولها على كليم . . لا أزال أذكر لونه الأحمر على أسود . وابتلعنا إوزة كاملة . . ثم لعبنا عشرة كوتشينة . ومنذ هذا اليوم ، وأم كلثوم ووالدها وشقيقها خالد ، يحضرون كل يوم لسماح غنائى فى سراى أبى العينين » .

وكثيرا ما كان زكريا بخفة دمه يردد :

« أم كلثوم لها عندى وزه ، ولى عندها ١٠٠ و ٤٠ جنيه » . وهذا المبلغ كان محور القضية التى رفعها زكريا أحمد على أم كلثوم ، يطالب فيها بمستحققاته المالية والتى تقدر بهذا المبلغ .

وعندما عاد إلى القاهرة . . استمرت الصداقة بين الأستين ، وكثيرا ما تلقى خطابات

(*) مذهب الطقطوقة لمحمد يونس القاضى والأغصان لأحمد رامى .

من أم كلثوم . . علق عليها . . بأنها كانت تحمل عبارات ساذجة مكتوبة بالخبز الأخضر . . وكانت هذه الخطابات تذكره بالربيع والصوت الحسن .

كان زكريا أحمد ، قبل لقائه بصوت أم كلثوم ، غارقاً في لونين من ألوان التلحين :
- الأغاني الهابطة التي كانت منتشرة تلك الفترة ، والتي لحن منها « إرخی الستارة اللى فى ريحنا » التي اشتهرت بها منيرة المهدية ، والمسرحيات الغنائية .

ومنذ أن اختطف صوت أم كلثوم هذا الملحن الكبير ، وهما يعملان معا ويقدمان أجمل الألحان . . إلى آخر يوم فى حياة الملحن زكريا أحمد . ومن أشهر أعماله لصوت أم كلثوم :

« أهل الهوى » - « الأمل » - « حبيبى يسعد أوقاته » - « أنا فى انتظارك » . وآخر ألحانه « هو صحيح الهوى غلاب » .

عندما اشتركت أم كلثوم بالغناء ، فى فترة الاستراحة بين فصول روايات على الكسار . كانت تؤدى ألحان الشيخ أبو العلا ومقطوعات غنائية لحنها لها د . أحمد صبرى النجريدى ، ومحمد القصبجى .
يقول زكريا :

« كنت فى ذلك الوقت أقوم بتلحين روايات الكسار . . فدعتنى أم كلثوم إلى تلحين بعض أغانيها ، وذلك بمناسبة تسجيل عدة أسطوانات لها . وكان أول ما لحن لها طقطوقة « الى حبه يا هناء » (أحمد رامى) و « هو ده يخلص من الله » (بدیع خيرى) ، وكان ذلك عام ١٩٢٥ .

وهنا يطرح السؤال نفسه :

ما هو السر وراء اهتمام زكريا أحمد بصوت أم كلثوم ، وإصراره على الذهاب إليها فى طمأى الزهايره ، وهى الفتاة الصغيرة غير المعروفة ، والتي لم يتعرف أحد بعد على موهبتها الفنية ؟

الإجابة هى أن زكريا حينما استمع إلى صوت أم كلثوم . . أعجب به وتنبأ لصاحبه بمستقبل عظيم .

واستطاع زكريا أن يقنع أم كلثوم ووالدها أيضا بالسفر إلى القاهرة ، لكي تعرف الفنانة الصغيرة على الحياة الفنية في مصر ، ولتكون قريبة من منابع الفن والشهرة .
ولمدة شهور طويلة كان زكريا ينظم لها حفلات ، حتى يتعرف جمهور القاهرة على صوتها ، بداية من السيدة زينب والحسين والموسكى ، وبركة الرطل . . إلى غير ذلك من المواقع . كما رافقها في سفريات عديدة في مدن مصر . سافر زكريا معها إلى المحلة الكبرى وقلوب وطنطا وغيرها . . وكانت أم كلثوم تنشد القصائد والموشحات والمواويل .

بقى زكريا إلى جوار أم كلثوم ما يربو على الثلاثين عاما ، يرعى موهبتها وفنها . . وكان لها نعم الأخ والصديق والزميل ، وكان أول ما غنت له هو بعض الموشحات والقصائد التى غناها له من قبل الشيخ على محمود . . مثل موشحة « كتبت رحمة الناس عليك » .

وغنت أم كلثوم من ألحان زكريا أحمد :

« جمالك ربنا يزيده » - « ليه عزيز دمعى تذله » (لحسن صبحى) - « قالوا لى إمتى قلبك يطيب » (أحمد رامى) . « الليل يطول ويكيدنى » (حسين المانسترلى)
« لللى حبك يا هناء » (*) - « مالك يا قلبى حزين » (أحمد رامى) - « العزول فايق ورايق » (حسن صبحى) - « أكون سعيدا » (حسن صبحى) . « هو ده يخلص من الله » (بديع خيرى) - « يا قلبى كان مالك » - « ما كانش ظنى » - « إمتى الهوى ييجى

(*) جمع زكريا في هذه الطقطوقة عدة مقامات . . فالأغنية تبدأ وتنتهى بمقام واحد . وفيما بين البداية والنهاية ، تتعاقب المقامات بتعدد الأغصان . ويعتبر هذا جديدا على الطقطوقة التى كانت تسير على وتيرة واحدة في لحنها من أوله إلى نهايته . غنتها أم كلثوم عام ١٩٣١ ، وهى أول لقاء بين أم كلثوم وزكريا أحمد .

سوا» (يحيى محمد) - «يا لى تشكى من الهوى» (أحمد رامى) و«ابتسام الزهر»
(عمر عارف القاضى) - «مين اللى قال» (عبد الرحمن فياض). «آه يا سلام»
(حسن صبحى) - «عادت لىالى الهنا» «يا ما أمر الفراق» (لأحمد رامى).

ومن كلمات بيرم التونسي ولحن زكريا ، غنت أم كلثوم :

« كل الأحبة اثنين اثنين » - « آه من لقاءك فى أول يوم » - « حبيبى يسعد أوقاته » -
« اكتب لى من غير تأخير » - « إيه أسمى الحب ما أعرفش » - « البدر أهو نور » - « أنا
ليه أتجاسر وأعاتبك » - « أنا فى انتظارك » - « الأوله فى الغرام » - « فى أوان الورد ابتدا
حبى » - « أهل الهوى » - « يا قلبى ياما تميل بنظرة » - « الأمل » - « حبيب القلب
وافانى » .

هذا بالاضافة إلى أغانى أفلام أم كلثوم : وداد (١٩٣٥) - دنانير (١٩٣٩) -
عايده (١٩٤٢) - سلامة (١٩٤٤) - فاطمة (١٩٤٨) ، والنثى بلغ مجموعها ٩١
لحنا .

وجميع ألحان زكريا لأم كلثوم تعتبر إضافات جديدة فى الموسيقى العربية . أدخل
زكريا الجديد على الطقطوقة ، وحطم القيود التى جعلت من هذه الأغنية الرتبة
والملل . . فكانت تصاغ من نغمة واحدة . وجاء زكريا فصاغها صياغة جديدة . .
جدد الأوزان وجعل لكل مقطع . نغمة خاصة تختلف عن نغمات المقاطع الأخرى . .
وأضاف إلى هذه التجديدات فى التلحين أداء أم كلثوم . . بصوتها المتمكن الذى
استطاع أن يعبر عن روح الملحن وأسلوبه الجديد وتطويره للأغنيات .

وكما أدخل زكريا الجديد على الطقطوقة . . فإنه جدد أيضا فى تلحينه للقصيدة
المنظومة بالشعر العربى الفصيح - وبلغ القمة فى التجديد . فعندما لحن لأم كلثوم
قصيدة « قولى لطيفك ينثنى » فى فيلم (دنانير) ، فإنه لحنها من نغمات عديدة مختلفة .
جعل كل مقطع منها كلحن قائم بذاته مسير لتسلسل قصة الفيلم .

أيضا جدد زكريا في الغناء العربى ، حيث أدخل « القصة الملحنة » التى استمعنا إليها لأول مرة في ألحان « أهل الهوى » و « حبيب قلبى وافانى » و « الأمل » وغيرها . . كذلك في الألحان البدويه التى اتسمت بها كل ألحان زكريا لأم كلثوم في فيلم « سلامة » ، وكانت فتحا جديدا في عالم الغناء .

كذلك أدخل الجمل الكلامية التى تتخلل الأغنية . مثال ذلك أغنية « جولى ولا نخبيش يازين » في فيلم « سلامة » ، وفيه نسمع أم كلثوم وهى تغنى مقطعا من الأغنية في نغمة معينة وإيقاع معين . ثم نسمع زكريا نفسه يردد نفس المقطع بإلقاء خاص منسجم كل الانسجام مع النغمة والإيقاع .

وفي آخر حياة زكريا أحمد . . تم الصلح بين أم كلثوم وزكريا . وكان مقررا طبقا لاتفاق الصلح القضائى بين أم كلثوم والشيخ زكريا ، أن تغنى له ثلاثة ألحان في العام . . وقد أتم رحمه الله لحنين من هذه الألحان الثلاثة قبل وفاته . . وسعد جمهور أم كلثوم وزكريا بسماع أحد اللحنين وهو لحن « هو صحيح الهوى غلاب » . أما اللحن الآخر فقد صرحت أم كلثوم بأنها سمعته منه . . وأنها ستمتع به الناس عما قريب . ولم تخرج أم كلثوم بهذا اللحن حتى وفاتها .
يقول زكريا أحمد^(١) .

« إن المؤلفين الذين يكتبون لأم كلثوم يرون أن الفنانة العظيمة « لا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب » . والمملحنون الذين يلحنون للفنانة العبقريّة يعترفون بأنها غالبا مُتعبّة ، بضم الميم وكسر العين . . . وأم كلثوم في الواقع ينطبق عليها ما وصفها به المؤلفون والمملحنون ؛ فهى ذواقة للأدب ، ذواقة للفن ، متمكنة كل التمكن من نفسها ، ومن فنّها ، وهى عندما تختار أغانيها أو ألحان هذه الأغاني ، تكون كالصائغ الذى يستخدم دوّما أصدق المعايير للكشف عن الجواهر الكريمة النادرة . ولهذا فإن مثات

من القصائد والأزجال ، والطقاطيق ترسل إلى أم كلثوم فتقرأها بأهمية ، وتختار ما يلائمها ، وما يلائم الجمهور ، وما يلائم الزمن الحال والأزمان اللاحقة . وهي عندما تجلس إلى ملحن أغانيها أو يجلس إليها ، لا تكتفى بأن يقدم لها لحنا واحدا أو اثنين أو ثلاثة . . . وإنما هي تريد أكثر من ذلك . . . وقد تطلب من الملحن أن يلحن الكوبليه الواحد مرات متعددة ، وتظهر بعدم قبول هذه الألحان ، كما تظهر أيضا ، بعد أن تختار واحدا من الألحان المقدمة ، بنسيان ما قدم للأغنية الواحدة من ألحان . . . وتجدد في معظم الأغاني بألحان جديدة ، تبدو للمستمع الجديد أنها وليدة الساعة ، وإن كانت مخزونة في أعماق ذاكرتها من زمن بعيد .

وذات مرة قدمت لها أغنية بثمانية ألحان مختلفة ، وذلك لفتح فرصة الاختيار في الوقت المناسب أو في الأوقات المناسبة . إننى اعتبر أم كلثوم « أسطى » من خيرة « أسطوات » الفن ، وصائغة من أمهر صائغات الغناء ، فهى لا تختار إلا الجيد ، ولا تقدم إلا الجميل ، وهى أقدر الناس على تذوق الفن الجميل ، وعلى إمتاع الناس بالفن الجميل . ولهذا فقد خصصت لها أكثر من ستين لحنا ليس فيها لحنان يشبه أحدهما الآخر في أسلوب تلحينه . »

وقد كوّن زكريا أحمد ويبرم التونسي ثنائيا فنيا . . . وجاءت أغلب ألحان زكريا لأم كلثوم من نظم يبرم التونسي . وعن هذا الترابط بين الملحن والزجال ، قال كمال النجمى في مجلة فن (مايو ١٩٩١) :

« ارتبط اسم زكريا ويبرم منذ بدأت أم كلثوم تغنى لهما في الأربعينيات . وظل الاسمان جنبا إلى جنب في عالم الغناء منذ ذلك الوقت حتى وقتنا هذا . وكان زكريا في تلحينه لكلام يبرم يجمع شيئين يتناقضان عند بعض الملحنين من ذوى المواهب المحدودة والخبرة القليلة . ولكنهما لا يتناقضان عند الشيخ زكريا أحمد وأمثاله من الموهوبين . . . هذان الأمران هما :

١ - الابتكار في تصوير المعانى بصورة غير مسبقة في رفته وحلاوته ، وليس له شبيه في

الغناء المصرى العربى المتقن المعاصر كله . فهو متفرد بطريقته ونسيجه وحده . .
 ٢ - الوقوف عند الأصول الفنية الصحيحة . كأنه شاعر قديم يقف على أطلال أحبابه
 لا يسأم ولا يمل .

ومن تأليفه وتوقيفه بين هذين الأمرين ، جاء الشيخ زكريا بهذا الفن الممتع الذى
 صار جزءا مميزا من تراث الغناء العربى .

وأدت أم كلثوم ألحان زكريا أحمد منذ بداية حياتها الفنية . فمن أول كلمات غنتها أم
 كلثوم فى القاهرة ، الأنشودة الدينية « مولاي كتبت رحمة الناس عليك » ، وهى من
 ألحان زكريا أحمد . ولم يكن زكريا قد لحنها لصوت أم كلثوم . . وإنما حفظتها أم
 كلثوم من الشيخ على محمود . . وبعد ذلك لم تغن أم كلثوم من ألحان زكريا إلا فى عام
 ١٩٣١ .»

والسؤال يظل قائما :

لماذا تأخر غناء أم كلثوم لألحان زكريا أحمد ؟

والإجابة هى :

كان زكريا ، قبل هذا التاريخ ، يلحن لأصوات منيرة المهدية ، ونعيمة المصرية ،
 ونرجس شوقى ، وزكى مراد ، وحامد مرسى ، وعبد اللطيف البنا ، وعديله المنصورية ،
 وسمحة البغدادية ، ورتيبه أحمد ، وغيرهم . . وقد لحن خلال هذه الفترة أشهر
 الطقاطيق « إرعى الستارة الى فى ريحنا » وغيرها . . . وفى المرحلة التى كان زكريا
 يلحن هذه الطقطوقة ، وأمثالها . . كانت أم كلثوم تغنى ألحان الشيخ أبو العلا محمد ،
 رغم أنه لم يلحن لها أى أغنية خصيصا ، إلا أنها كانت تحفظ ما تسمعه من أغنياته .
 وإليها يرجع الفضل فى حفظ تراثه طوال هذه المدة .

وردا على التساؤل لماذا تأخر زكريا أحمد فى تلحين أغانى لأم كلثوم ، يجيب كمال
 النجمى (مجلة فن - إبريل ١٩٩١) :

« إن المرحوم صبرى أبو المجد لم يجب عن هذا السؤال فى كتابه عن زكريا أحمد .

ولكن المعلومات الغزيرة في كتاب صبرى أبو المجد، يمكن أن تهدينا إلى إجابة عن هذا السؤال . « لقد كان زكريا أحمد غارقا حتى أذنيه في التلحين للمسرح الغنائى من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٣٠ . ففى سبتمبر عام ١٩٢٣ توفي سيد درويش الذى كان «يحتكر التلحين للمسرح الغنائى تقريبا ، وبحث أصحاب المسارح عن ملحن يخلفه ، فلم يجدوا خيرا من صديقه زكريا أحمد . وانهمك زكريا من فوره فى التلحين لمسارح القاهرة . . فلم تمض أشهر قلائل ، حتى كان قد ملأ المكان الذى كان يشغله سيد درويش من قبل .

وكان إنتاج زكريا للمسرح الغنائى وللغناء الفردى ، إنتاجا وفيرا يستغرق الجهد والوقت . فقد لحن بين عام ١٩٢٤ ، ١٩٣٠ أكثر من ٤٦ مسرحية ، آخرها مسرحية «عين البشائر» لمسرح صالح عبد الحى . وتفوق زكريا فى عدد ما لحنه من مسرحيات على صديقه الراحل سيد درويش . ففى ست سنوات (بين عام ١٩١٧ - ١٩٢٣) لحن سيد درويش ٢٨ مسرحية . . أى أكثر قليلا من نصف ما لحنه زكريا فى ست سنوات من (١٩٢٤ - ١٩٣٠) .

وفى تلك السنوات الست ، لحن زكريا لنفسه وللمنشددين الدينيين والمطربين والمطربات أكثر من سبعةائة توشيح وقصيدة وطقطوقة ودور وديالوج ، ولا ندرى كيف استطاع جهده أن يتسع لكل هذا الفيض من الإنتاج . وكانت سنة ١٩٣٠ آخر سنوات هذا الجهد الكبير . ولم يعد زكريا بعد ذلك إلى التلحين للمسرح إلا قليلا فى سنوات متفرقة . . لأن السينما كانت قد بدأت تجتذب الجمهور . . فأفقرت المسارح ، ثم أغلقت أبوابها . وكان نجما الغناء الجديدان - أم كلثوم وعبد الوهاب - قد اجتذبا جمهور الغناء بعيدا عن منيرة المهدية ، ونعيمة المصرية ، وعبد اللطيف البنا ، وحامد مرسى وأمثالهم . وبلورت ثورة الغناء العربى المتقن أذواق الجماهير وصقلتها ، وفتحت لها أبواب عالم جديد من الغناء . ولهذا طرق زكريا أبواب أم كلثوم ، وانضم إلى زميليه محمد القصبجى وداود حسنى فى التلحين لها . «

وكتاب صبرى أبو المجد ، لايين لنا ملابسات هذا التطور الجديد فى الحياة الفنية
لذكرى أحمد ، ولا يجيب لنا عن السؤال الذى يخطر على البال : هل دعت أم كلثوم
ذكرى أحمد إلى التلحين لها ، أم أنه هو الذى عرض عليها أن يمدّها بالحنان ؟

يبدو لنا أن أم كلثوم كانت هى الداعية لذكرى أن يمدّها بالألحان ، لأنها وجدت
نفسها تستند إلى ملحن وحيد هو محمد القصبجى . أما داود حسنى الذى كان قد بدأ
يلحن لها منذ سنة ١٩٣٠ ، فلم يكن نشاطه فى هذا المجال يتعدى الأدوار التقليدية .
ولم يكد ذكرى يدخل فى بلاط كوكب الشرق أم كلثوم حتى خرج منه داود حسنى ،
لأن ذكرى كان ملحن أدوار أيضا ، فضلا عن كونه ملحن طقاطيق . وقد أثبت فى
المجالين أنه مجدد متقن لا يشق له غبار . إلا أن السبب الحقيقى لابتعاد داود حسنى
عن بلاط أم كلثوم لم يكن ذكرى ، بل كان إحجام داود حسنى عن مجارة التطور
العاصف الذى تريده أم كلثوم ، لكى تنافس التطور الذى لا ينقطع فى أغانى
عبد الوهاب حينذاك .

وحدث أن اختلف ذكرى مع أم كلثوم حول الأجر الذى يتقاضاه على اللحن . .
هو يريد زيادة الأجر . . وأم كلثوم ترفض الزيادة .
يقول كمال النجمى :

« كان ذكرى يرى أن أم كلثوم تأخذ منه اللحن رخيصة ، وتكسب من ورائه كثيرا
. . وكانت أم كلثوم ترى أنها تدفع الأجر المناسب لقانون العرض والطلب فى سوق
الألحان . ولم تكن أم كلثوم معروفة على أية حال بالتساهل فى الشئون المالية . لقد
كابدت الشقاء منذ كانت فى الثامنة من عمرها ، لتكسب القرش ونصف الريال
والجنين ، فكان للمال عندها منزلة عظيمة ، أما ذكرى فكان ينفق ما يكسبه ولا يبالي ما
تأتى به الأيام . فكان هو وأم كلثوم على طرفى النقيض ! »

ومن هنا بدأت المشكلة والخلاف بينهما . فرفع ذكرى ضد أم كلثوم قضيته المشهورة

عام ١٩٤٨ ، يطالب فيها بتعويضات وحقوق تبلغ عشرات الألوف من الجنيهات .
 لم يكن زكريا أحمد يعترف بكلمة « مستحيل » . . كان دائم التفاؤل ، تجد الحلول
 دائما لديه . . يقف أمام الصعاب . . يبسطها ويجد لها الحل . .

وعن أغانيه لأم كلثوم يروى زكريا :

« عرض على أحمد رامى كلمات أغنية « بكره السفر » كى ألحنها . . وقال إنه كان
 قد أعطى هذه الكلمات لمحمد عبد الوهاب الذى رأى أن هذه الكلمات لا تلحن . .
 أخذت الكلمات ، وفى أيام قليلة عدت بلحن الأغنية إلى أم كلثوم وأحمد رامى . .
 وسجلتها أم كلثوم وظهرت فى فيلم دنانير . . وجاءت من أنجح ألحان فى الفيلم . .
 وكان من أول المهنتين عبد الوهاب شخصا .

ومن ذكريات زكريا أحمد أيضا :

« عندما جاء عبد العزيز آل سعود إلى القاهرة ، طُلب من أم كلثوم أن تغنى فى
 عابدين . وكتب لها أحمد رامى قصيدة تحلى الملحنون عن تلحينها ، لضيق الوقت .
 وجاءت أم كلثوم تسألنى رأى وإمكانية تلحين القصيدة .

لم أخذل أم كلثوم ، فلحنت لها القصيدة فى خمس ساعات ، وحفظتها للتخت فى
 ثلاث ساعات ، وغنتها أم كلثوم فى الليل بقصر عابدين . وكان من أثر ما بذلت من
 جهد شديد أن أصبت بالفالج » .

« ومرة أخرى جاءنى الأستاذ رامى ليقول لى إن أم كلثوم تريد أن تغنى قصيدة فى
 دار الأوبرا مطلعها :

بين ذل الهوى وعزة نفسى ضاع قلبى فما عرفت التأسى

وكننت قد قلت لأم كلثوم إن تلحين هذه القصيدة مستعص . ولكنها صممت ،
 ورفض الملحنون كلهم إن يلحنوها . ومع هذا فقد عز على أن أخذلها . ولحنت القصيدة
 وأنا فى فراش المرض ، وغنتها أم كلثوم فى الأوبرا . وعندما قرأت « بروجرام » الحفلة

وجدتهم قد نسبوا خطأ تلحين الأغنية إلى غيرى . »

وأخر أغاني زكريا أحمد لأم كلثوم كانت « هو صحيح الهوى غلاب » . لم يذهب زكريا إلى المسرح لمشاركة الجمهور مولد لحنه . . وإنما ذهب إلى درب المسمط . . وفيه استمع إلى أغنيته الجديدة . وجاء في رواية كمال الجويلي (١) :

استمع زكريا أحمد إلى أغنيته الجديدة التى لحنها لأم كلثوم ، وهو في فرح كان في درب المسمط . . لنبوية قطة بنت صديق عمره عبد العزيز قطة ، أشهر كاتب دويبا في بلادنا .

قبل أن تغنى أم كلثوم في حفلتها ، غنى زكريا أحمد في الفرح « ليلتنا نادية » و« صلاة الزين على العروسين » .

وبعد أن غنى زكريا أحمد ، انتهى الفرح ، وخرج المدعوون ، وبقي زكريا أحمد والعريس والعروس . . كانت الساعة ١٢ . . وكان معنى ذلك أن الوصلة الأولى لأم كلثوم قد انتهت . لم يهتم أحد في الفرح بسماعها . كانوا مشغولين عن سماعها بفرحهم . وكانوا قد عرفوا كلهم أن الأغنية قديمة . « هجرتك يمكن أنسى هواك » . وجاء موعد الأغنية الثانية . كانت « حب إيه الى انت جاي تقول عليه » كانت أول أغنية يلحنها بليغ حمدى لأم كلثوم ، وبدأ الشيخ زكريا يهتم . كان يضع الكوفية التقليدية حول رقبته . . وفي عنقه بيون بنى أنيق . وكان يجلس على « كنبه إستمبولى » . . . كان زكريا يسمع بكل حواسه .

وفي الواحدة ، انتهت الوصلة الثانية ، وسمع زكريا أحمد آخر نشرة للأخبار . وبدأ زكريا يقلق . . أصابع يديه تتحرك . . يمسك بعلبة الكبريت ليشعل أعوادها واحدا وراء الآخر دون مناسبة . ولا سيجارة واحدة عرفت طريقها إلى شفثيه في لحظة الانتظار وجاء صوت المذيع يعلن الأغنية الثالثة . . من كلمات بيرم وتلحين زكريا أحمد . . بدأ لحن زكريا ينساب في سكون الليل . . ورأيت زكريا أحمد سعيدا . . كانت ترتسم

على وجهه ابتسامات متواضعة . . بلا غرور . . وتتحمس الجماهير . . وتتحمس أم كلثوم . . وتعيد مرة ومرة . . « إزاي يا ترى . . أهو ده اللى جرى . . ما اعرفش أنا » .
وفى هذه اللحظة تتغير الصورة . . قام العريس والعروس من الكوشة . . وقام زكريا أحمد فى هدوء وفى خجل من فوق الكنية . . وذهب إلى الكوشة . . جلس عليها . .
كان كأنه يمشى وهو نائم . . وأصبح العريس والعروس والأهل مدعويين . . والشيخ زكريا هو العريس .

وتنتهى حفلة أم كلثوم . . وتضج الجماهير بالتصفيق . . ويقوم العريس والعروس ليهنئا زكريا أحمد . . وينزل الشيخ زكريا من الكوشة . . ويخرج ليشق طريقه خارج درب المسمط . . الذى شهد فرحين » .

وبهذه الأغنية ، اختتم زكريا ألحانه لصوت أم كلثوم .

من أشهر ألحان زكريا أحمد التى أنشدتها أم كلثوم :

طقطوقة	الى حبك يا هناء	أحمد رامى
(وهو أول لقاء بين أم كلثوم وزكريا عام ١٩٣١)		

طقطوقة	غضب عني	حسين حلمى المانسترلي
طقطوقة	جمالك ربنا يزيده	حسن صبحى
طقطوقة	قالولى إمتى قلبك يطيب	أحمد رامى
دور	هو ده يخلص من الله	بدیع خيرى
دور	يا قلبى كان مالك	يحيى محمد
مونولوج	يا ما أمر الفراق	أحمد رامى
طقطوقة	أكون سعيد	حسن صبحى
طقطوقة	العزول فايق ورايق	حسن صبحى

أحمد رامى	موال	فين يالىالى الهنا
أحمد رامى	طقطوقة	مالك يا قلبى حزين اليوم
عباس بن الأحنف	دور	يا لى تشكى م الهوى
أحمد رامى (من فيلم وداد)	موشح	با بعيد الدار
محمود بيرم التونسى	أغنية	الشرفة
الشرىف الرضى (من فيلم وداد)	أغنية	إيه أسمى الحب
يحيى محمد	قصيدة	أيا الرايح المجد
أحمد رامى (من فيلم وداد)	دور	ما كانش ظنى
عمر عارف القاضى	قصيدة	يا بشير الأنس غنى
يحيى محمد	دور	ابتسام الزهر
أحمد رامى	دور	إمتى الهوى
عبد الرحمن فياض	مونولوج	شجانى نوحى
حسن صبحى	دور	مين اللى قال إن القمر
أحمد رامى	دور	آه يا سلام
أحمد رامى	طقطوقة	ناسيه ودادى
أحمد رامى	دور	عادت لىالى الهنا
أحمد رامى (من فيلم دنانير)	أغنية	بكره السفر
أحمد رامى (من فيلم دنانير)	قصيدة	القصر المهجور
أحمد رامى	أغنية	أنا كنت أحب الشكوى إليك
أحمد رامى	أغنية	ورد يالى الندى
محمود بيرم التونسى	أغنية	أنا وانت
أحمد رامى (من فيلم عايدة)	أغنية	القطن
أحمد رامى (من فيلم عايدة)	أغنية	فضل لى إيه يا زمان
أحمد رامى	أغنية	الورد فتح والياسمين
محمود بيرم التونسى	أغنية	كل الأحبة اثنين اثنين

أغنية	يا فرحة الأحباب	أحمد رامى (من فيلم عايدة)
أغنية	اكتب لى كثير	محمود بيرم التونسى
أغنية	بين ذل الهوى	أحمد رامى
أغنية	أنا فى انتظارك	محمود بيرم التونسى
أغنية	الآهات	محمود بيرم التونسى
أغنية	حبيبي يسعد أوقاته	محمود بيرم التونسى
أغنية	الأولة فى الغرام	محمود بيرم التونسى
أغنية	أهل الهوى	محمود بيرم التونسى
موال	برضاك يا خالقي	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلامة)
مونولوج	سلام الله	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلامة)
أغنية	عيني يا عيني	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلامة)
طقطوقة	غنى لى شوى شوى	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلامة)
أغنية	فى نور حياك الهنا	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلامة)
طقطوقة	قوللى ولا تخبيش يا زين	محمود بيرم التونسى (من فيلم سلامة)
قصيدة	قولى لطيفك ينشئ	العاصى عبد الوهاب (من فيلم دنانير)
قصيدة	زهر الربيع	محمد الأسمر
أغنية	الأمل	محمود بيرم التونسى
أغنية	جمال الدنيا	أحمد رامى (من فيلم فاطمة)
أغنية	حلم	محمود بيرم التونسى
أغنية	نصرة قوية	محمود بيرم التونسى (من فيلم فاطمة)
أغنية	لغة الزهور	محمود بيرم التونسى (من فيلم فاطمة)
طقطوقة	ليه عزيز دمعى تذله	حسن صبحى
أغنية	هو صحيح الهوى غلاب	محمود بيرم التونسى
		(آخر أعمال زكريا لأم كلثوم)

اللقاء بين أم كلثوم والسنباطى :

غنت ألحان رياض السنباطى أصوات متعددة . أما الصوت الذى أعطى هذه الألحان بريقا ذهبيا وقيمة فنية كبيرة كان ، بغير شك ، صوت أم كلثوم .

فى لقاء مع إحدى الصحف ، روى رياض لقاءه الثانى مع أم كلثوم (*) فقال :

« كنت أقيم فى شقة لوحدى . وطلبت تليفون كى يسهل لى أعمالى واتصالاتى . وفى اليوم الأول الذى دخل فيه التليفون إلى الشقة ، سمعت أغنية لأم كلثوم من الراديو . فتذكرت تعارفنا فى محطة الدلتا . وكنت قد عرفت رقم تليفونها من الإذاعة . فاتصلت بها . وعندما ذكرت لها اسمى ، تذكرت بأن والدها الشيخ إبراهيم ، كان يغنى مع والدى فى الأفراح . ودار بيننا حديث قصير ، قالت لى فى نهايته :

- ابقى خيلنا نشوفك يا أستاذ رياض ، ما دام انت فى مصر وأنا فى مصر . وانتهت المكالمة .

وفى حديث صحفى آخر قال رياض :

« بعد سبعة عشر عاما من لقائنا الأول فى « درين » ، التقيت بالفتاة أم كلثوم مرة أخرى . كان صيتها ملاً الآفاق فى القاهرة . حين بدأت عملى كمدرس للعود بمعهد الموسيقى ، وكنت أتابع ألحانها . . وأحسد الذين يلحنون لها . وكانت تتحرك فى أعماقى ملكة التلحين ، تعبيرا عن عواطف جياشه يعيشتها الشباب فى مثل سنى .

كنت قد تقدمت بإنتاجى لشركة « أوديون » فعهدت لى بمطربين ومطربات جدد . وكنت على موعد مع القدر ، لأن الفنانة أم كلثوم استمعت إلى بعض هذه الألحان . . فطلبت أن ألحن لها .

وهكذا بدأت أصنع صفحات عمرى . . تعاونت مع مطربة العرب الأولى على مدى أربعين عاما . . . »

(*) كان اللقاء الأول فى طفولتهما ، عندما التقيا فى محطة قطار الدلتا فى قرية درين . وكانا عائدتين من إحياء ليالى الأفراح . فأم كلثوم كانت تصاحب والدها فى حفلاته ، كذلك رياض الذى كان معروفا بلقب بلبل المنصورة ، يجيى ليالى الملاح والأفراح بصحبة والده

وكانت بداية اللقاء الفنى عام ١٩٣٦ حين لحن لها رياض « النوم يداعب عيون حبيى » (أحمد رامى)

أعجبت أم كلثوم بهذا اللحن ، وقدمته فى حفلها الشهرى (الخميس الأول من شهر أكتوبر عام ١٩٣٧ ، على مسرح قاعة إيوارت التذكارية (الجامعة الأمريكية بالقاهرة) . وقفت أم كلثوم وفرقتها لتقدم ملحنها الجديد فى مونولوج « النوم يداعب عيون حبيى » ، وكان الحفل مذاعا . ويعتبر هذا اللحن تحولا فى حياة أم كلثوم ورياض السنباطى معا .

وبعد نجاح هذه الأغنية ، تمسكت أم كلثوم بهذا الملحن القدير . وانضم رياض السنباطى للملحنى أم كلثوم : القصبجى وزكريا . وكوّنوا معا « الفرسان الثلاثة » .

وظل رياض يمد أم كلثوم بألحانه وروائعه . . حيث وجد رياض فى صوت أم كلثوم ضالته المنشودة . فبقدراتها الصوتية غير المحدودة ، وبإعجازها . . غنت ألحانه فأطربت وأبدعت . قدم رياض السنباطى ألحانه لأم كلثوم فترة تقترب من الأربعين عاما ، تخللها خصام دام حوالى سنتين . . لم نغن أم كلثوم خلالها سوى « حب إيه » التى لحنها بليغ حمدى و « هوصحيح الهوى غلاب » لزكريا أحمد .

وفى عام ١٩٣٥ ، اشترك رياض السنباطى بألحانه فى فيلم (وداد) ، حيث قدم ألحان المجموعات ، وبعض المقطوعات الموسيقية ، وطقطوقة « على بلد المحبوب » لصوت المطرب عبده السروجى . ولما نالت هذه الأغنية نجاحا كبيرا ، وشهرة واسعة ، طلبت أم كلثوم تسجيلها على أسطوانة بعد استئذان صاحبها .

ومن الملاحظ فى ألحان رياض السنباطى الأولى لأم كلثوم ، أنه كان شديد التأثر بأسلوب محمد القصبجى . . ناسجا على منواله ، ثم بدأت شخصيته الفنية تستقل ، وجاءت ألحانه بطريقته الخاصة المميزة .

ولا شك أن غناء أم كلثوم لألحان السنباطى ساعدت على شهرته ، كما فتحت له

أبوابا يظهر فيها إمكاناته الفنية في التلحين . فأم كلثوم غنت له الأشكال المتنوعة من الأغاني ، منها التقليدي ومنها المعاصر .

ومن أشهر القوالب الغنائية التي اشتهر السنباطى بتلحينها لصوت أم كلثوم :
القصائد . ففيها استطاع أن ينفرد بأسلوب مميز متطور .

خص رياض السنباطى حبه وفنه للقصيدة . . قال : « الشعر أرقى أنواع الأدب فيجب والحالة هكذا أن تكرر له أرقى أنواع التلحين ، لأنه الوسيلة الوحيدة للارتفاع بالمستوى الثقافى والفنى للجماهير . وهذا لن يتم إلا عن طريق أقرب وسيلة للتعبير عند الجماهير - الغناء الذى يعتبر الصق الفنون وأقربها إلى نفوس الجماهير » .

ومن أشهر ما لحن رياض من قصائد لصوت أم كلثوم :

عيد الدهر	أحمد شوقى	(غنتها بمناسبة تولي الملك فاروق سلطته الدستورية عام ١٩٣٦) .
أتعجل العمر	أحمد شوقى	
قالوا أحب القس سلامة	أحمد باكثير	(من فيلم سلامه)
كيف مرت على هواك القلوب	أحمد رامى	
أصون كرامتى	أحمد رامى	(من فيلم فاطمة)
نهج البردة	أحمد شوقى	
سلوا قلبى	أحمد شوقى	
سلوا كئوس الطلا	أحمد شوقى	
السودان	أحمد شوقى	
ولد الهدى	أحمد شوقى	
النيل	أحمد شوقى	
رباعيات الخيام	أحمد رامى	
مصر تتحدث عن نفسها	حافظ ابراهيم	(مترجمة عن اللغة الفارسية)
أغار من نسمة الجنوب	أحمد رامى	
بأبى وروحي	أحمد شوقى	

عرفت الهوى	طاهر أبو فاشا	(رابعة العدوية)
يا صحبة الراح	طاهر أبو فاشا	(رابعة العدوية)
الفجر الجديد	محمد الماحي	
قصة الأمس	أحمد فتحي	
قصة السد	عزيز أباطة	
ثورة الشك	الأمير عبد الله الفيصل	
توبة	عبد الفتاح مصطفى	
أرض الحدود	أحمد العدواني	(الكويت)
إلى عرفات	أحمد شوقي	
يا ربا الفيحاء	محمود حسن إسماعيل	
الأطلال	دكتور إبراهيم ناجي	
حديث الروح	محمد إقبال	
أقبل الليل	أحمد رامى	
من أجل عينيك	الأمير عبد الله الفيصل	
الثلاثية المقدسة	صالح جودت	
مصر	دكتور إبراهيم ناجي	

تأثر رياض السنباطى فى بداية تلحينه للقصيد بالمدسة التقليدية الكلاسيكية ،
كما تأثر بأسلوب الشيخ زكريا أحمد . وأخذ رياض عن عبد الوهاب الطريقة الحديثة
التي أدخلها على المقدمة الموسيقية . حيث استبدل بالمقدمة القصيرة مقدمة أخرى
طويلة .

ومن القصائد التقليدية التي لحنها رياض السنباطى لأم كلثوم قصيدة « أراك

عصى الدمع (*)» (لأبى فراس الحمدانى) وأضاف عليها الأبيات التالية :

وفيت وفى بعض الوفاء مذلة لفاتنة فى الحى شيمتها الغدر
تسائلنى من أنت وهى عليمه وهل لشج مثل على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى قتيلك قالت أيهم فهم كثير
ثم اتجه السنباطى فى تلحينه للقصيدية إلى أسلوب وسط بين القديم والحديث ،
فظهر له عدد من القصائد لشعراء معاصرين من أمثال « اذكرينى » (أحمد رامى) ،
غنتها أم كلثوم (٥ يناير ولم تسجل على أسطوانة) :

اذكرينى كلما الفجر بدا ناشرا فى الأفق أعلام الضياء
يبعث الأطياف فى أوكارها فتحييه بترديد الغناء

ثم أوجد رياض بعد تجارب عديدة قالبا جديدا للقصيدية الحديثة . ومن أولى
تجاربه قصيدة « سلوا قلبى » (أحمد شوقى) (١٩٤٦) « وأغار من نسمة الجنوب »
(أحد رامى) ١٩٥٤ .

غنت أم كلثوم قصيدة « سلوا قلبى » بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بعام واحد .
اختارت منها عشرين بيتا من قصيدة المولد النبوى من ديوان أحمد شوقى .
واختار رياض مقام الراست لتلحين القصيدة . وكانت أم كلثوم كلما غنت هذه
القصيدة . . وجاء هذا البيت :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

يشب المستمعون من مقاعدهم يصفقون بحماس شديد . . فأم كلثوم كانت تضيف
إلى معنى الكلمات الحماس والوطنية . غنت أم كلثوم هذه القصيدة عشرات المرات . .
وفى كل مرة يتفاعل الجمهور مع كلمات القصيدة . وفى مايو من عام ١٩٦٧ عندما

(*) لحن هذه القصيدة عبده الحامولى فى مقام البياتى وغنتها أم كلثوم عام ١٩٢٦ ، ومسجلة على
أسطوانات أوديون . ثم أعاد زكريا أحمد تلحينها من مقام السيكاك وغنتها أم كلثوم عام ١٩٤٤
ولم تسجل . ثم لحنها رياض من مقام الكرد وغنتها أم كلثوم فى ٣ ديسمبر عام ١٩٦٤ وسجلتها
على أسطوانة صوت القاهرة .

كانت مصر تستعد للاشتباك في حرب ٥ يونيو ، قدمت أم كلثوم هذه القصيدة في حفلها الشهري ، وقوبلت بنفس الحماس الذى كانت تقابل به في الأعوام السابقة ، إلا أن أم كلثوم لم تكن موفقة في أدائها . وذلك بسبب مرضها ، ونقص منطقة صوتها بسبب السن . ففى عام ١٩٤٦ ، عندما غنت القصيدة لأول مرة ، كانت في مجدها الصوتى . . فصوتها كان يحتوى على ستة عشر مقاما ، بينما في عام ١٩٦٧ نقص صوتها أربعة مقامات من مساحته ويظهر ذلك جليا إذا ما استمعنا إلى تسجيل القصيدة في المرتين . . (في الأربعينيات والستينيات) .

أحست أم كلثوم وهى تؤدى قصيدة « سلوا قلبى » في حفل ١٩٦٧ أن صوتها لم يبلغ الجواب الذى كانت تبلغه قبل عشرين عاما . . وارتبكت . . وأوشكت أن تقع في الخطأ . خانتها أنفاسها ومقامات صوتها في الكلمة الأخيرة من حيث البيت « كتابا » .

ومنذ هذا اليوم ، وأم كلثوم بدأت تدرك أنه لابد من مراجعة ما يناسب صوتها في الغناء . ومن روائع أحمد شوقى غنت أم كلثوم من الحان السنباطى « ولد الهدى » .

روى السنباطى موقفا مشرفا لأم كلثوم ، فقال :

« وقفنا بمسرح معهد الموسيقى العربية قبل الثورة . . كنا نسجل قصيدة « ولد الهدى » لأحمد شوقى في مدح الرسول . وأثناء التسجيل فوجئنا بشخصية هامة تصعد إلى المسرح وتطلب التحدث إلى أم كلثوم . توقف التسجيل برهة . وبعد دقائق ، لاحظت انفعال أم كلثوم وغضبها . فحاولت أن أتبين الأمر . فعرفت أن القادم موفد من القصر الملكى . . جاء يطلب حذف البيت الذى يتحدث عن الاشتراكية في قصيدة شوقى .

قلت لأم كلثوم : لماذا يتدخل القصر في عملنا الفنى بهذه الصورة ؟ إن هذا البيت يا ست في تصورى كملحن ، أهم بيت في القصيدة . وهنا أعلنت أم كلثوم تمسكها

بالبيت ، وتحديها لمطالب القصر . بل هددت بإلغاء التسجيل في حالة إذا ما أصر القصر على التدخل . توقف التسجيل حوالى ساعة . . أجرت أم كلثوم خلالها اتصالاتها بالقصر ، وأعلنت إصرارها على غناء البيت . فما كان من القصر إلا أن رضخ لرأى أم كلثوم . . وأعيد التسجيل كما هو دون حذف . «

وفى عام ١٩٥٥ ، وبعد أداء أم كلثوم لرائعة السنباطى « ذكريات » ، نشب خلاف بين أم كلثوم ورياض . . وأعطى رياض عامدا متعمدا شهر زاد لحنه الكبير « يا ناسينى » ، نظم «أمون الشناوى» . وشارك رياض السنباطى بالعزف على العود فى تسجيل هذه الأغنية .

أدت شهر زاد هذه الأغنية فى عيد « شم النسيم » فى هذا العام نفسه . وكان الحفل مذاعا على الهواء من الإذاعة المصرية . ونجح اللحن ، واستعاده الجمهور عدة مرات . وكان اللحن جميلا والأداء بديعا . .

استمعت أم كلثوم إلى الراديو . . وبعد انتهاء الأغنية ، أمسكت التليفون واتصلت برياض السنباطى . . وسألته دون مقدمات :

- عملت الأغنية دى لمتى ؟؟

أجاب رياض :

- الشهر ده . .

- ومن لمتى بتعزف عود فى مقدمة أغانيك ؟؟ انت عمرك ما عملتها معايا ؟

فأجاب :

- اللحن عاوز كده !!

وبعد هذه المحادثة التليفونية ، عادت المياه إلى مجاريها . . وفهمت أم كلثوم أنها فقدت الكثير بابتعادها عن ألحان رياض . وكان السنباطى يهدف من وراء هذا اللحن ، أن يلقن أم كلثوم درسا . . وأن يفهمها أنه يستطيع أن يعمل مع أصوات غيرها .

ويتضح من المحادثة التلفونية التي دارت بينهما أن رياض استطاع أن يدخل في قلب أم كلثوم الغيرة والحرص على ألا يؤدي الحان رياض غيرها .

روى رياض السنباطى فى حديثه لتلفزيون الكويت أسباب الخصام الذى وقع فى الفترة بين عامى ١٩٦٠ - ١٩٦١ بينهما ، وأنه كان بسبب تدقيقه فى كلمات الأغنية التى يكلف بتلحينها . ومن طبع أم كلثوم التدخل فى صياغة اللحن والكلمات . وأشاد فى حديثه بثقافتها العالية ، وذوقها الفنى الرفيع فى اختيار الكلمة . وقال إنه فى بعض الأحيان يقبل التعديل ، وفى أحيان أخرى لا يقبلها .

وفى حديث آخر أدلى به رياض السنباطى بعد وفاة أم كلثوم ، قال :

« . . لم تحدث بينى وبين أم كلثوم أية خلافات فنية . وإنما كانت خلافات على المادة . ففى بعض الأحيان كنت أطلب منها أن تزيد لى ثمن اللحن ، الذى ألحنه لها . وعندما تجيب على هذا الطلب بالرفض . . يقوم الخلاف بيننا . وفى بعض الأحيان يكون الخلاف حادا ، فأتركها لفترة قصيرة ، ثم نعود للعمل معا من جديد . ولكن فى إحدى المرات ، استمر الخلاف بيننا مدة عامين كاملين . ولم تغن لى أى لحن فى موسمين متتاليين . »

وفى ألم وحسرة ، استطرد رياض حديثه ، فقال :

« ليت أم كلثوم عاشت . . لقد كنت على استعداد أن أقدم لها كل الحانى بلا مقابل . ولا أتقاضى منها المال أبداً . . . »

ويقول أحمد الحفناوى (عازف الكمان الأول بفرقة أم كلثوم) :

« كان خلاف أم كلثوم مع رياض السنباطى أحيانا بسبب بعض الجمل الموسيقية فى ألحانه . ورياض إنسان يعتز بنفسه جدا ، ذو كبرياء حاد . . ولا يلين بسهولة . فحين كانت أم كلثوم تطلب منه أن يغير أو يبدل جملة موسيقية فى اللحن ، وذلك لأنها ليست مرتاحة لهذه الجملة ، كان يرفض بشدة ، بل ويغضب جدا . ويتصور أن طلبها هذا يعنى أنها تدعى أنها أكثر فهما منه فى الموسيقى . وحين تحاول أم كلثوم

بدورها أن تقنعه بأن الجملة الموسيقية المراد تغييرها تعاكس صوتها . . أو تتعب غناءها ، فإنه يرضخ لها ، ويغير الجملة . لكنها تشعر بتردد لتنازله هذا !! ويساورها الشك والوسوسة . . لأن الأستاذ رياض تنازل لرأيها . فتأخذ رأيي . وكانت تثق في ذوقي . . فأجيب بأننى أفضل الجملة الأولى التى كان يصبر عليها رياض . لكنها تعرض عن رأيي أيضا . وهذا لكونها كانت تعتز بنفسها جدا . أم كلثوم كانت قوية الشخصية . وفي البروفة التالية ، تطلب أم كلثوم سماع الجملة الأولى مرة أخرى . . وترضى بها وتغنيها . كانت في النهاية تثق في قدرة رياض السنباطى الموسيقية . وتعلم أنه يعطيها أجمل وأفضل ما عنده من ألحان . وأن رؤيته وذوقه سليمان . وكانت علاقتي وصدائتي بأم كلثوم كبيرة . فعندما كان ينشب خلاف بينها وبين زكريا أحمد أو رياض السنباطى ، كنت أدعوهم للمنزلى . . وأعمل وسيطا ورسول سلام بينهما . . حتى تصفو النفوس وتعود المياه إلى مجاريها » .

و يصف رياض لقاءاته مع أم كلثوم فيقول :

« أم كلثوم كانت تعبد فنها بعد الله . . ولا تكتفى بها وصلت إليه من مجد وتفوق ، بل كانت دائما تتطلع إلى المزيد . وعلى سبيل المثال : فإن الجلسات التى كانت تحفظ فيها لحنا جديدا . . كانت تستمر من العاشرة صباحا حتى العاشرة مساء . تحفظ دون كلل أو ملل . وأحيانا كانت تسألنى عندما تطول الجلسة أكثر من ذلك . . إذا كنت جائعا ؟ وعندما أقول لها بأننى جعت فعلا ، فإنها تسألنى بذكاء . إذا كانت تحضر لى طعاما ؟ فأجيبها : إذا أكلت وجبة كاملة فإننى سوف أتعب وأنام ، وسوف يضيع الجو الجميل الذى نحن فيه . وهكذا كنا نقرر الاكتفاء بتناول سندوتش من الجبنة ، مع فنان شاي أو قهوة .

وظلت جلساتنا هكذا طوال أربعين عاما . كانت ترفض أثناء البروفة استقبال أى إنسان ، لكى تتفرغ تماما لفنها . . كانت تستوعب كل نغمة في اللحن . . وكل كلمة . لقد كانت أم كلثوم دائما متحفزة للنجاح . . تماما كالفرس التى تستعد

للسباق . . وتصمم على الفوز .

يا خسارة!! كانت مثل السد الكبير، الذى كان يحجب كل التفاهات والسخافات الفنية . فلما رحلت بدأ كل شىء يظهر . وبدأت موسيقى البلد تنهار ، والأغاني تصاب بالانحلال . . »

وفى حديث آخر، قال رياض السنباطى :

« أين الطرب بعد أم كلثوم ؟ لقد انفض سامره ، وانتهى عهده ، طرب هذه الأيام تشنجات من المطربين وتهليل من الجمهور . وهذه فى اعتقادى هستيريا من يتعاطون مكيفات محظورة . أما جمهور أم كلثوم فشئ آخر ، كنت أسمع أم كلثوم وأسمع فى نفس الوقت جمهورها . وأقول لأم كلثوم « آه » وأقول للجمهور « الله » ، لأنه يتمتع بحس ذكى ، ويعرف أين يصفق ، ويحترم الجملة اللحنية فلا يقطعها . وهو يصدر أحكامه على اللحن من أول مرة يسمعه فيها . كان الجمهور يعلمها ، ويعلمنى ، إن الجمهور عندنا يعرف من يحترم ، وماذا يحترم . »

لعب صوت أم كلثوم دورا كبيرا فى حياة رياض الفنية . فإذا استمعت لأغنية لرياض السنباطى مؤداة بصوت غير صوتها ، أحسست على الفور أن ملحن هذه الأغنية ليس هو رياض الذى استمعنا إلى ألحانه بصوت أم كلثوم . وفى ذلك يقول كمال النجمى :

« . . ملحنان مختلفان فى المقدرة والإبداع ، ولكنها ملحن واحد اسمه رياض السنباطى . يبلغ القمة حين يضع لحنا لأم كلثوم ، ويأتى بخوارق تدهش العقول . وكان يفاجئ المستمعين فى كل لحن كلثومى بلون من الإبداع لم يسبقه أحد إليه ، ولا يستطيع أحد أن يأتى بمثله . فإذا اقتضت الضرورة أن يضع لحنا لمطربة أخرى لم يأت بشئ من الخوارق الفنية . ولم يفاجئ المستمعين بشئ من الابداع . ويبدو عندئذ كأنه ملحن آخر من طبقة أقل بكثير من طبقة السنباطى . لا تطاولها طبقته عند التلحين لأم كلثوم . ولعل السبب أن روحه المعنوية ترتفع عندما يلحن لأم كلثوم

فينعكس ارتفاعها على ألحانه .

لقد تخصص السنباطى فى التلحين لأم كلثوم ، حتى ارتبطت ألحانه بصوتها ، وانطبع صوتها بألحانه . واعتاد السنباطى لهذا السبب أن يطلب الدرجة العليا فى التلحين ، ما دام يلحن للدرجة العليا من الأصوات .

وبمرور الزمن وكثرة ما صنع السنباطى من ألحان لأم كلثوم ، أصبح لا يحس إلا الطيران فى الأجواء التى يخلق فيها صوت أم كلثوم . . «
رياض كان واحدا من الذين رسموا « الذوق الكلثومى » . وارتاحت أم كلثوم إلى فن رياض السنباطى . . فقد كان يعطيها ما تريد .
ويقول رياض :

« . . عندما تعارفنا . . لمست فى صوتها القدرة الفائقة النادرة . . . أحسست بطاقة فنية خطيرة تملكها . . قلما يمنحها الله لإنسان . الزمن لا يوجد بكثير من العباقرة . . وأم كلثوم واحدة من العباقرة . . من عباقرة هذا الجيل . . »
كان رياض السنباطى يترك لأم كلثوم حرية مطلقة فى الأغنية الخفيفة «الطقطوقة» ، لتقدم عروضاً غنائية حرة تظهر إمكانياتها الصوتية وتفهمها للمقامات والضروب العربية .

وكانت أم كلثوم فى حفلاتها حريصة عند تقديم الإعادات على إدخال التلوين والتغيير فى كل إعادة ، دون أن يفقد اللحن مستواه الفنى ، أو يبتعد اللحن عن اللون والأسلوب الذى كتبه الملحن . والملاحظ أنه فى السنوات العشر الأخيرة ، قللت أم كلثوم من أدائها للعرض الصوتى بسبب تراجع مساحات صوتها . وظهر ذلك جليا فى أدائها لقصيدة « أقبل الليل » وأغنية « القلب يعشق كل جميل » .

وقبل وفاة أم كلثوم ، كان رياض فى زيارة لها . . فجلس إلى جوارها على الكنبه التى اعتادا الجلوس عليها ، وأعطته أم كلثوم أغنية لصالح جودت عن ٦ أكتوبر .
بمناسبة ذكرى العبور . . قال رياض :

« أخذت منها الورقة . . وقلت لها إننى لا أستطيع بهذه السرعة أن ألحنها فى أسبوع . والحقيقة أننى حاولت أن ألحن . فقد لاحظت ضعفها ، ولاحظت رجفة يديها وهى تعطينى اللحن . . وصوتها أيضا ليس هو الذى أعرفه . ولكنها قالت : « حاول . . فكر . . نغيش فى الكلمات . . يمكن . . حاول على كل حال » .
ولم أحاول ، لأننى أعرف أنها لن تغنى . . إنها شئ عظيم . . قوة جبارة ، هبة من عند الله . . »

وفى وصف لأداء أم كلثوم . . قال رياض :

إن ختام جل أم كلثوم أو بالتعبير الموسيقى « القفلة الغنائية » ، كانت مثل « الباكم » عند القطار أو فى المترو . وهذه القفلة المحكمة القوية لم تكن موجودة عند أى مطربة أخرى .

استمرت الشركة الفنية بين أم كلثوم ورياض ما يقرب من أربعين عاما . ففى ألحانه وجدت أم كلثوم ما يناسب صوتها وثقافتها وقدرتها الغنائية . وبألحان رياض قدمت أم كلثوم مجموعة كبيرة من أعمال الشعراء العرب القدامى والمعاصرين . قال رياض عن أم كلثوم :

« عندما لحن لها ، شعرت بأننى وجدت وعثرت على ما تصبو إليه روحى ومقدرتى . فأم كلثوم تجمع بين ملكة التعبير والصوت الحلو واللفظ السليم . كل هذه الصفات شجعتنى على أن أصل إلى ما تصبو إليه نفسى من خلال التلحين لهذا الصوت الجبار . وكانت الحصيللة عددا كبيرا من الأغانى التى جمعتنا معا ، تجاوزت التسعين بالمائة من ألحانى كلها . »

شارك رياض السنباطى بألحانه فى أغانى أفلام أم كلثوم . وسيأتى الحديث عنها فى حينه .

ومن أشهر ما لحن السبباطى من ألوان الطقطوقة والمونولوج والأناشيد :

أحمد رامى (١٩٣٥) فيلم وداد	على بلد المحبوب ودينى	طقطوقة
أحمد رامى (١٩٣٥) فيلم وداد	الربيع	أغنية
أحمد رامى (١٩٣٧) فيلم نشيد الأمل	افرح يا قلبى	أنشودة
أحمد رامى (١٩٣٧) فيلم نشيد الأمل	قضيت حياتى	أغنية
أحمد رامى (١٩٣٧) فيلم نشيد الأمل	الجامعة	نشيد
أحمد رامى (١٩٣٩)	ميلاد الملك	أغنية
أحمد رامى (١٩٣٨)	النوم يداعب عيون حبيبى	مونولوج
أحمد رامى (١٩٣٩)	اذكرينى	مونولوج
أحمد رامى من فيلم دنانير (١٩٣٩)	بغداد	أنشودة
أحمد رامى (١٩٣٩)	فاكر لما كنت جنبى	مونولوج
أحمد رامى (١٩٣٩)	لما انت ناوية تهاجرينى	طقطوقة
أحمد رامى (١٩٣٩) فيلم دنانير	ياليلة العيد	أغنية
أحمد رامى (١٩٤٢) من فيلم عايدة	الفصل الثانى من أوبرا عايدة	مشهد
أحمد رامى (١٩٤٦) فيلم فاطمة	ح أقابله بكره	طقطوقة
محمود بيرم التونسى (١٩٤٦) فيلم فاطمة	ظلمونى الناس	أغنية
أحمد رامى (١٩٤٦)	غلبت أصالح	أغنية
أحمد رامى (١٩٤٦)	غنى الربيع	أغنية
أحمد رامى (١٩٤٦)	هلت ليلالى القمر	أغنية
أحمد رامى (١٩٤٦)	يا طول عذابى	أغنية
أحمد رامى (١٩٤٩)	يا للى كان يشجيك أنينى	أغنية
أحمد رامى (١٩٥٠)	سهران لوحدى	أغنية
أحمد رامى (١٩٥١)	يا ظالمنى	مونولوج
أحمد رامى (١٩٥٢)	جددت حبك ليه	أغنية
أحمد رامى (١٩٥٢)	صوت الوطن	نشيد

طاهر أبو فاشا (١٩٥٥) رابعة العدوية	على عيني بكت عيني	أغنية
أحمد رامى (١٩٥٦)	قصة حبي	أغنية
محمود حسن إسماعيل (١٩٥٦)	الصباح الجديد	أغنية
صلاح جاهين (١٩٥٦)	الله معك	نشيد
محمود بيرم التونسي (١٩٥٦)	صوت السلام	أغنية
عبد المنعم السباعي (١٩٥٨)	أروح لمين	أغنية
محمود بيرم التونسي (١٩٥٨)	بطل السلام	أغنية
محمود بيرم التونسي (١٩٥٨)	بعد الصبر ما طال	أغنية
محمود حسن إسماعيل (١٩٥٨)	بغداد	نشيد
محمود بيرم التونسي (١٩٥٨)	شمس الأصيل	أغنية
أحمد رامى (١٩٥٨)	عودت عيني	أغنية
أحمد رامى (١٩٥٨)	دليلي احتار	أغنية
عبد الفتاح مصطفى (١٩٥٨)	منصورة يا ثورة أحرار	أغنية وطنية
طاهر أبو فاشا (١٩٥٩)	الجيش	نشيد
أحمد رامى (١٩٥٩)	هجرتك	أغنية
أحمد العدواني (١٩٦٩)	يا دارنا يا دار	أغنية
محمود بيرم التونسي (١٩٦١)	الحب كده	أغنية
عبد الفتاح مصطفى (١٩٦١)	ثوار	أغنية
أحمد رامى (١٩٦١)	حيرت قلبي	طقطوقة
عبد الوهاب محمد (١٩٦٢)	ح أسيبك للزمن	أغنية
عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٣)	الزعيم والثورة	أغنية وطنية
محمود بيرم التونسي (١٩٦٣)	بالسلام والمحبة	أغنية وطنية
عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٣)	لسه فاكّر	أغنية
محمود بيرم التونسي (١٩٦٣)	يا جمال يا مثال الوطنية	أغنية
عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٥)	أقول لك إيه عن الشوق	أغنية
عبد الوهاب محمد (١٩٦٥)	تحويل النيل	أغنية

أغنية	لا يا حبيبي	عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٥)
أغنية	يا حبنا الكبير	عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٥)
أغنية	طوف وشوف	عبد الفتاح مصطفى (١٩٦٧)
نشيد	حبيب الشعب	صالح جودت (١٩٦٧)
نشيد	قوم بإيمان	عبد الوهاب محمد (١٩٦٧)
رسالة	(عندي خطاب عاجل إليك)	نزار قباني (غنتها عقب وفاة الزعيم جمال عبد الناصر)
أغنية	القلب يعشق	محمود بيرم التونسي (١٩٧٢)

ألحان محمد الموجي لصوت أم كلثوم :

ومحمد الموجي كان أول الملحنين الشبان الذين لحنوا لأم كلثوم ، وأول لحن قدمه لها أنشودة الجلاء (أحمد رامي) :

يا مصر إن الحق جاء فاستقبلي فجر الرجاء

وكان ذلك عام ١٩٥٤ ، بمناسبة جلاء قوات الاحتلال عن مصر ، غنتها أم كلثوم في ١٨ يونيو عام ١٩٥٤ ، ولم تسجل على أسطوانة .

ثم اشترك محمد الموجي في قصة رابعة العدوية عام ١٩٥٥ ، فلحن أغنية انقروا الدفوف (طاهر أبو فاشا) :

أوقدوا الشموع	انقروا الدفوف
موكب العروس	في السما يطفوف
والمنى قطوف	انقروا الدفوف

وقصيدة حانة الأقدار (طاهر أبو فاشا) :

سألت عن الحب أهل الهوى سقاة الدموع ندامى الجوى

وفي سبتمبر عام ١٩٥٧ غنت أم كلثوم أغنية « محلاك يا مصري » (صلاح جاهين)

وفي يوليو عام ١٩٦٤ غنت تحية للإذاعة أغنية « صوت بلدنا » (عبد الفتاح مصطفى) ولم تسجل على أسطوانة .

وعام ١٩٦٤ غنت أغنية « للصبر حدود » (عبد الوهاب محمد) وهي مسجلة على أسطوانة صوت القاهرة .

وفي أول مارس عام ١٩٦٥ غنت أم كلثوم من ألحان الموجى أغنية « يا سلام على الأمة » (عبد الفتاح مصطفى) ولم تسجل أيضا على أسطوانة .
وآخر ما غنت أم كلثوم من ألحان محمد الموجى « اسأل روحك » (عبد الوهاب محمد) :

اسأل روحك اسأل قلبك قبل ما تسأل إيه غيرنى
أنا غيرنى عذابى فى حبك بعد ما كان أملى مصبرنى
غدرك بيه أثر فيه

وكان ذلك يوم الخميس الموافق أول يناير ١٩٧٠ ، وسجلت على أسطوانة صوت القاهرة .

تنبّهت أم كلثوم إلى هذا الملحن المميز . . وكان رياض السنباطى أيضا يتابع أعمال الملحنين الشبان . . واستوقفه محمد الموجى بشكل خاص . . يقول الموجى :

« رأى السنباطى فى أعمالى أصالة وشرقية . أما أم كلثوم ، فلا أعرف تحديدا ماذا دار فى خلدها . . لكننى أعرف أن « صافينى مرة » و « أنا قلبى إليك ميال » أثرا فيها كما كانت تقول . فأخذت تتابعنى وتعمّن الفكر فى ألحانى . إلى أن استدعتنى عن طريق محمد حسن الشجاعى . فذهبت إليها ، ووجدت مجلسها الثالوث العملاق : محمد عبده صالح عازف القانون ، والشاعر أحمد رامى . والأستاذ محمد القصبجى . فجلست خائفا ، خجلا ، كأتى فى محكمة . وبدون مقدمات أعطتنى قصيدة « الجلاء » لأحمد رامى . وقالت باقتضاب : الحفلة بعد ١٥ يوما . .

خرجت وأنا في ذهول . . ماذا أفعل ؟ وكيف أجرو على التلحين ؟ إنها أم كلثوم .
لحنت ونجحت بعون الله تعالى . . ثم كانت أعمالي : « ماحلاك يا مصرى وإن ع
الدفة » و « بالسلام إحنا بدينا بالسلام » . حتى جاء اليوم الذى استدعنتى فيه
لتكلفنى بعملين على قدر كبير من الصعوبة ، هما أغانى فيلم « رابعة العدوية » :
« انقروا الدفوف » ، « وحانة الأقدار » للشاعر طاهر أبو فاشا .

إننى كملحن أعتبر نفسى عبدا للكلمة . . هى التى تقودنى وتدلنى على الطريق .
ثم إن حبى للشعر يجعلنى أتذوقه وأمعن الفكر فى الكلمة وأبعادها ، وأتأمل
موسيقيتها . وحينما طالعنى قصيدة « حانة الأقدار » ، وجدت أمامى ٣ قصائد فى
قصيدة واحدة ، مختلفة فى شكلها وإيقاعها . وبدون أن أشعر ، أسرنى هذا الشكل
الذى أبدعه طاهر أبو فاشا . فاستخدمت ثلاثة إيقاعات مختلفة . وعندما أرهفت
السمع إلى مقطع « أيكّة الأطيار » شعرت أننى فى جو أندلسى . تخيلت أننى زرياب ،
ووجدت نفسى أستعين بإيقاع الفالس . . ولكى أوحى بأصوات الكورس خصوصاً
أن اللحن سيغنى فى حانة . . حسبما جاء فى السيناريو ، استخدمت فى الإيقاع النقر
على الكمان وآلة المثلث ، لتعطى صوتاً بلورياً . وعندما فرغت من التلحين ، وجدت
نفسى أمام ثلاثة موشحات جميلة متصلة بعضها ببعض . . لا ارتباك فيها ولا تفكك ،
لأننى كنت فى كل مرة أختتم المقطع الغنائى بالمقام الذى سأبدأ فيه المقطع الذى يليه .
ومع ذلك تملكى الرعب . وراجعت نفسى كثيراً قبل أن أذهب إلى أم كلثوم . فإن
استخدام كل هذا التلوين فى الشكل والإيقاع لم يكن مألوفاً فيما سبق وغتته . . ولكنى
توكلت على الله ، وأنجزت هذا العمل فى ثلاث ليال . ثم أسمعته أم كلثوم . فأخذت
تنصت باهتمام ، وتتمتم بأشياء غريبة ، فتوجست خيفة وسألتها : فيه حاجة ؟
فأجابت : لا . .

قلت : ما معنى هذه اللا ؟

قالت : لا أجد ما أقوله . . عبتاً أحاول النفاذ إلى ثغرة واحدة فلا أجد . هذه أول
مرة يهزمنى لحن بهذا الشكل .

ولم تتدخل أم كلثوم في هذا العمل . . وهى التى اعتادت التدخل فى معظم أعمالها . .

بالمقابل . . أذكر أنها « بهدلتنى » وأرهقتنى كثيرا فى أغنية « للصبر حدود » . إن تلحين أغانى المناسبات يأخذ توقيتا معيناً . . وسرعة معينة ، لإنهاء العمل فى وقت المناسبة . . فيكون الملحن أنشط . أما قصة « للصبر حدود » فبدأت بعرضى عليها كلمات الأغنية . . فأعجبت بها ، وطلبت منى أن أقوم بتلحينها .

أخذت الكلمات ، وفضلت الكلمات عندى مدة . إلى أن اتصلت بى أم كلثوم تسألنى عن اللحن . فأوضحت لها أننى لم أحصل بعد على الفكرة الأولى . . . أى بداية اللحن . . فاستدعنى إليها . ولما ذهبت إلى منزلها سألتنى :

- انت مش لحت لشريفة فاضل ، ومها صبرى ، وفايزة أحمد « أنا قلبى إليك ميا » . . والحاجات الحلوة دى ؟؟ حط فى دماغك إنك بتلحن لشريفة أو أى مطربة أخرى واللى يطلع فى بالك اعمله !!

خرجت من منزل أم كلثوم هادئا بعد ما كنت عصيبا . . وفى البيت أمسكت بالعود وسلطنت مقام السيكاه .

أنهيت المذهب وذهبت إلى أم كلثوم . . . بدأت تستمع إلى اللحن مرة . . ومرة أخرى تردده معى . . وبدأت تتدخل فى اللحن . . يعنى أنا ممكن أقول إنى أحسست بنفسى فى المقدمة والمذهب . أما ابتداء من الكوبليه الأول والثانى بدأت تتدخل ، فكنت أحس أننى زكريا أحمد . واحتراما لها أنجأوب معها متعللا بأنها كانت تريد أن تريح صوتها . . وأعتقد أننى كنت مخطئا أننى وافقتها على التعديلات التى طلبت إدخالها على اللحن ، لأنها لم تتوافق مع ما أردته أنا لهذه الأغنية . إلى أن جاء الكوبليه الأخير « . . ما تصبرينش ما خلاص » . . فهنا ظهر أسلوب محمد الموجى . . وأنا راض كلية عن هذا الجزء .

غنت أم كلثوم « للصبر حدود » فى موسم عام ١٩٦٤ . وفى الشهر التالى

فوجئت بأم كلثوم تغنى « إنت عمرى » . . وبهذا لم تعط فرصة لأغنية « للصبر حدود »
أن تنتشر وتعيش موسما كاملا . . فقد عودتنا أم كلثوم أنها تغنى لحنا واحدا جديدا فى
السنة . . وتقوم بإعادة الأغانى القديمة فى الوصلات الأخرى . وبظهور « إنت عمرى »
اهتز لحن « للصبر حدود » . لأن طبعاً لقاء أم كلثوم وعبد الوهاب فى أول أغنية كان
حدثا تاريخيا .

ولما غنت أم كلثوم « إنت عمرى » فى الوصلة الأولى . . غنت فى الوصلة الثانية
« للصبر حدود » . وحاس الناس فى الوصلة الأولى . . مع « إنت عمرى » . . لم
يستمر مع الوصلة الثانية « للصبر حدود » .

وفى اليوم التالى اتصلت بأم كلثوم أعاتبها :

كده برضه تدبحينى إنت وعبد الوهاب ؟؟

فردت عليه (باللفظ) . . . اتلهى . . بكره تشوف الأيام حتعمل إيه ؟
والله أعلم هل كانت أم كلثوم تطيب خاطرى ، أم كان عندها بعد نظر ؟؟ أن أغنية
« إنت عمرى » تهبط قليلا وترجع ترتفع أغنية « للصبر حدود » .

مش عارف !!! المهم فانت مدة وبدأنا نعمل معا فى لحن « اسأل روحك » . وفى
هذه الأغنية ، لم أترك أم كلثوم تتدخل فى لحنى . . . إلا بقدر محدود جدا . . .
وأستطيع أن أقول إن لحن هذه الأغنية . . لحنى أنا . . وتصورى وإحساسى أنا فقط .

أم كلثوم وألحان كمال الطويل :

وثانى الملحنين الشباب كان كمال الطويل الذى اشتهر بلحنه « والله زمان يا
سلاحى » (صلاح جاهين) ١٩٥٦ . . والذى اعتمد نشيدا وطنيا (سلام
جمهورى) . . وأغنية « لغيرك ما مددت يدا » فى أوبريت رابعة العدوية .
وأخر ألحان كمال الطويل لأم كلثوم كان لحن « غريب على باب الرجاء » (طاهر
أبو فاشا) .

كتبت « مجلة فن العدد الأول يونية ١٩٨٨ » :

« . . بعد ما يقرب من ربع قرن على تسجيل أغنية « غريب على باب الرجاء » ، نشرت الشركة التي تحتكر حق توزيع التراث الغنائي لسيدة الغناء العربى الراحلة أم كلثوم ، أغنية لها سجلت في أوائل الستينيات ، ولم يصرح بإذاعتها أو طرحها للبيع على أسطوانات أو أشرطة الكاسيت خلال حياة أم كلثوم - وأيضاً خلال ١٤ عاماً هي سنوات رحيلها عن الحياة .

وملحن هذه الأغنية الموسيقار كمال الطويل ، وكاتب كلماتها الشاعر طاهر أبو فاشا .

وطبيعى أن يثور « حول المنع - ثم التصريح » الكثير من التساؤلات حول أسباب تأخر ظهور هذه الأغنية ١٩

إن الأسباب التى عطلت ظهور هذا العمل الغنائى لأكثر من ربع قرن ، يعود إلى أن صاحب اللحن كان قد صارح أم كلثوم فور تسجيلها للأغنية ، بعدم ارتياحه للتسجيل . وكان أن احترمت سيدة الغناء العربى الراحلة رغبته . فلم توافق على إذاعة الأغنية أو طبعها على أسطوانات أو كاسيت . وظل الحال كما هو ، حتى طرحت الشركة المحتكرة لتوزيع وتسويق أغانى أم كلثوم الأغنية من دون الرجوع إلى الملحن أو المؤلف ، وبناء على حق الشركة فى نشر غناء أم كلثوم ، وحيث إن تنازل الملحن والمؤلف عن اللحن والكلمات ، تم بموجب أوراق ومستندات ضمن تعاملات الشركة مع أم كلثوم .

ورغم أن لأغنية « غريب على باب الرجاء » مزايا - لا نعرف كيف أمكن حجبها عن الناس أكثر من ربع قرن ! - فالأغنية فيها فيض من المقدمات واللوازم الموسيقية التى تمهد للكلام المنغوم ، عبر استخدام جرىء للمقامات والإيقاعات ، وشكل فخم للغناء فى داخل هذا الإطار اللحنى البديع . إن جهد كمال الطويل فى هذا اللحن جهد رائع ، وتعد هذه الأغنية ثالث ما لحن لأم كلثوم ، بعد لحن قصيدة « لغيرك ما مددت يدًا » الذى كان من أجمل ألحان « رابعة العدوية » ، وبعد نشيد « والله زمان

ياسلاحي « الذى ظل نشيدا وسلاما قوميا لجمهورية مصر العربية منذ عام ١٩٥٧ .
وحتى عام ١٩٧٧ .

وقد حرص كمال الطويل فى هذا اللحن ، على أن يلبى متطلبات صوت أم كلثوم وأن يرتفع إلى جو الإمكانات الفنية الرفيعة لهذا الصوت العبقري . أما كلمات الشاعر طاهر أبو فاشا ، فقد قدمت صورة شعرية بليغة لتائب على باب الرجاء . خصوصا فى المقطع الأخير الذى استلهم إيقاعات الذكر والدعاء ، بجانب تداخل الغناء مع إيقاعات الذكر ونقر الدفوف مع صوت أم كلثوم :

ولى فى مقام الوجد حال ونشوة	فى سر الهوى تغدو وفيه تروح
بكيت إلى الجدران لا من عذابه	وداعى الهوى بالواهين يصيح
غريب على باب الرجاء طريح	يناديك موصول الجوى وينوح
يهون عذاب الجسم والروح سالم	فكيف وروح المستهام جروح

أم كلثوم وألحان بليغ حمدى :

وعن الظروف التى أوصلت ألحان بليغ إلى حنجرة أم كلثوم ، قال بليغ :

« المرحوم الفنان محمد فوزى كان من أعز أصدقائى . وقد أنشأ شركة تسجيلات وأسطوانات باسم « مصرفون » . وقد تعاقد مع عدد من المطربين والمطربات ، لتسجيل إنتاجهم على أسطوانات ، وفى مقدمتهم السيدة أم كلثوم . وبالرغم من الصداقة التى تربط بينى وبين محمد فوزى ، إلا أنه لم يبلغنى بتعاquه مع أم كلثوم . وفى الوقت نفسه ، كان الشاعر عبد الوهاب محمد مهندسًا يعمل فى شركة « شل » ، أسمعنى أغنية ألفها ، هى « حب إيه الى انت جاي تقول عليه » . وقد أعجبنى كلامها جدًا ، فلحنت مطلعها ، وأخذت أردده فى المجالس التى تضمنى مع عدد من الزملاء الفنانين . وتصادف فى تلك الأيام أن جاءنى الصديق محمد فوزى ، ودعانى إلى سهرة

حلوة في بيت الدكتور زكى سويدان ، وقال لى إن السيدة أم كلثوم ستكون في الحفلة . . .

وذهبت إلى السهرة طبعاً . . وعرفت فيما بعد أن الحكاية كانت مهياة سلفا ؛ فإن السيدة أم كلثوم كانت قد سمعت بعض الألمان التى وضعتها لعبد الحليم حافظ وشادية وصباح ونجاة ، فأرادت من باب الفضول أن تتعرف على ، وهكذا تم ترتيب السهرة بحيث يكون لقائى بها عاديا وطبيعا . وأذكر أن السهرة ضمت يومئذ : عازف الكمان الراحل أنور منسى ، والمطرب المرحوم عبد الغنى السيد ، والشاعر مأمون الشناوى ، ومحمد فوزى طبعاً . . كما أذكر أن الكلفة ارتفعت بينى وبين المطربة العظيمة من أول لحظة . . وأحسست وكأننى أعرفها من زمن بعيد . . وخصوصا عندما طلب منها أحد الساهرين أن تسمعنا شيئا ، فالتفتت إلى أنور منسى ودعته إلى العزف على كمانه ، ثم طلبت عودا وأعطته لى وقالت : تفضل وأسمعنا شيئا من الحانك .

وأسرع محمد فوزى يطلب إلى أن أسمعها أغنية « حب ليه » . وكان المرحوم أنور منسى قد حفظ اللحن جيدا منى في سهراتنا الخاصة ، ولم أتردد ، فغنيت لها . . واستعادت اللحن مرة ، ومرتين وثلاثا ، وطربت له ، وسألتنى : لماذا لم أكمل تلحين الأغنية ؟ فأجبتها بأننى لم أجد سببا للاستعجال . . وهنا طلبت إلى أن « أفوت عليها بكرة » . وهكذا كان . . .

ذهبت إلى بيتها ، وليس فى ذهنى إلا تصور واحد ، وهو أن سيدة الغناء العربى تريدنى أن أقوم بتلحين بعض الأغانى لابن شقيقها ابراهيم خالد ، الذى كان يفكر فى احترام الغناء آنذاك . . وبالفعل ، أول ما وصلت إلى بيتها ، قابلتنى بالترحاب . . وحكيئا فى شأن ابراهيم خالد ، وافقنا على أن أعمل له لحنا ، وبعد قليل التفتت إلى قائلة :

- ما تيجى نتسلطن شوية ؟

وأتت بالعود ، وأعطته لى ، وهى تقول :

- سمعنى الى قلته امبارح .
وبعد أن أسمعتها المذهب بتاع « حب إيه » قالت :
- كلام مين ده ؟
فأجبتها :
- شاعر صديقى ، يعمل مهندسا فى شركة « شل » ، اسمه عبد الوهاب محمد . .
فقلت :
- انت حافظ بقية الكلام ؟
فأجبت :
- لا . . لكن نكلم عبد الوهاب . .
ونهمضت وطلبت عبد الوهاب محمد فى التليفون وقلت له :
- ألو . . يا عبد الوهاب . . والله تحبىي حالا لبيت السيدة أم كلثوم . . .
فأجاب الرجل .
- يا أخى بلاش هزارع الصبح .
وحاولت إقناعه بأن المسألة جد . . لكنه لم يقتنع إلا بعد أن أخذت أم كلثوم
السماعة وقالت له :
- اسمع يا عبد الوهاب . . أنا أم كلثوم . . أنت عندك سيارة ؟؟ . طب خد
تاكسى وتعالى لى حالا . .
وبعد نصف ساعة ، كان عبد الوهاب محمد يقرأ لها بقية الكلام ، وكانت هى
تصغى إليه بكل إعجاب . . وبعدها قالت أم كلثوم :
- اسمع يا بليغ . . من غير زينة . . ولا حد يعرف . . اشتغل فى الأغنية دى . . .
فقاطعتها متسائلا :
- هو حضرتك حاتغنيها ؟

فأجابت :

أيوه . . لكن ما تحملش همى . . خليك زى ما أنت . . اشتغل فى اللحن على راحتك . .

ونزلنا من بيت السيدة أم كلثوم ، ونحن فى دهشة شديدة ، وقررنا أن ننهى العمل بأسرع ما يمكن . وهكذا . . وفى عشرة أيام فقط ، انتهت من تلحين أغنية « حب إيه » التى قررت أم كلثوم أن تغنيها فى افتتاح موسمها السنوى . . وما أذكره أيضا ، أنه خلال البروفات التى كانت تجرى فى بيت أم كلثوم بالزمالك . . حدثت حكاية طريفة للغاية . فأعضاء فرقة أم كلثوم الموسيقية كانوا لا يعرفون اسم ملحن الأغنية الجديدة . ولما رأونى فى بيت أم كلثوم . . اعتقدوا أنى جئت مع عبد الغنى السيد ، فى زيارة تقليدية ، أو للتعرف . ولكن ما إن دخلت السيدة أم كلثوم ، وطلبت منهم أن يعطونى عودا ، حتى ساد الصمت لحظة ، بعدها نهض الجميع لتهنئتى . وكان محمد فوزى الذى جاء خصيصا ليحضر البروفة الأولى فى طليعة المهتمين . . وهو بالمناسبة كان يحمل الحب اكل فنان . . وقد مهد لى الطريق للتعرف إلى السيدة أم كلثوم . . حتى على حسابه .

هكذا كان لقائى الأول مع أم كلثوم . . كان لقاء تبعه لقاءات عديدة « فوات الميعاد » و « الحب كله » و « ألف ليلة وليلة » وغيرها . . وارتبط اسمى بسيدة الغناء العربى . وبسببها صعدت إلى سلم الشهرة . . ومن أجلها لحت أبجل ما لحت من أغان ستبقى ، لأن أم كلثوم غنتها .

لحت للكثير من الفنانين والفنانات . ولكن عملى مع أم كلثوم كان له طعم آخر . كانت منضبطة إلى أقصى حدود الانضباط . . مواعيدها بالدقيقة . وكانت دائما فى إستوديو التسجيل قبل غيرها . وكانت بعد تسجيل كل مقطع من الأغنية ، تذهب إلى حجرة الهندسة ، لتستمع لى ما سجل . . وكثيرا ما كانت تطلب الإعادة . كانت

سمحة مع الجميع ، طيبة القلب . أحبتها الفرقة الموسيقية ، وأحبها الفنيون الذين يقومون بالتسجيل . كانت تعرف مشاكل كل من عملوا معها . . وتحاول أن تحل تلك المشاكل .

ولن أنسى أغنية « حكم علينا الهوى » ، وهى آخر أغنية سجلتها . فكانت مشتاقة إلى تقديمها للجمهور في حفلها التاريخي ، ولكن المرض لم يسمح بذلك . فخرجت الأغنية في تسجيل عظيم سيقى مع أغانيها الأخرى .

ومن أجل الحان بليغ « فات الميعاد » الذى غنته أم كلثوم في ٢ فبراير عام ١٩٦٧ . وفيه أضاف بليغ آلة الساكسفون إلى الفرقة الموسيقية .

يقول كمال النجمي :

« . . دخل بليغ حمدي تراث الغناء العربى والموسيقى العربية ، منذ بدأ يلحن لأم كلثوم سنة ١٩٦٠ . وتصدرت أغنية « حب إيه الى انت جاي تقول عليه » موسم أم كلثوم في تلك السنة ، مع الأغنية الرائعة « هو صحيح الهوى غلاب » التى كانت آخر ما قدمه زكريا أحمد من الألحان لأم كلثوم !

كان بليغ حمدي وقتها هو أصغر ملحنى أم كلثوم سنا . وقد رفعتة أم كلثوم إلى درجة المشاركة مع ملحنها - زكريا أحمد - في افتتاح موسمها . ولم يكن بين ملحنى أم كلثوم من هو أحدث عهدا بالتلحين لها من بليغ . ولا كان بينهم من هو أقدر من زكريا أحمد ، بعد تقاعد محمد القصبجى عن التلحين لها منذ عام ١٩٤٧ . وكانت آخر الأغانى التى لحنها لها طقطوقة « نورك يا ست الكل » التى غنتها في فيلم « فاطمة » الذى عرض في ذلك العام .

هكذا التقى بليغ بأم كلثوم في ضربة من ضربات الحظ . وكان قبل أن يلاقيا في بداية الستينيات قد بدأ طريقه كملحن ناشئ يبحث عن النجاح في عالم التلحين بعدما جرب الفشل كمطرب محترف في عالم الغناء .

فى تلك المرحلة ، كان بليغ يجرى محاولا تقليد كمال الطويل وعبد الوهاب ، محاولا أن يجعل لنفسه طابعا خاصا أو « بصمة » خاصة ، على حد التعبير الردىء المتداول فى أيامنا الحالية . . ولم تكن الأغلبية قد اقتنعت بمواهب بليغ حمدى ، عندما فاجأته أم كلثوم بإبداء إعجابها بلحن « حب إيه » الذى كان قد فرغ لتوّه من إعداده لكى يغنيه إبراهيم خالد نجل المرحوم خالد إبراهيم ، شقيق أم كلثوم .

كان إبراهيم خالد يحاول أن يحترف الغناء فى نهاية الخمسينات . . تركته عمته أم كلثوم يحاول ويفشل ، إذ كان يفتقر إلى الصوت الغنائى الحقيقى . غنت أم كلثوم اللحن الذى كان يتدرب عليه إبراهيم . . وفتحت به باب السعادة للملحن الصغير بليغ حمدى الذى وجد نفسه فجأة بين الكبار .

وقد نفخت أم كلثوم من روحها الفنية العظيمة فى لحن بليغ حمدى ، فنجح وأعجب الجماهير . وأحس بليغ بصدمة النجاح ، ثم استجمع شتات مواهبه ، ونجح فى عدة ألحان كلثومية أخرى ، واستحق النجاح . وانفتحت له أبواب المطربين والمطربات ممن بهرهم نجاح هذا الملحن الجديد . ويعد بليغ أكثر الشباب إنتاجا لصوت أم كلثوم .

ومن أغانى بليغ لأم كلثوم :

نشيد	إننا فدائيون	عبد الفتاح مصطفى (١٩٥٧)
أغنية	حب إيه	عبد الوهاب محمد (١٩٦٠)
أغنية	أنساك يا سلام	مأمون الشناوى (١٩٦١)
أغنية	أنا وأنت ظلمنا الحب	عبد الوهاب محمد (٦١ - ١٩٦٢)
أغنية	سيرة الحب	مرسى جميل عزيز (١٩٦٤)
أغنية	كل ليلة وكل يوم	مأمون الشناوى (١٩٦٤)
أغنية	بعيد عنك	مأمون الشناوى (١٩٦٥)

أغنية	فات الميعاد	مرسى جميل عزيز (١٩٦٧)
أغنية	ألف ليلة وليلة	مرسى جميل عزيز (١٩٦٩)
أغنية	الحب كله	أحمد شفيق كامل (١٩٧١)
أغنية	حكم علينا الهوى	عبد الوهاب محمد (١٩٧٣)

ولأغنية « أنساك يا سلام » قصة ، فهذه هى الأغنية الثانية التى غنتها أم كلثوم من ألحان بليغ حمدى . وهى من كلمات الشاعر الزجل « مأمون الشناوى » . . بل الأغنية الأولى لمأمون الشناوى لأم كلثوم ، على الرغم من شهرته كمؤلف أغان منذ الأربعينيات .

وكانت أم كلثوم قد عهدت بهذه الكلمات إلى زكريا أحمد الذى لحن منها الأسطر الأولى . لكنه توفى إلى رحمة الله قبل أن ينهى تلحين الأغنية . وبعد نجاح بليغ فى أغنيته الأولى لها ، عهدت بتلحينها إليه .

وجاء لحن بليغ لهذه الأغنية فى شكل الطقطوقة المتطورة . . وقد اختار لها نفس المقام الذى كان زكريا أحمد قد بدأ تلحين الأغنية منه . . وهو مقام « الراست » . استخدم بليغ انتقالات مقامية عديدة أضافت إلى الأغنية جمالا وثراء . وتعتبر أغنية « أنساك يا سلام » من أجمل ألحان بليغ لصوت أم كلثوم .

لقاء السحاب (أم كلثوم وعبد الوهاب) :

ظل جمهور الطرب وعبى الموسيقى العربية يحلم بلقاء فنى بين القميتين أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب . (١٣)

واستطاع الرئيس السابق عبد الناصر تحقيق هذه الرغبة . ففى احتفالات أعياد الثورة . وأثناء تقديم التهانى بالعيد للرئيس . . طلب عبد الناصر من العملاقين أم كلثوم وعبد الوهاب تقديم عمل مشترك . وعن هذا اللقاء روى عبد الوهاب :

« كنت قد تعودت خلال أعياد ٢٣ يوليو أن أقدم عملاً فنياً . . . نشيداً من تلحيني، أو مقطوعة موسيقية . وتصادف وجود أم كلثوم لتحية الزعيم جمال عبد الناصر . وكان إلى جواره بنادى الضباط المشير عبد الحكيم عامر . قال عبد الناصر موجهاً الكلام لى ولأم كلثوم .

- لن أغفر لكما عدم اشتراككما في عمل فني واحد حتى الآن . . أين « مجنون ليلي » التي سمعت أنك لحتتها ؟؟

وقال المشير عبد الحكيم عامر :

- المهم أى عمل فني تشتركان فيه . .

وقالت أم كلثوم :

- لا مانع !!

وقلت :

أنا أتمنى . .

وانتهى الحديث عند هذا الحد .

وفي أحد الأيام، زارني الفنان أحمد الحفناوى، وقال لى :

- لدى أم كلثوم استعداد لتغنى لحنا لك .

وكنت في تلك الفترة ألحن أغنية « إنت عمرى » لأغنيها بصوتى . وبعد أن انتهيت من تلحين بعض مقاطعها ، اكتشفت أن هذه الأغنية مع بعض التعديلات في اللحن تصلح كبداية للعمل الفنى المشترك بينى وبين أم كلثوم . فأسمعتها بداية اللحن في التليفون . . فأعجبت بها .

ثم التقينا ومعنا مؤلف الأغنية « أحمد شفيق كامل » . . وعن لقائه الأول مع أم كلثوم قال : أول ما لحننت لأم كلثوم، كنت أشبه بإنسان يزور عاصمة غريبة جميلة يسمع عنها ولا يعيشها . رحت يوم ذاك أتلهف على التعرف إليها وإلى معالمها . وكانت البداية في « إنت عمرى » . وفيها تعرفت على المظاهر الواضحة لى ولغيرى في هذه العاصمة .

وفي لقائى معها ومع كلمات أغنيتنا الأولى « إنت عمرى » ، حدث الأتى : أدخلت أم كلثوم بعض التعديلات على كلمات الأغنية ، وجعلت مطلعها « رجعونى عينيك » بدلا من « شوقونى عينيك » . وغنت أم كلثوم « إنت عمرى » فى أول خميس من شهر فبراير عام ١٩٦٤ . وكانت الجماهير تترقب هذا الحدث باهتمام شديد .

وأذيعت الأغنية عبر موجات الإذاعات العربية . . وأبدعت أم كلثوم . . واستغرق غناء اللحن ما يقرب من الساعتين ، حيث انتهى الحفل فى تلك الليلة مع الفجر . « والتقت الصحف على تسمية العمل (لقاء السحاب) . وجريدة الأهرام (١٩٦٤ / ٢ / ٨) تنشر مقالا تحت عنوان « لقاء مع الملايين » تصف أم كلثوم وهى تغنى إنت عمرى . . والاستعدادات ، مع وصف انفعال الجمهور مع كل مقطع .

وفي العدد نفسه فى باب (حديث الناس) تحدثت المقالة عن الأغنية تحت عنوان « اللقاء العملاقين » . .

وفي العدد نفسه أيضا كتبت الأهرام عنوانا : « الأغنية تعطل المرور فى شبرا ساعتين أمس » . . وجاء بالمقال :

« فشلت محاولات رجال المرور فى تفريق الجمهور الذى احتشد على ناصية شارعى مسرة وشبرا ، يستمع إلى الأغنية من ميكروفون استأجره تاجر خردوات سجل الأغنية على شريط . . . وجاء فى الجريدة نفسها أيضا عنوان : « دمشق تلغى النشرة وتذيع الأغنية » .

وبظهور هذا العمل المشترك « إنت عمرى » ، انتهت المنافسة بين القمتين . يقول عبد الوهاب :

« لقد أورتنى أم كلثوم الوسوسة طوال عملى فى أغنية إنت عمرى . . فهو أول لحن أضعه لها . . . وأم كلثوم ليست أى مطربة أخرى . . وعلى هذا كان على أن « أغربل » الكلمات واللحن . . وهذا ما أخر الأمر بعض الوقت » .

والمعروف أن عبد الوهاب ذهب إلى المسرح ليلة الحفل مبكرا ، وآيات القرآن

الكريم تتردد على لسانه . وقبل رفع الستار أجرى عدة بروفات إلى أن بلغت الساعة العاشرة والنصف مساء . . . بينما مذيعة التلفزيون والإذاعة في قلق بالغ . . . وصاحت أم كلثوم :

- جرى إيه يا محمد . . . إنت مش عاوزنا نرفع الستارة واللا إيه ؟؟

وتنحى عبد الوهاب ، ورفعت الستارة . . وبدأت الفرقة في عزف المقدمة الموسيقية الطويلة . . التى ضمت إيقاعات راقصة عديدة . . والتى لاقت نجاحا كبيرا لدى الجمهور الذى استقبلها بتصفيق حاد . . مطالبا الإعادة .

وبدأت أم كلثوم الغناء . . فأبدعت . . واستعادت الجمهور ، يريد الزيادة في الإبداع . . وهى لا تبخل بفنها وفن عبد الوهاب . . فهذا هو اللقاء الأول بينهما . . . وبعد نجاح أغنية « إنت عمرى » ، توالى ألحان عبد الوهاب مع صوت أم كلثوم . . فغنت له عشر أغنيات في فترة لم تتجاوز تسع سنوات .

استطاع عبد الوهاب في أغنية « إنت عمرى » أن يجعل أم كلثوم تقتنع وهى التى كانت تقليدية في سلوكها الفنى ، بإدخال الآلات الكهربائية الحديثة في أغانيها مثل آلة الأورج والجيتار . كذلك استعان عبد الوهاب في هذه الأغنية بآلة الأكورديون .

ويقول عبد الوهاب :

« أردت أن أخرج أم كلثوم من كل القيود التى كانت تضع نفسها فيها . . وفرضت ذلك عليها . »

وبعد نجاح أغنية « إنت عمرى » ، استعان رياض السنباطى أيضا بهذه الآلات الحديثة في أغانيه لأم كلثوم . . كما قلد ، جميع الملحنين الذين لحنوا لأم كلثوم عبد الوهاب في طريقته .

كان عبد الوهاب يطمح في تلحين قصيدة لصوت أم كلثوم بعد أن لحن لها أربع أغانى باللهجة الدارجة . . هى « إنت عمرى - إنت الحب - أمل حياتى - وفكرنى » . وكانت أولى قصائد عبد الوهاب لأم كلثوم « هذه ليلتى » شعر « جورج جرداق » .

وفيهما أراد عبد الوهاب أن يتعد كل البعد عن أسلوب رياض السنباطى فى تلحينه للقصاصد .

ولم يتعد عبد الوهاب فى تلحينه لقصاصد أم كلثوم عن الإيقاعات الراقصة ، فجاءت قصيدته الأولى « هذه ليلتى » حافلة بالإيقاعات المتحركة ، واكتسحت الموسيقى موجة راقصة . . تناولها بعض المؤرخين الموسيقيين والفنانين بالنقد . وفى القصاصد التى تلت هذه القصيدة قلل عبد الوهاب من الإسراف فى الإيقاعات الراقصة ، وفى هذا كتب كمال النجمى فى « مجلة فن » :

« . . من حق عبد الوهاب أن نقول إن قصيدة « هذه ليلتى » كانت قصيدة للمرح والرقص والغزل الجرىء . وأن مثل هذه القصيدة لا تتحمل الجزالة والوقار .

وقد تخفف عبد الوهاب من الرقص فى القصيدة الثانية التى لحنها لأم كلثوم عام ١٩٧١ . . وهى من تأليف الشاعر السوداني « الهادى آدم » . ففى قصيدة « أغدا ألك » استولت على عبد الوهاب حالة من « السلطنة » جعلته يجمع بين التعبير والطرب ، وبين خفة الظل والرقص والعذوبة . . فى خليط أو مزيج موسيقى نادر. قدمه لأم كلثوم ، وهى فى السنة قبل الأخيرة من اعتزالها الغناء . . فأدته بقدر ما استطاعت صحتها المثقلة بالأوجاع فى تلك الأيام التى كانت تودع فيها عالم الغناء .

ولعبد الوهاب لحنان آخران من الشعر الفصيح هما « على باب مصر » شعر « كامل الشناوى » ، التى جاءت فى شكل نشيد وطنى غنتها أم كلثوم عام ١٩٦٤ . . و« أصبح عندى الآن بندقية » شعر نزار قبانى غنتها أم كلثوم عام ١٩٦٩ .

وجاء فى مقال « كمال النجمى » أيضا :

« إن نجاح عبد الوهاب فى تلحين الشعر الفصيح لأم كلثوم كان فى مستوى نجاحه الجاهيز المدوى فى تلحين الأزجال الدارجة التى لحن منها لأم كلثوم ست قطع .

وقد شرح عبد الوهاب لى مرة وجهة نظره فى ألحانه لأم كلثوم فقال : إنه استطاع تقريب أم كلثوم من أذواق الشباب . وإنه لو لم يتجنب الطريق التقليدى للأحان

أم كلثوم ، لما استطاع أن يبلغ هذا الهدف الذى كان فى حينه ذا أهمية كبيرة ، بعدما بلغت أم كلثوم مرحلة متقدمة فى السن . والتفاف الشباب حول المطرب المعبر عن وجدانه وهو عبد الحليم حافظ .

ولاشك أن وجهة نظر عبد الوهاب كانت فى حينها تستحق التأمل والاعتبار .
ويقول فكتور سحاب :

نجاح الأغنية والتقاء كبير الملحنين بأعظم المغنيات ، ينبغى ألا يعنى بالضرورة القول ، إن ألحان عبد الوهاب هى أعظم أغنيات أم كلثوم . ولكن أم كلثوم كانت قبل عبد الوهاب تغنى للخاصة . فلما لحن لها استمع إليها العامة . فكانت أغنياته لها مدخلا إلى جماهيرية أكبر . كانت دنيا أم كلثوم الأولى مغلقة قبل ١٩٦٤ . واستطاع عبد الوهاب ببراعته وذوقه أن يدلّ الناس على خبايا كنوز كلثوميه لحنها من قبله الثلاثى الكبير : القصبجى وزكريا والسنباطى .

أرسلت منيرة المهديّة برقية إلى أم كلثوم تقول فيها :

« لو كنت أستطيع أن أسير على قدمي لسعيت إليك مهتة ، ولكن روى وقلبي يحيطانك فى كل ما تقدمينه يادرة الزمن . أرجو من الله أن يمدنى بالقوة لأراك ولو مرة على المسرح لأستعيد فى شخصك أيامى ، وأتمتع بفنك الخالد وصورتك المرسومة فى كل قلب وأمام كل عين »

وتقول (الجمهورية) : إن أم كلثوم بكت وهى تقرأ البرقية ، وإنها توجهت لزيارة السيدة منيرة فى عوامتها بالكيت كات .

تقول د . نعمات فؤاد (٦)

« . . أخذت ألحان عبد الوهاب (تقرب) أم كلثوم من جمهور جديد ، وهى ظاهرة إن لم تغن فنيا فهى تغنى ماديا ، وهو كسب على أى حال .

فقد وفر عبد الوهاب فى ألحانه لأم كلثوم أكبر عدد من الجمل الراقصة ليعجب سامع الترويح أو التفريح . والأمثلة كثيرة : ففى أغنية (أنت الحب) مثلا ، معنى

شجى حزين ، لكنه فى لحن عبد الوهاب يرفل فى ثوب من الخرز والترتر الملون كأثواب
الرقص الشرقى . . وأنا أقصد :

تجرى دموعى وأنت هاجرنى ولا ناسينى ولا فاكرنى .
ومعنى آخر فى الأغنية نفسها يشترك فى حلبة الرقص وهو حائر :
لكن غرامك حيرنى وليل بعادك سهرنى

إن عبد الوهاب بعد « أنت عمرى » استسلم كما يقول كمال النجمى (للصيغة
الخطائية فى التلحين لأم كلثوم ، ولإيقاع الذى يفصل معنى الكلام عن معنى
اللحن . . وبلغ فى ذلك مرحلة لم تخطر على بال أحد . فإن عبد الوهاب هو أول من
جعل « الطبله » تدق منفردة دقا راقصا عنيفا « على واحدة ونص » ، وهو أسلوب فى
التلحين لا داعى له إطلاقا فى أغنى أم كلثوم التى يجب أن تنعطف الآن نحو
التطور . . بدلا من هذه الفانتازيا الموسيقية التى لا ندرى لها مبررا فنيا . .
جاء فى نقد لصميم الشريف (٨)

حققت أغنى « أنت عمرى » ، و « أمل حياتى » و « فكرونى » النجاح الكبير .
وعندما أراد عبد الوهاب أن يعطى للقصيدة المسرحية ثوبا جديدا غير الثوب الذى
فصله لها رياض السنباطى فشل فى ذلك ، بسبب اعتماده على تصعيد الألحان ذات
الإيقاعات الشرقية الحادة التى سبق واستخدمها فى قالب الأغنية الطويلة ، كما فى
أغنيته « أنت عمرى » و « فكرونى » ، وإصراره على ابتكار قفلات جماهيرية تختلف
عن القفلات السنباطية المثيرة . وجاء فى رأى النقاد ، أن محاولة محمد عبد الوهاب فى
هذا المجال لم تنجح نجاحا كاملا ، وإن دفعت إلى التأمل . والنجاح الذى حققه مع
أم كلثوم فى الأغنيات الزجلية ، لم يستطع أن يحققه فى القصائد ، اللهم باستثناء
العرض الصوتى .

ولرياض السنباطى رأى فى ذلك . . فهو يقول :

« إن ما يكتب للشعر يجب أن يظل محافظا على مستوى الشعر والشاعر واللحن

والملحن . وأن يحمى كل هذا من الانحدار ، لأن ما يكتب للرقص لا يمكن أن ينطبق على الشعر حتى لو كان شاعريا . »

ومجاملة من عبد الوهاب لأم كلثوم في حفل التكريم الذى أقامته لها جمعية المؤلفين والملحنين ، قال :

« ينبغي أن أنتقل من صفوف المكرمين إلى صفوف المكرمين . . فأنا ملحن . . ونحن نكرم اليوم ناشرا عبقريا له خطورته . . نكرم أم كلثوم الناشر العظيم للألحان . وقد منحها الله صوتا قويا وأداء عبقريا وحسا مرهفًا . والملحنون محتاجون دائما للناسر الكفاء الذى يوصل الإنتاج الموسيقى بمهارة إلى آذان الناس » .

سبحان مغير الأحوال . . عبد الوهاب الذى كان منافسا لأم كلثوم أصبح الصديق المجامل الذى يحسن الحديث ويتودد .

ألحان محمد عبد الوهاب التى أنشدتها أم كلثوم :

أغنية	إنت عمرى	أحمد شفيق كامل (غنتها فى ٥ فبراير ١٩٦٤)
أغنية	أمل حياتى	أحمد شفيق كامل (غنتها فى ٢ ديسمبر ١٩٦٥)
أغنية	فكرونى	عبد الوهاب محمد (غنتها فى ديسمبر ١٩٦٦)
		واشترك فى العزف على آلة القانون عبد الفتاح منسى
		نظرا لمرض محمد عبده صالح)
أغنية	على باب مصر	كامل الشناوى (غنتها عام ١٩٦٤)
أغنية	أنت الحب	أحمد رامى (غنتها فى فبراير ١٩٦٥)
قصيدة	هذه ليلتى	جورج جرداق (غنتها فى ٦ ديسمبر ١٩٦٨)
قصيدة	طريق واحد	نزار قبانى (غنتها عام ١٩٦٩)
أغنية	ودارت الأيام	مأمون الشناوى (غنتها فى ٥ مارس عام ١٩٧٠)
قصيدة	أعدا ألقاك	شعر الهادى آدم (غنتها فى ٦ مايو عام ١٩٧١)
أغنية	ليلة حب	أحمد شفيق كامل (غنتها فى ٧ ديسمبر عام ١٩٧٢)

اللقاء الفنى بين أم كلثوم وسيد مكاوى :

روى سيد مكاوى آخر الملحنين الذين لحنوا لصوت أم كلثوم :

« طلبت منى أم كلثوم أن أعمل لها لحنا ، فطلبت منها ألا يكتب لى إلا الأستاذ أحمد رامى . . حيث إن كلامه يمس وجدانى وأحاسيسى . وفعلنا اتصلت أم كلثوم برامى وكلفته بعمل أغنية لألحنها . وبدأت الاتصال به يوميا . وكان رامى يسلمنى الأغنية على مراحل . . وبذلك كانت لنا لقاءات يومية . ومعروف عن رامى أنه من الشعراء السميعة ، وعلى علم بفن الأنغام . وواصلت تلحين الأغنية مدة تقرب من السنة تقريبا . وعندما انتهيت من تلحين أغنية « يا مسهرنى » ، ذهبت أنا ورامى إلى منزل أم كلثوم . واستمعت أم كلثوم إلى اللحن وسجلته على شريط . ثم بدأنا فى البروفات . وكانت أيام البروفات تبدأ فى الاستوديو من الساعة التاسعة صباحاً .

كانت أم كلثوم تملك ثقافة أدبية وفنية ضخمة . . وعلى الرغم من محاولة بعض الملحنين « فرنجة » المقدمات الموسيقية ، يضطر بعدها الملحن إلى العودة مستسلما لغناء وأداء أم كلثوم العربى الأصيل . . فأنا أحمد الله أننى فى عملى الوحيد الذى قدمته لها وهو أغنية « يا مسهرنى » ، أنقذتها من موسيقى أعداء الفن العربى الأصيل . وبغنائها لهذا اللحن ، عدنا إلى أصالتنا الشرقية ، التى أرجو لها أن تدوم حتى تحتفظ بملاحننا العربية » .

غنت أم كلثوم أغنية « يا مسهرنى » عام ١٩٧٢ . وكانت أم كلثوم من المعجبين بألحان الشيخ سيد مكاوى الذى بدأ نجمه يتألق بألحانه فى مسرحياته الاستعراضية . وكانت أم كلثوم ترى فى سيد مكاوى امتدادا لأسلوب سيد درويش . . فهو فى ألحانه مصرى عربى . . ومدرسة الشيخ سيد مكاوى نبعت من القرآن الكريم بما فيه من التنغيم والترخيم ، وحسن التوقيع والترجيع ، مضافا إلى هذا موهبته وذكاؤه وإحساسه .

وطلبت أم كلثوم من سيد مكاوى فى ليلة إذاعة الأغنية لأول مرة ، أن يحضر ليقوم

بالإشراف على ضبط الآلات الموسيقية (دوزان) .

وحضر سيد مكاوى فى الموعد المحدد . . وكانت المفاجأة الكبرى لسيد . . فعند فتح الستارة ، قدمت أم كلثوم الشيخ سيد مكاوى للج جمهور . . واتضح أن سبب استدعائها لم يكن لضبط الآلات الموسيقية ، وإنما لتقديمه إلى جمهورها .

وبعد غناء أم كلثوم لهذا اللحن الناجح ، بدأ أحمد رامى وسيد مكاوى فى إعداد موشح وموال لأم كلثوم كما جاء فى (الكواكب ٣ فبراير ١٩٧٦) ، تقول كلمات الموال :

ياللى تلوم فى الهوى مالك ومال حبى
هو انت دارى الى جوه القلب متخبى
أنا باحبه رعانى فى بعده أو قربه . . . إلخ

أما الموشح فتقول كلماته :

غلب الشوق غلب	والهوى أمره عجب
ذاب قلبى لوعة	بين حب ولعب
كلما قلت رضا	نالنى منه غضب
والأمانى خمرة	حظنا منها الحبيب . . إلخ

ويروى سيد مكاوى :

« طلبت أم كلثوم إعداد لحن جديد لها من كلمات عبد الوهاب محمد وهو « أوقاتى بتحلو معاك » . وعندى تسجيل لصوتها وأنا أعزف على العود . . إلى جانب تسجيل آخر بصوتها لكلمات الأغنية . وكنت فى نفس الوقت ألحن لها نشيدا من كلمات الشاعر الأردنى « وائل إسماعيل » « يقول مطلعته :

مصرنا يا مصرنا أنت أغلى من المنى
أنت للقلب هنا والهوى يا مصرنا

وماتت أم كلثوم . . ودفنت معها تطلعاتها الفنية لإثراء الغناء العربى أكثر وأكثر» .

مشروع أغنية من ألحان أحمد صدقى لصوت أم كلثوم :

عندما اشتهر اسم أحمد صدقى فى مجال التلحين، وكان ذلك فى أوائل الخمسينيات، طلبت منه أم كلثوم أن يلحن لها أغنية « أغار من نسمة الجنوب على بحياك يا حبيبى » .

ولحن أحمد صدقى القصيدة . . وعندما عرضها على أم كلثوم أبدت رغبتها فى تعديل جزء من الأغنية، وهو بالتحديد البيت الأول من القصيدة . لكن أحمد صدقى اعتذر عن إجراء أى تغيير . حاولت أم كلثوم إقناعه . . وأوضحت له أن هذا هو أسلوب تعاملها مع الملحنين . . لكنه أصر على موقفه . . ولجأت أم كلثوم إلى رياض السنباطى لتلحين القصيدة . . وغنتها أم كلثوم بألحان رياض .

محاولة تلحين فريد الأطرش لأم كلثوم :

بعد أن لحن محمد عبد الوهاب وبليغ حمدى لصوت أم كلثوم . . ذهب إليها فريد الأطرش ، وعرض عليها لحنًا لقصيدة وطنية . فقالت له :
- ليس لدى مانع من أن يلحن لى فريد الأطرش . . ولكن رأى أن أبدأ معك بأغنية عاطفية .

اختار فريد قصيدة للأخطل ، ولحنها وسجلها بصوته مع الفرقة الماسية ، واصطحب معه أحمد الحفناوى وذهبا لأم كلثوم . يقول أحمد الحفناوى :

« كان فريد طوال الطريق إليها خائفًا من عدم إعجابها باللحن . وعندما سمعته فى منزلها ، أثناء وجودنا وفى وجود محمد الدسوقى ابن أختها ، قالت له :
- مبروك - وسأتصل بك لعمل البروفات .

وخرج فريد الأطرش سعيدًا جدًا لأن أم كلثوم ستغنى له لحنًا .
ومرت الأيام والشهور ولم يحدث اتصال . ففهم فريد أنها أعرضت عن ذلك .
فحزن ، وشعر أن هناك من يدسون له عند أم كلثوم ، محاولين إقناعها أن لحنه لها

سيفشل ، وأن هذا سيعرضها لهزة فنية هـى فى غنى عنها . . لأن لون موسيقاه لا ينسجم ولا يتناسق مع صوتها وغنائها . بل وربما تعرضها هذه المغامرة - على حد قولهم - للفشل واستنكار الجمهور . وقد حاولنا إقناعها بعكس ذلك ، ولكنها ردت قائلة :
- إننى مسئولة عن فنى أمام الجمهور ، وليس هو المسئول .

فقلنا لها :

- أبدا . . فعندما غنيت لبليغ وغيره ، لم يحاسبك الجمهور ، بل إنها مسئولية الملحن ، وليست مسئوليتك . كما أنك لم تفشلى مع أى ملحن . . ولكن المسألة انتهت عند هذا الحد . . ولم يحدث أن أثير هذا الموضوع مرة أخرى . »

الفصل الثالث أم كلثوم والشعر

قالت أم كلثوم^(٦) :

« أعتقد أن أهم ما يمكن أن يكتب عني بعد موتي ، أننى نقلت الجمهور من الإسفاف الغنائى الذى كان يعيشه . . من أغانى : ارحى الستارة الى فى ريحنا - أحسن جيرانك ترحنا » . . إلى مستوى « إن حالى فى هواها عجب » و « الصب تفضحه عيونه » و « رباعيات الخيام » . وقد كان إصرارى على خوض هذه المعركة ، أننى ، وأنا وافدة على القاهرة من ريف المنصورة ، غيت مرة للجمهور « سبحان من أرسله - رحمة الله » ، من يسمع ، فصفير الجمهور وراح يصيح « عاوزين هات القزاة واقعد لاعبنى » . وليلتها لم أغضب من الجمهور . . فإنه معتاد على ما يقدم إليه . . وفكرت فى أن أعوده على أشياء أخرى .

كنت قد بدأت رحلتى مع الشعر والأدب ، وأنا فى طهى الزهايرة . فقد وقع فى يدي فى تلك الأثناء كتاب « النظرات والعبرات » للمرحوم « مصطفى لطفى المنفلوطى » ، فتلقيت عباراته . وكنت قد تذوقت قبله طبعاً آيات القرآن الكريم ، الذى حفظته قبل أن أبلغ العاشرة من عمرى . وإليه أعزو الفضل فى أننى تعلمت مخارج الألفاظ . . وفهم المعنى بل إن إنشاد القرآن هو أول ما جعلنى أتعلق بالغناء ، وأتعلم كيف يتموج الصوت ، وكيف أصعد به على طبقات .

والواقع أن الذى نقلنى إلى حب الشعر وتذوقه هو « أحمد رامى » . فقد التقيت به حوالى عام ١٩٢٢ - جاء به صديق له « محمد فاضل » ، كان قد دعاه ليستمع إلى إحدى حفلاتى التى كنت أقدمها فى الأزبكية . وكان عائداً لتوه من باريس بعد أن

أتم دراسته . ولكى أحييه غنيت له قصيدة « الصب تفضحه عيونه » . . ولم يتح لنا أن نلتقى على الفور بعد ذلك ، لأننى سافرت إلى مصيف رأس البر . فلما عدت اتصلت به ، وقلت له إن الجمهور يجب أن ينتقل من الأغاني المسفة التى يسمعها ، إلى القصائد والشعر العظيم على مراحل . فقال رامى : ولكنى أعددت لك قصيدة «إن حالى فى هواها عجب » .

قلت بعد أن قرأت كلماتها : تبدو فى كلماتها السهولة . . . سوف أغنيها ، ولكنى أفضل أن تستعمل فى كلمات الأغاني ما هو سهل ومتداول . . ما يمكن أن يفهمه الناس دون عناء .

فقال باحتجاج : هو هو الذى يسمعه الناس الآن .

فقلت : أنا أريد خطوة أبعد ، خطوة أوسع . . . أريد لغة مثل لغة الصحف . . يفهمها كل الناس ، فلا هى إسفاف . . ولا هى ألغاز .

وقدم لى رامى أغنيات : « إنت فاكراى ولا نسيانى » و « إن كنت أسامح وأنسى الأسية » . ثم انتقل من هذه الطقاطيق إلى معلقاته الغنائية :

« سهران لوحدى » - « غلبت أصالح » - « جددت حبك ليه » - « يا ظالمنى » - «ياللى كان يشجيك أنينى » - و « هلت لىالى القمر » .

واستطاعت هذه الأغاني بالفاظها السهلة أن تأخذ الجمهور بعيدا عن أغاني الإسفاف التى سادت زمنا .

ولكن يبقى « لرامى » فضل آخر ، هو أنه جعلنى أتعلق بالشعر . فقد كان يعمل فى دار الكتب . وكان يحضر لى دواوين الشعر فأقرأ . أقرأ بصوت عال . فأسمع موسيقى الشعر . وأناقشه فى المعانى ، فيضيف إلى ما فهمته . وأحس أننى أغوص إلى أعماق جديدة فى بحور الشعر .

وعلى يد « رامى » قرأت الأغاني فى أحد عشر جزءا . وقرأت كليلة ودمنة - وقرأت لكل الشعراء القدامى ، حتى تمنيت يوما أن أكون شاعرة . وأحس رامى بهذا . . وكان

يقول لى : لا عليك أن تكونى شاعرة ، إن تذوق الشعر وحده موهبة .

ولعل هذا التذوق ، وحفظ ألوف الأبيات الشعرية بين قديم وحديث ، هو الذى أعاننى بعد ذلك على أن أختار من قصيدة فيها مائتا بيت ، ثلاثين بيتا أغنيها ، فلا يحس المستمع أننى قفزت من بيت إلى بيت . . فتركت عشرة أبيات أو عشرين بيتا . بل لعل هذه الرحلة مع الشعر هى التى مكنتنى من أن أضع كلمة - مكان كلمة - فى قصائد كثيرة ، أو أغنيات كثيرة ، فلا يحتاج أصحابها لأنهم لم يحسوا أننى قصمت ظهر بيت . . . أو غيرت المعنى .

وإذا كان الشعر موسيقى . وقد غاص فى أعماقى الكثير من هذه الموسيقى ، فإننى أؤكد أن تصرفى فى اللحن كلما أعدت غناءه ، مرجعه إلى هذه الأعماق الزاخرة بموسيقى الشعر ، التى لا تفترق فى شىء عن موسيقى الآلة الموسيقية . ولو راجعت أغنية طويلة غنيته خمس مرات فى خمس حفلات ، فإنك لن تجد كل مرة مثل الأخرى . . لأننى لست أسطوانة تدور ، بل إنسانة تنفعل بما تقول .

وأحمد رامى هو من جعل للأغنية بداية ونهاية - جعل لها وحدة تشبه وحدة القصة المكتوبة ، يشوقك السطر الأول فيها إلى السطر الأخير . وهذه المدرسة الراقية قلدها عشرات بعده ، فلم يغضب . بل لقد تعاونت مع عشرات غيره فما احتج . وظل يفعل فيضع أغنياته لى التى تتفوق دائما فى رقتها . . والتى تعرفها من أول شطرة فى أول بيت منها . وحين رحنا ننتقى من رباعيات الخيام بدا حائرا . فالشاعر يحس أن من يهدف من قصيدته بيتا يقطع من لحمه قطعة . ولهذا نحيت عن المهمة الصعبة ، وقمت أنا بالاختيار . فارتاح إلى النتيجة . ولعل رباعيات الخيام من أحلى ما غنيت على الإطلاق .

واستطاع أحمد رامى أن يضع بالكلام السهل المتع صورا أخذاء ، ومعانى رائعة حين قال :

من كثر شوقى سبقت عمرى وشففت بكرو والوقت بدرى . .

كذلك جاءت أبياته :

فضلت أعيش بقلوب الناس وكل عاشق قلبى معاه
شربوا الهوى وسابوا لى الكاس من غير نديم أشرب وياه .

وروت أم كلثوم عن بيرم التونسي . . فقالت :

« . . فضلا عن شاعرية بيرم ، فقد كان « دودة كتب » كما يقولون . كان يقرأ فى كل اتجاه . . والحقيقة أننى كنت أستفيد من قعدائى معه ، لأنه موسوعة . وكانت له طباعه التى تدل على الكبرياء والأنفة . وكنت أعرفه من أول كلمة يقوها ، إذا تحدث بالتليفون . وكانت عادته أن يقول كل طلباته فى بضع كلمات ، ثم ينهى المكالمة قبل أن أجيب بكلمة .

كان بيرم يقول دائما إن التليفون اخترعوه لقضاء الحاجة . وقضاء الحاجة لا يحتاج لأكثر من دقيقة كلام . وكنت أدعوه إلى بيتى لأسمعه وهو يتحدث عن البخلاء ، ويروى من نوادرهم ، ويقول الشعر الذى يهجوهم . ولكنه إذا انتهى من حديثه سكت . فلا يتكلم إلا إذا دفعته للكلام دفعا .

وكان الذين لا يعرفونه يتصورونه فظا . . مع أنه رقيق الحاشية . مرة طلب إلى أن أوصله إلى بيته بسيارتى . فقلت : يوصلك السائق . فقال بصراحة : بل وأنت معى ، حتى تراك القهوة التى أجلس عليها ، والحارة التى أسكن فيها . وكنت أردد دائما فكاهاته . فلما أقيمت لى إحدى حفلات التكريم وقف يقول : يا باسطة كل الناس وفاضحانى .

وتستطرد أم كلثوم فى حديثها فتقول :

« . . غنيت لعشرين شاعرا غير هؤلاء . غنيت « هذه ليلتى » لجورج جرداق اللبناني ، و « البندقية » لنزار قبانى السورى . . و « أغدا ألقاك » لأدم السودانى ، و « ثورة الشك » لعبد الله الفيصل السعودى « ودارنا يا دار » لأحمد العدوانى

الكويتي . . فإننى أحس أننى مطربة كل البلاد العربية . . وخطتى أن أغنى لشاعر من كل بلد .

لقد غنيت لكل شعراء مصر تقريبا . . غنيت لصالح جودت « ثلاثيته المقدسة » وشعر صالح فيه رائحة شعر ناجى . . فضلا عن أنه رفيق « رامى » . وغنيت لمأمون الشناوى ، وعبد الفتاح مصطفى ، وعبد الوهاب محمد ، ومرسى جميل عزيز . أما أحمد شوقى . . فهو أمير الشعراء حقا .

وعن لقائهما مع أحمد شوقى قالت :

« التقيت بأمير الشعراء أحمد شوقى فى أواخر أيامه . وكانت أول مرة رأيته فيها فى محل سولت فى شارع فؤاد القديم بجانب شيكوريل . وكان معه « محمود فهمى النقراشى (باشا) والدكتور « محبوب ثابت » . وقد دعانى إلى الغناء فى الفيللا التى كان يسكنها على النيل حاملة اسم « كرمة ابن هانى » ، فذهبت مع أبى وأخى . وغنيت ليلتها كما لم أغن من قبل ، ورأيتة يتمايل طربا . ولكنه يقطع النشوة التى هو فيها فيختفى لدقائق ثم يعود إلينا ساهما . ولم أكن أدري لماذا يختفى ، فهمس أبى فى أذنى ، إنه إلهام شعر يجيئه ، فيقوم ليذون شيئا ثم يعود . وفى صباح اليوم التالى ، جاءنى من يقول :

الحقى يا ست . . شوقى بك أمام الباب الخارجى . . فهرولت لأجده . . كان وجهه مضطربا بابتسامة طيبة . وقد دفع إلى بمظروف . . وهو يقول : هذه هدية متواضعة تعبر عن إعجابى .

وترددت . . فقد ظننت المظروف ينطوى على أجر لى . ولكنه قاوم ترددى حين قال :
- لم أتكلف فى الهدية شيئا . . إنها من وحيك .
وفتحت المظروف لأجد قصيدة :

سلوا كثوس الطلا هل لا مست فاهها
واستخبروا الراح هل مست يداها

ولكنى لم أغن الأغنية فى حياته . . غنيتها بعد موته . . وغنيت له بعد موته عديدا

من قصائده منها :

سلوا قلبي - وريم على القاع - وولد الهدى - إلى غير ذلك .
 وكنت أقتنى دواوينه ، وأضعها بجانب فراشي قائلة : إن ثروة مثل هذه يجب أن
 تكون دائما في متناول يدي . وكانت قصائد شوقي آخر ما يحتضن عقلي وعيني قبل
 النوم . وكنت لا أكاد أسمع عن مسرحية مما كتب تمثل في مسرح الأوبرا ، حتى أذهب
 لرؤيتها عدة مرات . ولست أنسى على وجه الخصوص « مجنون ليل » - و « وأنطونيو
 وكليوباترة » . وقد رأيت في أدوار البطولة الفنانة العظيمة « فاطمة رشدي » والفنانة
 القديرة « أمينة رزق » . فأنا متعصبة لشوقي تعصبا لا حد له . . فلم يجد ولن يجد
 الزمان بمثله . إنني أضعه في مرتبة تسبق مراتب البحترى . . والشريف الرضي ، وعمر
 ابن أبي ربيعة . ما أروعه وهو يقول :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
 أو وهو يقول في قصيدة النيل :
 « والأرض تفرقها فيحيا المفرق »
 أو وهو يضع دستور الأخلاق في بيت :

إنما الأسم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهب أخلأهم ذهبوا
 ومرة كنا في بيت « شارل حلو » رئيس جمهورية لبنان السابق . وكان التلفزيون
 ينقل حوارا بين أناس يقارنون بين شوقي ومطران . فغضبت ، وقلت لهم : شوقي لا
 يقارن بأحد . . لأن المقارنة فيها ظلم لهذا الأحد . وضربت المثل ليلتها بروعة شوقي
 حين اغترب في المنفى . وكان في الأندلس فأرسل قصيدته :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا ناس لواديك أم ناس لوادينا
 حتى يقول :

مسكية الذيل لو خلنا غلالتها قميص يوسف لم نحسب مغالينا
 وبين ما يقوله شوقي وأذان المستمعين جسر من حب وشغف . فهو الشاعر الجزل

السهل . ولكنه أحيانا يقول شعرا رصيناً يحتاج في فهمه إلى جهد . وعندما غنيت قصيدة « ولد الهدى فالكائنات ضياء » كنت مترددة لأنها صعبة . ولكنى غنيتها لأنها أخذتني بمعانيها الصوفية العميقة .

و ذات ليلة كنت في الإسكندرية وذهبت إلى كازينو الشاطبي ذات مساء . . هناك تتناثر الملاهى التى تقدم الفنون المختلفة . وبلغ سمعى من ميكروفون مرتفع الصوت . . صوت مطربة تغنى :

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى . . .

وليلتها أحسست بسعادة لا توصف ، لأن معنى ما سمعت ، أن شوقى أثير عند الناس في كل ما قال . «

وعن حافظ إبراهيم قالت :

« مرة طلبوا منى أغنية وطنية . . وقالوا لى : كلفى من تشاين من شعراء الأغانى لينظم قصيدة فى أسرع وقت . . لتغنيها فى أقرب فرصة .

فلما عدت إلى البيت تذكرت أننى أحفظ لشاعر النيل « حافظ إبراهيم » قصائد رائعة . . وعكفت على ديوانه . . وانتقيت قصيدة من ديوانه . ورحت أختار أبياتا تغنى من بين أبياتها العديدة . وقبل أن أنام . . . فى الرابعة فجرا . . كنت أدندن باللحن بيته الرائع :

أنا إن قدر الإله ممتاى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

وعندما وقفت لأغنى القصيدة أحسست أننى وفيت دينا فى عنقى لشاعر لم أره . ولكن من حقه على أن أحمل رائعة من روائعه إلى الجماهير العربية . «

وعن الشاعر على الجارم قالت :

« من شعراء القصيدة الواحدة فى حياتى المرحوم « على الجارم » الذى كان كبير مفتشى اللغة العربية . كان فى شعره فحولة الشعراء القدامى . ولما كان د . النجريدى عاشقاً للموسيقى ، فقد اختار لى من أشعار الجارم . قصيدة : « مالى فتنت بلحظك

الفتاك » . . ولحنها الى . . ولا أنسى هذه القصيدة فقد كانت أول أسطوانة سجلتها عام ١٩٣٦» .

وعن د . إبراهيم ناجي قالت :

«ولا أنسى الشاعر الدكتور «إبراهيم ناجي» . . وقد رأيته حين كان يزور نقابة الموسيقيين ، وكان يبدو بائسا محطما . يجلس إلى الموسيقيين ، فتحس أنه يطوى صدره على قصة حب بلا أمل . ولم نتحدث في الشعر مرة واحدة . ولكنى كنت أحس فيه رقة المشاعر التي لا بد أن تؤتى ثمارًا فنية طيبة ، سواء شعرية أو موسيقية . وقرأت له ديوانه بعد أن مات . ووقفت عند الأطلال :

« وهل رأى الحب سكارى مثلنا »

ودفعت بالقصيدة إلى رياض السنباطي الذي قال :

- «ستكون الأطلال حدثا فنيا . . لا نظير له » .

ولعل الذي يميز ناجي صدق إحساسه ، فإن صدق الإحساس هو شرط النجاح

في أى عمل فنى .

يقول مصطفى أمين :

« تعلمت أم كلثوم من شوقى أمير الشعراء ، ومن أحمد رامى ، ومن إبراهيم ناجي ، ومن العقاد ، ومن المتنبي ، ومن أبى العلاء . وكانت تجلس أمام كل واحد من هؤلاء أشبه بتلميذة . وكانت تجلس في غرفة نومها تحفظ الشعر وكأنها ستتقدم في اليوم التالى لامتحان صعب .

ولم تكن أم كلثوم في معظم حياتها الفنية مجرد مطربة تردد أغانيها لمجرد التطريب والشهرة . . وجمع المال ، وإنها قيمة أم كلثوم الحقيقية في أنها كانت فنانة ملتزمة .

والملاحظ أنه منذ عام ١٩٢٢ عندما نزلت أم كلثوم إلى القاهرة ، التف من حولها خيرة الأدباء والشعراء والموسيقيين . . مفتونين بجمال صوتها . كل منهم يبذل ويعطى من عصارة روحه أجمل الكلمات ، لتشدو بها صاحبة الحنجرة الذهبية . . فتطرب الملايين .

لقاء أم كلثوم وأحمد شوقي :

كانت أم كلثوم على علم بالصلة القوية التي جمعت أمير الشعراء بالفنان محمد عبدالوهاب . وعلى الرغم من أنها أعجبت بشدة بديوان أحمد شوقي ، فإنها لم تقدم على غناء إحدى قصائده ، نظرا لاهتمام شوقي بمنافسها على عرش الغناء « محمد عبدالوهاب » .

دعا أحمد شوقي أم كلثوم لحفل أقامه في فيلا « كرامة ابن هانئ » عام ١٩٣١ ، وفيه غنت طقطوقة « الى حبك يا هناه » (زكريا أحمد) . أعجب أحمد شوقي بصوت أم كلثوم وأدائها . . فنهض من مكانه وقدم للفنانة كأسا من الشراب ، رمزا للتحية والإعجاب . وأخرجت أم كلثوم . وتأدبا منها لهذا الرجل العظيم ، أمسكت بالكأس ورفعته إلى فمها دون أن تمس شفتيها الخمر . ثم أعادت الكأس إلى مكانه . وفي اليوم التالي ، ناول أحمد شوقي أم كلثوم أبياتا من الشعر مكتوبة بخط يده يقول فيها :

سلوا كنوس الطلا هل لا مست فاهها

واستخبروا الراح هل مست ثناياها

وقيل إن شوقي صرح باسم « أم كلثوم » في القصيدة مرتين : أولاها في البيت « سل أم كلثوم من بالشرق طارحها » والذي غنته أم كلثوم : « حمامة الأيك من بالشوق طارحها » . والمرة الثانية في البيت الأخير حين قال : « يا أم كلثوم أيام الهوى ذهبت » والذي غنته أم كلثوم :

يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت كالحلم آها لأيام الهوى آها

قرأت أم كلثوم هذه الأبيات وحفظتها في مكتبها ، ولم تجرؤ على غنائها إلا في منتصف الأربعينيات ، بعد وفاة أمير الشعراء ، فدفعت القصيدة إلى رياض السنباطي ، ليصنع منها تحفة غنائية . وغنت أم كلثوم هذه القصيدة عام ١٩٤٦ وسجلتها على أسطوانة كايرونوفون .

ومن العجيب أن هذه القصيدة لا وجود لها في الأجزاء الأربعة من ديوان

الشوقيات . ولولا احتفاظ أم كلثوم بالورقة المدون بها نص القصيدة ، لا نضمت إلى الشوقيات المجهولة أو الضائعة .

غنت أم كلثوم من أشعار أحمد شوقي تسع قصائد . لم تكن قصيدة سلوا كئوس الطلا أولى هذه القصائد . وإنما غنت أم كلثوم عام ١٩٣٦ قصيدة « الملك بين يديك في إقباله » وذلك بعد وفاة أحمد شوقي بأربع سنوات ، ثم تلتها قصيدة « سلوا كئوس الطلا » .

وقصيدة « الملك بين يديك في إقباله » كان شوقي قد ألفها عام ١٩١٠ ، مدحا للسلطان محمد رشاد الخامس الذى كان يحتفل بعيد جلوسه على عرش السلطة والخلافة العثمانية ، بعد السلطان عبد الحميد الثانى المعزول عام ١٩٠٨ . أعجبت أم كلثوم بهذه القصيدة ، وعهدت إلى السنباطى بتلحينها ، وغنتها بمناسبة تولى الملك فاروق سلطته الدستورية عام ١٩٣٦ . وعرفت بقصيدة « عرف الدهر » .

ومن شعر أحمد شوقي غنت أم كلثوم قصيدة « أتعجل العمر » و « النيل » و « بأبى وروحى » التى غنتها أم كلثوم بمناسبة توقيع معاهدة الجلاء ، بين حكومة الرئيس جمال عبد الناصر ، والحكومة البريطانية .

وأول قصيدة دينية غنتها أم كلثوم من شعر أحمد شوقي هى : « سلوا قلبى » التى ألفها شوقي فى العشرينيات مدحا فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ذكرى مولده . جاء الجزء الأول من القصيدة فى الوعظ والحث على الكرم والبعد عن الشر ، والدعوة إلى طلب العلم . وجاء فى ختام القصيدة ذكر النبى عليه الصلاة والسلام ، منوها بأنه هو الذى علم الإنسان بناء المجد حتى صار سيد الدنيا . . فى البيت الذى يقول فيه :

وعلمنا بناء المجد حتى أخذنا إمرة الأرض اغتصابا

ويُروى أنه عندما غنت أم كلثوم البيت الشعرى :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وكان ذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أن نهض المستمعون يطالبون المحتلين
بجلاء قواتهم عن أرض مصر .

وبعد نجاح قصيدة « سلوا قلبي » ، غنت أم كلثوم قصيدة « نهج البردة » و « ولد
الهدى » و « إلى عرفات الله » وهى القصيدة التى امتدح بها شوقى الخديوى عباس
حلمى الثانى ، عندما سافر إلى مكة لأداء فريضة الحج .

والقصائد التسع التى غنتها أم كلثوم من شعر أحمد شوقى لحنها رياض
السنباطى .

ودفعت أم كلثوم لورثة أحمد شوقى ألف جنيه عن كل قصيدة سجلتها من شعره .
وبقصائد أحمد شوقى نقلت أم كلثوم الشعب - الذى تعود أن يستمع إليها فى أغان
باللهجة العامية القريبة إلى الشعبية مثل : « إيه اسمى الحب » و « الأوله فى الغرام »
وكلها من كلمات بيرم التونسي وألحان زكريا أحمد - إلى قصائد جادة .

وأدخلت أم كلثوم بعض التعديلات فى أشعار أحمد شوقى . ففى قصيدة « نهج
البردة » غيرت أم كلثوم كلمة واحدة فى البيت الذى يقول فيه شوقى :

لقد أزلت أذنك أذنا غير واعية . ورب منتصت والقلب فى صمم

طلبت أم كلثوم من الشاعر أحمد رامى تغيير كلمة منتصت ، فاستبدلها رامى بلفظ
« مستمع » .

وعام ١٩٤٦ ، غنت أم كلثوم قصيدة نظمها أحمد شوقى فى العشرينيات ، عندما
أطلق أحد الشبان الرصاص على سعد زغلول ، لاعتزازه السفر إلى لندن لمفاوضة
الحكومة البريطانية حول قضية الجلاء والاستقلال .

وتبدأ هذه القصيدة بأبيات تعبر عن الفرح لنجاة الزعيم والتهليل لشفائه من جرحه
البسيط :

نجا ومثائل ربانها ودق البشائر ركبانها
تحول عنها الأذى وانثنى غياب الخطوب وطوفانها
وفي الأرض شر مقاديره لطيف السماء ورحانها

ونظرا لأن هذه القصيدة قدمت بمناسبة الوحدة بين مصر والسودان ، فقد حذفت
أم كلثوم بعض الأبيات . وأخذت أبياتاً أخرى قالها شوقي عن السودان . وبذلك
جمعت أم كلثوم في أغنيتهما بين وحدة مصر والسودان .

والمعروف أن أم كلثوم لم تكن دائماً تأخذ قصيدة كاملة من ديوان شعري واحد . .
وإنما كثيراً ما كانت تجمع بين أكثر من قصيدة في عمل واحد كي يطابق الزمن والمناسبة
التي تغنيها . ووجدت أم كلثوم في قصائد شوقي القديمة ما يتمشى مع الحوادث
الجديدة . . وكانت من أشد المعجبات بأشعار أحمد شوقي .

ومن أشعار شوقي غنت أم كلثوم قصيدة « النيل » :

من أى عهد في القرى تتدفق وبأى كف في المدائن تغدق

وكان شوقي قد أهدى هذه القصيدة إلى صديقه المستشرق « مرجليوث » أستاذ
اللغة العربية وآدابها في جامعة أكسفورد . اختارت أم كلثوم من بين هذه القصيدة
الطويلة التي تزيد أبياتها على مائة وخمسين بيتاً ، بضعة أبيات لحنها رياض السنباطي
فجاءت درة نادرة .

لقاء أم كلثوم بأحمد رامى :

في يوليو عام ١٩٢٤ التقت أم كلثوم بالشاعر أحمد رامى . . ولهذا اللقاء ذكرى بل
ذكريات عزيزة في قلب ووجدان شاعر الشباب . . فهو يقول : « بينما أنا أدرس اللغة
الفارسية في باريس عام ١٩٢٤ ، نما إلى علمي أنه ظهر في سماء مصر كوكب جديد
من كواكب الفن ، فتاة في ميعة الصبا تغني القصائد والموشحات . وقيل لي إنها تغني

قصيدة من قصائدي مطلعها « الصب تفضحه عيونه » ، أخذتها عن عميد الغناء في ذلك الحين ، المرحوم الشيخ أبو العلا محمد ، الذي أخذ الغناء عن فقيد الفن عبده الحامولي . وأثار هذا الخبر فضولي . فكان أول همي عند عودتي إلى الوطن ، أن أسمع ذلك البلبل الجديد . فأخذت أبحث عن كيفية سماعها ، وكانت تغني في « حوش » صغير بحديقة الأزبكية . فإذا جمع محتشد ينتظر حضور هذه الشادية . وما إن هلت على الحاضرين ، حتى تطلعت الأنظار إليها ، وأرهفت الأسماع . وبدأت تنشد ، فإذا صوت ساحر ، وإذا خفة ظل وبشاشة وجه ، وإذا طرب ينساب ويحمل النفوس إلى أجواء ساحرة .

وتقدمت إليها معرفاً نفسي ، راجيا منها أن تغني قصيدتي ، فلبت طلبى ، وهي فرحة للقاء ذلك الشاعر الذي غنت شعره قبل أن تتعرف عليه .

وأجادت ما تمكنت لها الإجابة ، واستمعت لها وأنا في ذهول من هذا الصوت النادر الذي يتردد في جنبات الحديقة . وعدت إلى منزلي في تلك الليلة ، ولا يزال يتردد في سمعي رجوع تلك الشادية ، ولم يستقر لي قرار حتى لقيتها مرات تالية ، نهلت فيها من ينبوع ذلك النغم الذي أشبع روحي ، وأمد خيالي بالصور الجميلة ، وغذى نفسي وخاطري ، وجاد بالوحى والإلهام . فنظمت لها عشرات الأغاني التي أصبحت تجري على الألسن ، وتتردد في سماء مصر وكافة الأقطار العربية . وشرف اسمي بالاقتران باسمها . . فأفسحت لي إلى جانبها مكاناً في سجل الخلود .

ومن وحي أم كلثوم نظم أحمد رامى ثلاث قصائد :

القصيدة الأولى (*). ونظمها في عام ١٩٢٤ ، والثانية أيضاً في السنة نفسها . أما الثالثة فقد نظمها سنة ١٩٣٢ في مؤتمر الموسيقى العربية .

(*) نظمها في ١٤ سبتمبر عام ١٩٢٤ أثناء سفر أم كلثوم إلى رأس البر . ولما عادت قدمها إليها في إحدى حفلاتها بكازينو البوسفور .

القصيدة الأولى

وأرسل المكنون من أد معى
للشعر ثمره المنبع
والبره في اليأس والموجع
قلب شديد الخفق في أضلعى
ضلل به الفجر فلم يطلع
ونام نوم الطفل في المضجع

منحدر من دمعى الطيغ
يشكو تباريح فؤادى معى
منظومة الحبّات من مدمعى

من راح بالقلب ولم يرجع
عاد إلى الود ولم يقطع
صوتك يسرى في مدّى مسمعى
قد جف من نفسى ولم ينبع
دفنت من حبى ومن مطمعى

صوتك هاج الشجو في مسمعى
سمعته فانساب في خاطرى
ودب في نفسى ديب المنسى
سلوى من الدنيا تعزى بها
طال به السهد كأن الدجى
حتى إذا غيّت ذاق الكرى

كأنما لفظك في شذوه
فيه صباباتى وفيه الضنى
نظمت أشعارى وغنيتها

أودعتها الشكوى فما رقى لى
ولو تغنيت بها عنده
حسبى من الشعر ومن نظمه
غنى وخلي الدمع يروى الذى
لعل في صوتك إحياء ما

والقصيدة الثانية (*)

ناجيت فيه حبيبى
ورجعت من نحيبى
تنادى حبى وحبيبى
وكان غير رطيب
من بعد طول النضوب
بصوتك المحبوب

يا من شعرت بنسيب
ورددت من شكاتى
وأودعت في الأغانى
أنضرت غصن الأمانى
فجرت عين خيالى
أغنت حزن فؤادى

(*) نظمها في ١٨ سبتمبر ١٩٢٤.

وظل روحى الغريب
فى العيش من تعذيب
شريكتى فى نصيبي
وهان حمل خطوبى
خيال تلك الكرب
نجيئه فى القلوب
ك من هووى وحيب

وكنيت مألّف حسّى
شاطرتنى ما ألقى
وكنيت فى البث عنى
فخفف عبء همومى
وزال من ليل سهدى
وأنس اليوم قلبى
حتى غيت بنجوا

والقصيدة الثالثة (*):

وجادت بظلمها الفينان
ولما تهمّ بالطيران
متى فيضّه من الأجفان
وحامت على الرضى والمغانى
سحرها فى القلوب والأذان
حنة الناي أو أنين القيان
من هموم الحياة والأحزان
للمعنّى ورحمة للعانى
يطلق الروح فى سماء الأمانى
ومن رقة النسيم الوانى
ولهاة كخالص الرنان
بين الآى وأضح التبيان
النطق سليما وتستبين المعانى
وغابت فى مستقر الجنان

كرمت دوحة رعت أم كلثوم
فهى قمرية تغنت على الفرع
ثم أنت ولم تكد تعرف الدمع
واستوى ريشها فخفت على الأيك
تبعث الشجوى فى النفوس وتلقى
رنة العود شدوها وهداها
خُلِقَتْ آهة فكانت عزاء
وجرت دمة فكانت شفاء
وسرت أنه فكانت غناء
وبراها الخلاق من خفة الظل
وترا مطرب الحنين أغنا
ترسل الشعر منطقا عربيا
تتناغى الألفاظ فيه من
فإذا صورة تجلت إلى العين

(*) ألقاها رامى فى الحفل الذى أقامه معهد الموسيقى العربية بعد انتهاء أعمال مؤتمر الموسيقى العربية الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٣٢ . . وغنت أم كلثوم قصيدة : (أفديه إن حفظ الهوى أوضيح)

أغاني رامى لأم كلثوم (مواقف إنسانية - ورسائل حب) :

لم يتقاض أحمد رامى نقودا على ما ألف من أعمال لأم كلثوم . . . باستثناء أغاني
الأفلام - التى يقوم المنتج بدفعها . . وليست أم كلثوم . كان يوم الاثنين من كل
أسبوع . . لقاء القليين .

وجاءت أغاني رامى لأم كلثوم تجارب عاشها . . عبر عنها بالكلمة ، وغنتها
حجارة أم كلثوم . . عبرت عن الصدق بينهما .

أيها الفلك على وشك الرحيل
إن لى فى ركبك السارى الخليل
رقرت عيناي لما قال لى حان الوداع
وبكى قلبى مما ذاع فى الكون وشاع
(كتب رامى هذه الكلمات يودعها عند سفرها إلى أوروبا)

وجاءت رسائله لها فى أوروبا :

طقطوقة « إنت فاكرانى ولأ ناسيانى » وطقطوقة « ليه تلاوعينى وإنت نور عينى » .
أما أغنية « رقى الحبيب » ، فكتبها رامى وهو فى حالة صفاء .
وعندما كان رامى ذات يوم فى طريقه إلى أم كلثوم ، فتح الكويبرى فجأة ، وأحس
بأنه يكاد يغرق . . وتذكر موعد الحبيب . . فحل الأمل مكان اليأس :

ولما قرب ميعاد حبيبى ورحت أقابله
هنيت فؤادى على نصيبى من قرب وصله
ولقيتنى طایل م الدنيا كل الى أهواه
بس الى كان فاضل ليه أسعد بلقاه
لما خطر ده على فكرى حير أمرى
والقرب سبب تعذيبى

ولقيتني خايف على عمري لا يروح مني

من غير ما أشوف حسن حبيبي .

وأغنية « غلبت أصالح في روحى » نظمها رامى عندما تصالحا بعد جفوة ، وكانت يدها مريضة . . لا تقدر على تحريكها . . فكان رامى يطعمها بيده هو . . فبكت تأثرا . . ونسى رامى وغفر . . وجاء بهذه الكلمات :

غلبت أصالح في روحى عشان ما ترضى عليك

بعد سهدى ونوحى ولوعتى بين إيديك

وفى ساعة صفاء خالصة أبدع رامى (١٩٥٢)

جددت حبك ليه بعد الفؤاد ما ارتاح

حرام عليك خليه غافل عن الى راح

قيل عن أم كلثوم ، إنها عرفت بذكائها اللهاج . . أن رامى شاعر يشغله الحرمان . فلكى تستبقى الشعلة متوهجة أمعن في تلويحه . . وإن كان له مكان خاص عندها .

غنت أم كلثوم لرامى أكثر من ثلث قرن . . ويقول هو : « لم يشاركنى فيها شاعر خمسة وثلاثين عاما . (من العشرين إلى الخمسين) . كان رامى صادقا . . لم يتجاوز الواقع ، إذا ما استثنينا قصائد أحمد شوقى - وبيرم التونسي - وقصيدة حافظ إبراهيم « مصر تتحدث عن نفسها » وقصيدة الأسمر « زهر الربيع يرى أم سارة تحب » .

رافق أحمد رامى أم كلثوم في رحلتها الفنية أكثر من نصف قرن . شدد فيه من كلماته ما يقرب من ثلاثمائة أغنية وقصيدة .

قال أحمد رامى :

« سبب إعجابى بغناء أم كلثوم يرجع إلى الاتفاق التام بينى كمؤلف وبينها كمغنية ، وبين من يلحن لها قطعتى . وقد كان استمرارى معها فى أن أرضى بما يقترح

من إضافة وحذف وتغيير . . فما دمت أقتنع بصحة الرأي . فأنا أمثل أحد السامعين لهذا الغناء . . ويهمنى أن يكون الرضا مضموناً عن القطعة المغناة . »

كان رامى قبل أن يلتقى بأم كلثوم ينظم القصيدة الشعرية وحدها . ولم يكن يخطر على باله أنه كشاعر غنائى سينزل عن عرش الشعر ليخاطب جمهور الغناء بالزجل العامى . لكن أم كلثوم وصلته القوية بها ، استطاعت أن تجعله يطرق ميدانا جديدا يمزج فيه الشعر بالزجل ليكون خفيفا على المستمع . فنظم أول مونولوج « خايف يكون حبك ليّ شفقة عليّ (١٩٢٧) .

كان يوم الاثنين يوم إجازة دار الكتب التى كان رامى موظفاً بها . . كان هذا اليوم هو لقاء أم كلثوم ورامى . . يسميه هو يوم أم كلثوم ، وتسميه هى يوم رامى . وظل يوم الاثنين فى عمر رامى خالصاً لأم كلثوم حتى بعد زواجه . . فلم تستطع زوجته استخلاص يوم الاثنين الذى يقضيه رامى فى ضيافة أم كلثوم .

بعد لقاء رامى بأم كلثوم ، وضع فى إصبعه خاتماً مكتوباً عليه O. K. أى أم كلثوم . . وبقي هذا الخاتم فى إصبعه إلى يوم وفاته .

ألهمت أم كلثوم أحمد رامى أحلى قصائده ، وأعذبها . . ومن أجلها نظم مئات الأغانى من الطقايق والمونولوجات باللهجة العامية ، بعد أن كان لا يكتب غير الشعر الفصيح . وهو ما حدث لأحمد شوقى مع محمد عبد الوهاب . . فقد نظم شوقى العديد من الأغانى باللهجة العامية ، ليشدو بها عبد الوهاب .

وعن علاقة أحمد رامى بأم كلثوم يقول « مدحت عاصم » :

« . . كانت علاقة خاصة مثل البحار والمحيطات . . علاقة أعمق وأشمل وأقوى من أن يصفها الإنسان ببضع كلمات . علاقة جمعت كل أحاسيس ومشاعر الفنان حسا وروحا . كان كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة خاصة ، يفلسفها من خلال رؤيته وحده . كان كل منهما فى حاجة إلى الآخر . لم يكن احتياجا ماديا أو أدبيا أو جسديا ، بل كان احتياجا معنويا فى المقام الأول . لهذا ظلت علاقتهما ذات وضع خاص ، وفى

الوقت ذاته احتفظت بسموها ورفعتها وخلودها . . تماما مثلما خلدت أعمالها الفنية معا .

قال رامى : (٦)

« إن أيامى كلها . . أم كلثوم . . زفانى أحيتة أم كلثوم . وغنت فيه « يا نجم مالك حيران بين الغمام والليل داجى » . وفى اليوبيل الفضى لزواجى غنت لى : « هجرتك يمكن أنسى هواك » و « أودع قلبك القاسى » . عشق أحمد رامى صوت أم كلثوم ، وراح يأخذ منه الإلهام ويقدم له الإبداع . . يقول رامى :

« إنك إذا أردت أن تكون شاعرا ، فاقرا الشعر الجيد من الشعر العربى والعالمى ، وأكثر من الاستماع لى أم كلثوم . ذلك لأنها تجلو الألفاظ وتجعلها واضحة شجية » . وقد وجدت أم كلثوم الفرصة للعودة إلى المدرسة والجامعة التى تعلمت فيها . . جامعة الشيخ أبو العلا الذى قدم لها مجموعة من القصائد الغزلية ، ذلك أنها قد وجدت فى ألحان السنباطى لهذا اللون الغنائى ما يناسب صوتها وثقافتها وقدرتها الغنائية . وقدمت من ألحانه مجموعة كبيرة من أعمال كبار الشعراء العرب القدامى والمعاصرين . من هذه القصائد : « ثورة الشك » و « النيل » و « مصر تتحدث عن نفسها » و « من أجل عينيك » و « غدا ألقاك » و « ورباعيات الخيام » وغيرها .

خلاف بين أم كلثوم ورامى :

أقام معهد الموسيقى الشرقى حفلا كبيرا ، تكريما لأم كلثوم ، وذلك عام ١٩٣٢ . وقام أحمد رامى بإلقاء قصيدة تكريما لأم كلثوم . واتهمت مجلة روز اليوسف (العدد ٢٦٦ فى ١٣ / ٦ / ١٩٣٢) أحمد رامى بأنها نفس القصيدة التى كان قد كتبها تمجيدا فى محمد عبد الوهاب . ونشرت روزاليوسف القصيدتين فى مكان واحد من المجلة لتؤكد التكرار . وجاء عنوان المقال : « الشاعر أحمد رامى يهين أم كلثوم » . وتوسط المقال صورة كاريكاتورية لرامى يقدم لأم كلثوم القصيدة ملفوفة قائلا : « لى ثومه . . لى إلهة الوحى . . أقدم هذه القصيدة » . فيرد عليه عبد الوهاب قائلا بينه وبينها :

« حائب يائى رامى ، انت بتعطيها قثيدتى أنا »

وعندما التقت أم كلثوم برامي ، واجهته قائلة :
« أنا متأسفه الى عرفتك » .

وتقول د . نعمات فؤاد (٨)

« وأصاب السهم قلب الشاعر المحب فأدماه . وقفل الرجل عائدا إلى بيته . وآل
على نفسه ألا يسعى إليها بعد يومه هذا ، ولا يجدد لها عهدا . بل حرم على نفسه سماع
الراديو حين يذيع لها الحنا .

من أنت حتى تستبيحي عزتي فأهين فيك كرامتي ودموعي
وأبيت حران الجوانح صاديا أصلى بنار الوجد بين ضلوعي
أعمى عن الحسن الذى هامت به نفسى وطال إلى سناء نزوعي
وأصم عن نغم عشقت سماعه أيام كان القلب غير سميع
تري أى حسن ؟

ثورة عاتبة أعلنت عن نفسها بكلمتين (من أنت ؟)

لقد طارت على أجنحة شعره ، وسمت إلى سماء الأدب ، ببدايع الكلمة ، وروائع
المعنى ، ومنظم القصيد . مما أغرى الملحن بالارتفاع بالإبداع ليتسابق اللحن مع
اللفظ التياه ، ويتواءم النغم مع توشيح الشعر وفن الشاعر .

وظل الرجل في عزلته ثمانية شهور يتمزق في صمت ، ويسعى إليه الموفقون فيأبى في
شمم مستمهلا إياهم حتى يبرأ القلب الطعين . ويعاودونه فلا ترضى المعاودة كبرياءه
بل تنكأ الجرح القديم . . فيرفض من جديد . وذات يوم حملوا إليه في غضبه نبأ سفرها
إلى العراق بالطائرة وتبنيها الطيران ، إذ لم يسبق لها به عهد راجين منه توديعها . .
مهولين أمر سلامتها في السفر . ولكنه لم يلب . والتف حولها في المطار المودعون . .
الصادقون والمتملقون . . ولكنها كانت في شغل عن الجميع بالتطلع المستخفى
والتفرس المستتر في الوافدين على المطار . ولكن الغائب المنتظر عبثا يعود . ولم تفقد
الأملى حتى حان موعد قيام الطائرة ، فأمنت أن الأمر أكبر مما تصورت .

وعادت من رحلتها ، وهرع إلى استقبالها الكثيرون ، ولم يكن رامى بينهم !
وطالت الجفوة ، حتى جاء يوم مرضت فيه ، وقرر طبييها أن يستأصل لها الزائدة
الدودية.

ومن جديد ، سعى الساعون ليحملوه على زيارتها . وألحوا في اليوم السابق على
العملية - ٢٠ مارس سنة ١٩٣٣ - ، والعملية في ذلك الوقت كانت شيئا رهيبا -
باعتبارها في رأيهم بين الحياة والموت . فأذعن - كما يقول الفصحاء - بعد لآى .

ذهب إليها رامى في المستشفى ، وعادت المياه إلى مجاريها . ولكن حدث بعد حين
أن سافرت أم كلثوم إلى أوروبا . . وزار رامى في هذه الأثناء إحدى قرياته ، وكانت لها
فتاة رسبت في الامتحان . ودار الحديث حول الشابة الراسبة ، وأعربت أمها عن رغبتها
في وقفها عند هذا الحد من الدراسة واستبقائها بالبيت .

وهنا سنح لرامى خاطر ارتسم على وجهه . . واستطاعت أخته بغيرزة المرأة - وهى
رادار من نوع فريد - أن تنفذ إلى الخاطر السانح . . واتجهت الأخت إلى أخيها وقالت :
هيه . . ما رأيك ؟ فقال : ولكن من أين آتى بالمال ؟ قالت . أو ليس معك ما
يشترى خاتم الزواج ؟

وكان هذا هو ما يملكه رامى في تلك الساعة ، فأعطاه إياه ، وقبل أهل العروس
الوضع على هذه الصورة .

ودهش المحيطون به . . . أحقا يتزوج رامى المحب ؟ وكان جوابه :

نعم ، سأتزوج ، لأن نفسى تاقت إلى إنسان يحبني بلا غاية . يحبني لنفسى خالصا
مخلصا . تزوجت لأننى أريد أن أسمع أعذب كلمة في الدنيا « بابا » . وعادت أم كلثوم
من أوروبا وأنها إليها النبأ همسا « رامى تزوج » . وكان آخر خبر تتوقعه . ولكن أم
كلثوم الحصيفة سكنت أمام القول ، كأن الأمر لا يعينها . حتى إذا التقت برامى
بادرته قائلة : أحقا تزوجت يا رامى ؟ فقال لها وكأنه يعتذر أو يتهرب من السؤال
العاتب : « أصلها بنت يتيمة وهى قريبة لى . . حاجة على قдна . . »

وعن حب رامى لأم كلثوم نظم :

أرادونسى على أنسى أبوح وهل يتكلم القلب الجريح
وماذا يبتغون وفى فؤادى جوى أفضى الدمع الفصيح
نعم أهوى ولا أخفى غرامى ومن شرف الهوى أنى صريح . . إلخ .

ظلت أم كلثوم عروس أشعار أحمد رامى وقصائده . . والمعنى المتجسد للحب فى كل ما كتب .

ومن أخريات لقاءات رامى بأم كلثوم ، ذلك اللقاء عندما ودعها حين سفرها فى آخر رحلة علاجية فى الخارج . . ويومها ، وقبل أن يعود رامى إلى منزله . . جلس فى إحدى صالات المطار ، وكتب قصيدة طويلة يودعها فيها . . . وبدأ فعلا كأنه يودعها الوداع الأخير إذ يقول فيها :

وإن أنسى لا أنسى يوم المطار
وقد دنت الساعة القاضية
جلسنا مع الناس فى نجوة
وغبنا عن الأعين الفانية
أسابقتها فى شمس الحديث
عن الشوق والذروة الأنسية
وأين يكون اللقاء القريب
أفى مصر ، أم فى دارها الغالية
ومر الزمان بنا لم نجد
له فى حساب الهوى ثانية
إلى أن دنا وقتها للرحيل
على متن طائرة ماضية

ونادى المنادى على الراحلين
وليس لنا أذن واعية
ودارت رحاها وهمت عن
عملها إلى البلدة النائية
ونحن نطيل إليها الرنو
ونسمع أصواتها الداوية
ولا تدرك العين ماذا يدور
ولا أين تمضى ولا ماضية
إلى أن علت في عنان السماء
وغابت . . ومحبوبتى باقية

عندما عادت أم كلثوم من رحلتها . . لازمتم الفراش . . وذهب رامى لزيارتها . .
وعندما هم بالانصراف ، أصرت أم كلثوم أن تقوم هى بتوصيله بصحبة أحد أقاربها .
وفعلا وأوصلته بالسيارة إلى حدائق القبة . . إشفاقا عليه من التعب والإرهاق .
وكان ذلك . . هو لقاء الوداع !

ورثاها أحمد رامى بقصيدته :

ما جال في خاطرى أنى سارثيها	بعد الذى صغت من أشجى أغانيها
قد كنت أسمعها تشدو فتطربنى	واليوم أسمعنى أبكى. وأبكيها
صحبتها من ضحى عمرى وعشت لها	أوف شهد المعانى ثم أهديها
سلافة من جنى فكرى وعاطفتى	تديرها حول أرواح تناجيها
لحنا يدب إلى الأسعاع يبهرها	بما حوى من جمال في تغنيها
ومنطقا ساحرا تسرى هوائفه	إلى قلوب محبيها فتسيبها
وبى من الشجو من تغريد ملهمتى	ما قد نسيت به الدنيا وما فيها
وما ظننت وأحلامى تسامرنى	أنى سأسهر في ذكرى لياليها

سبحان ربى بديع الكون بارياها
لا يستطيع لها وصفا وتشبيها
على براياها ترويحاً وترفيها
إلا على نادر من مستحيها
له من الثبرات الغر صافيها
إلى جراح ذوى الشكوى فثفيها
بترنيمها أسرار خافيها
وتستين جمال اللحن من فيها
شعرا وواضعها لحناً لشاديها
قدمت أغلى الذى يهدى لواديا
وكننت أصدق باك فى مآسيها
وتبعثين الشجاء فى روح أهليها
يرف باسمك فى أعلى روايها
عليك أفياءها شر يعنيها
بالمال والجهد إحياء لماضيها
والمستعان على أقصاه عاديها
وجاءها النصر وانجابت غواشيها
بعد القضاء على ما كان يضيها
لما رأى من طموح فى أمانيها

لا تجزعوا فلها ذكر سيقها
يرن فى مسمع الدنيا ويشجيها
وظل من منهل الرضوان يسقيها
حتى ترد إليها يوم تحييها
أحمد رامي

٧ يولية عام ١٩٧٥

يادرة الفن يا أبهى لآئيه
مهما أراد بيانى أن يصورها
فريدة من عطاياها يوجد بها
وآية من لدنه لا يمن بها
صوت بعيد المدى ربا مناهله
وأمة من صميم القلب ترسلها
وفطنة لمعانى ما تردده
تشدو فتسمع نجوى روح قائلها
كانها جمعت أبداع ناظمها
يا بنت مصر ويا رمز الوفاء لها
كنت الأنيس لها أيام بهجتها
أخذت منذ الصبا تطوفين شقتها
حتى رفعت على أرجائها علما
وحين أحرق بالأرض التى نشرت
أهبت بالشعب أن يسعى فى مودتها
وظفت بالعرب تبغين النصير لها
حتى إذا صدقت فى العون همتهم
عاد الصفا لها وإرتاح خاطرها
وأقبل الغرب يسعى فى موتها

يا من أسيتم عليها بعد غيبتها
وكيف ننسى وهذا صوتها غرد
أضفى إلهى عليها ظل رحته
تبلى العظام وتبقى الروح خالدة

كان رامى فى أشعاره رومانتيكيا صميا ، له العديد من القصائد الفصحى كما نظم عددا كبيرا من المونولوجات والقطايق التى أسماها فى ديوان شعره الفصيح «المقطعات» .

وهذه «المقطعات» يمكن اعتبارها فكرة مبتكرة ، فهى مليئة بالشعور والتعبير الشعرى الجديد .

وتاريخ أحمد رامى الشعرى مرتبط بتاريخ فن أم كلثوم . وكان أبلغ تعبير عن ذلك هو منحه الدكتوراه الفخرية من أكاديمية الفنون فى الذكرى الأولى لوفاة سيدة الغناء العربى أم كلثوم .

قالت أم كلثوم :

« كان رامى يحب الغناء ، وكنت أنا أعشق الشعر . وأصبحت أقرأ القصيدة بنفس المتعة التى تقرأ بها الفتاة أول قصة غرامية . وكان لأحمد رامى كل الفضل فى تذوقى الشعر وفهم معانيه » .

وكانت أم كلثوم تغنى أغنيته الجديدة مرة واثنين وثلاثة . وعندما لا تتلقى منه كلمات جديدة ، تعتمد عدم تقديم عمل من أعماله فى حفلها . . وهو الذى تعود أن يستمع إلى كلماته بصوت أم كلثوم فى كل حفل من حفلاتها . فكان يتتظر أن تلقى بأشعاره فى الوصلة الأولى . . فتأتى بلا شيء . . فيتطلع إلى الوصلة الثانية . . ولكنها تخذله أيضا هذه المرة . . فيتعلق بالوصلة الثالثة . . فتغنى لغيره . . . فيصاب بالصدمة الكبرى . . فيعود إلى بيته يبكى أسفا وحزنا . . وتنقلب هذه الآهات إلى كلمات جديدة . . تكون مولدا لأغنية يقدمها لأم كلثوم فى اليوم التالى . . وبذلك وصلت أم كلثوم إلى ما كانت تصبو إليه .

لقاء أم كلثوم ومأمون الشناوى :

روى مأمون الشناوى عن ذكرياته مع أم كلثوم . . فقال :

« التقيت بأم كلثوم فى الفترة التى كنت أعمل فيها مع روز اليوسف اليومية . التقينا

في المحكمة أثناء نظر قضية زواجها الوهمي . . من المغامر الصعدي ، وكنت أنا شاهد ذلك المغامر . وبعدها انقطعت علاقتي بها ، إلى أن التقينا في عزبة مصطفى القشاش في شم النسيم . وعادت صلتى بها عام ١٩٤٢ - وقالت لي : قبل ما تكتب أغنية وتعطيها لمطرب ، أريد أن أسمعها أولا . فكتبت حبيب العمر وأعطيتها لها ، فأرادت أن تغير بعض الكلمات . وكنت ما أزال أرعن مغرورا . . وفي نظري أن كلماتي لا تُغير مطلقا . أخذت الأغنية وقابلت مصادفة فريد الأطرش وهو يصلح عربته ، فأعطيته الأغنية ، ولم يُغير منها حرفا واحدا . وسمى الفيلم أيضا باسم الأغنية . بعد ذلك كتبت « الربيع » . وجاءت أم كلثوم تزور أخبار اليوم ، في أوائل أيامها ، حين كانت على سطح بيت في شارع قصر النيل ، ونادتنى قائلة : انت ياوادي الأغنية ؟ فقلت : والله فريد مسك فيها كما هي ، وأنا غير مقتنع بها تريدن تغييره . فقلت : مين اللى حايجنى . . أنا والآل أنت ؟

وكانت أغنية الربيع ، فسمعتها . وطلبت منى أن أزورها في البيت . . وطلبت أيضا بعض التغييرات . . وكان فريد يسكن بجانبها ، فأعطيته الأغنية .

ولكن بعد ذلك حاسبت نفسي : إلى متى أظل بعيدا عن صوت القمة ؟ ولماذا لا أسمع كلامها ؟ فكتبت « أنساك » ، وغيّرت بعض الكلمات . . ووافقتها على التغييرات ، وكانت تغير ما تريد باقتناع تام . . قالت أم كلثوم :

إذا كان المطرب مقتنعا بما يؤديه . . فثق وتأكد أنه سينجح . . وإذا لم يكن لديه اقتناع بما يقول ، فتأكد من فشله ، ولو كانت من شعر شوقي .

وبأغنية « أنساك » بدأ التعاون بيني وبينها . والسبب في عدم غنائها لي كثيرا ، كثرة التغييرات التي كانت تطلبها ، وعدم موافقتي على ذلك .

ومن الأغاني التي كان مأمون الشناوي قد أعدها لتغنيها أم كلثوم « أول همسة » ، ولكن عندما طلبت إدخال بعض التعديلات عليها ، أعطى مأمون فريد الأطرش الأغنية . وعندما طلبتها منه مرة أخرى كان رده :

- هل من المعقول أن يطلب واحد من رسّام وهو يشاهد معرض صوره ، أن يصغر الأنف ، ويرفع الحواجب ، إلى غير ذلك ؟؟ نفس الشيء في الأغنية . . عجبك خديها على كده . . »

وعلقت أم كلثوم :

- « انت مش فاهم حاجة خالص . . بكرة تفهمنى . . وبكرة تندم » . وفعلًا بعد فترة قصيرة ، كتب مأمون الشناوى أغاني لأم كلثوم ، وقبل التعديلات بصدر رحب . وغنت له أم كلثوم بعد أنساك - كل ليلة - بعيد عنك - ودارت الأيام .

وقبل وفاتها بعام واحد ، كتب لها مأمون الشناوى « خلينا أصحاب » ، وأعطتها أم كلثوم لرياض السنباطى ليقوم بتلحينها . . ولكن المرض عاجلها ، ورحلت قبل أن تؤدى هذه الأغنية . . وظلت كلمات الأغنية حبيسة الأدراج إلى أن حضرت إليه ذات يوم ياسمين الخيام تطلب منه أغنية « خلينا أصحاب » . وكان رياض قد لحن جزءا منها . ولكن حدث خلاف بين ياسمين والسنباطى ، وأوقف بعدها رياض تلحين الأغنية ، إلى أن أخذ حلمى بكر الكلمات ليقوم بتلحينها .

أم كلثوم وبيرم التونسي :

اعتمدت أم كلثوم في بداية حياتها الفنية على أحمد رامى لوضع كلمات أغانيها . ولكن أم كلثوم ، الذكية ، أدركت ، أن نهوض رامى بالعبء وحده مهمة صعبة . . وأنها لابد أن تواكب التطور ، وتتجه بأغانيها إلى كلمات شعبية إلى حد ما . . تساير الزمن وتعجب الجمهور . . ولم يكن أمامها إلا الزجل . وفي الحرب العالمية الثانية حينما أثرت الطبقة الشعبية من التجارة والتوريد ، تطلعت هذه الطبقة بحكم الثراء إلى حضور حفلات أم كلثوم . فوجدت أم كلثوم أن هذه العقلية لا يناسبها إلا كلمات الزجل . . وشخصية بيرم التونسي . فأقبلت على فارس هذا الميدان وغنت له العديد من الأغاني في الفترة بين عامى ١٩٤٢ - ١٩٥٠ (أى سنوات الحرب وماتلاها .)

منها: الأمل - أنا في انتظارك - أهل الهوى - حلم - حبيبي يسعد أوقاته - والآهات - وكل الأحبة اثنين اثنين - والأوله في الغرام - والحب شبكوني - وإيه اسمي الحب - وأنا وأنت .

وقد كان ملحن كل هذه الأغاني زكريا أحمد ، الذي يعتبر توأم بيرم . . فزكريا وبيرم كونا معاً ثنائيا فنيا جميلا . كما وقف زكريا وبيرم خلف أم كلثوم في هذه الفترة ، فقدما معا ألحان أغاني أفلامها .

عن بيرم التونسي قالت أم كلثوم :

« كان أحمد شوقي يخاف على الفصحى من بيرم . فبيرم يكتب في أى موضوع . بديهيّة حاضرة ، حتى لتتصور أنه يرسل شعره كلاما كالقول والضحك . وكان بيرم موسوعة من الشعر القديم والحديث . كان صوفيا . ولعل هذه الصوفية هي ينبوع إلهامه . غنت له الآهات والأمل ، وأنا في انتظارك . . . والقلب يعشق كل جميل . . وكل قصائده ، فيما عدا الأخيرة ، كانت كلها من ألحان زكريا الذي قدم لى بيرم . . عدا الأغنية الأخيرة (القلب يعشق كل جميل) قام بتلحينها رياض السنباطى ، بسبب الفجوة التي كانت بينى وبين زكريا . »

وغنت أم كلثوم من كلمات بيرم التونسي لحن « شمس الأصيل » الذي وضع ألحانها رياض السنباطى . وكان ذلك بعد وفاة الفنان زكريا أحمد .

* * *

ومن الشعراء العرب غنت أم كلثوم « لنزار القباني » : أصبح عندي بندقية - و« لجورج جرداق » : هذه ليلتى - ولشاعر السودان « الهادى آدم » غنت : أغدا ألقاك . ومن شعر « عبد الله الفيصل » غنت أم كلثوم ثورة الشك - ومن أجل عينيك . كما غنت للشاعر الباكستاني « إقبال » و أبو « فراس الحمداني » « وعمر الخيام » وأحمد العدواني « وغيرهم .

الفصل الرابع أم كلثوم وعبقريّة الغناء

صوت أم كلثوم وأسلوبها في الغناء :

يقول شاعر الشباب « أحمد رامى » :

« كانت أم كلثوم صوت حنان تشعر فيه بالصدى . . . كان صوتها قادما من قلبها
وليس من الحنجرة . . . كانت تغنى لنفسها قبل أن تغنى للناس . . . لقد كانت
تبكى وتبتلع دموعها . . . كانت راهبة في محراب الفن . . . تغنى كأنها تصلى » .

التقييم العلمى لصوت أم كلثوم :

قام « المعهد القومى للقياس والمعايرة » فى مصر ، بتجربة فريدة ومثيرة عام
١٩٧١ . استعان فيها بألفين من الأسطوانات ، التى سجل عليها المطربون والمطربات
أغانيهم منذ نصف قرن من الزمان - بهدف وضع سلم الموسيقى العربية على أساس
علمى .

وقد جاء فى نتائج هذه التجربة الفريدة والأولى من نوعها فى مصر:

أن صوت أم كلثوم هو أكثر الأصوات ضبطا ، لأن معادلته الرياضية تكاد تتطابق
مع المعادلة الرياضية للسلم الموسيقى الطبيعى .

وأثبتت الأجهزة الإلكترونية التى استخدمت فى هذا البحث أن ترددات صوت
أم كلثوم تبلغ (٣٩٩٦,٥) ذبذبة فى الثانية الواحدة . وكان الصوت الثانى بعد
صوت أم كلثوم هو صوت المرحوم الشيخ محمد رفعت ، تلاه صوت المرحوم صالح
عبد الحى . واعتبر البحث صوت أم كلثوم من أنقى الأصوات العربية وأعلاها ، من
حيث تطابق معدنها الصوتى ، مع المعادلات الرياضية للسلم الموسيقى .

وصوت أم كلثوم له مساحة من الدرجات الموسيقية يمكن قياسها بأوكتافين (أى ست عشرة نغمة) . إن صوت أم كلثوم ينتمى إلى الكونترا لىطو . والميتزو سوبرانو (*) ويمتاز صوتها بالقوة والجمال . وبحكم حفظها وتجويدها للقرآن الكريم ، اكتسبت خبرة تجعلها قادرة على إعطاء كل كلمة وكل حرف ما ينبغى للنطق الصحيح . وهى دقيقة الحس ، عظيمة الذكاء ، كثيرة الاطلاع ، تحس بكل المعانى التى تتضمنها الأغنية ، وبذلك استطاعت أن تعبر عن كل المعانى التى تتضمنها أغانيها مهما كانت صعوبة الكلمة . كان صوت أم كلثوم عجينة طيبة بين يديها ، تعرف كيف تشكلها وتسمو بها وتطورها مع كل تكرار بصورة جديدة ، بتنمية صحيحة ، وتطوير وانتقالات مقامية ، وتغييرات إيقاعية . كانت تكرر اللحن مرارا بابتكارات لا نهائية . . منها إعادة تأليف اللحن بما يجعله يتفاعل تلقائيا مع المستمعين .

كانت أم كلثوم تدقق فى اختيارها للكلمات . . وتشترط أن تكون على مستوى صوتها وأدائها . كانت ملمة بقواعد التجويد ، وتدرك قواعد النحو والصرف والإعراب . وقد ساعدها على إجادة غنائها الأداء المبكر لعدد كبير من الموشحات الدينية فى بداية حياتها الفنية ، كذلك محاضراتها لأداء الشيخ أبو العلا محمد فى طفولتها . كما تدربت أم كلثوم على أداء ألحان القصائد والموال الريفى ، الذى أكسبها القدرة على الارتجال وأداء الحركات اللحنية التى يتكون منها الموال . .

وإذا ما استمعنا إلى صوتها فى شبابها ، وبعد أن تعهدتها أساتذة الموسيقى والغناء من أمثال الشيخ أبو العلا محمد ، والدكتور النجيدى ، والفنان محمد القصبجى - نلاحظ خاصة فى تسجيلاتها الأولى كثرة الذبذبات الصوتية التى كانت تنطلق من حنجرتها . وتحول دون تحديد النغمات الثابتة . واستطاعت أم كلثوم بموهبتها وذكاها الكبير أن تطور أسلوب أدائها للتخلص من هذه الذبذبات . لم تكن تستعرض قوة

(*) الكونترا لىطو (أغلظ أنواع أصوات النساء) والميتزو سوبرانو (الصوت المتوسط بين الحاد والغليظ فى أصوات النساء) .

حنجرتها أثناء الغناء ، وإنما كانت تستخدم إمكاناتها الطبيعية ، وتضيف قدرتها على تلوين الصوت لخدمة التعبير الموسيقي بما يتناسب والكلمات . وكان صوتها يتميز بروح البيئة العربية ، إلى جانب معرفتها الدقيقة بالمقامات الموسيقية العربية . ومن المعروف بين المطربين والمطربات . . أن كلاً منهم عنده في صوته منطقة تمثل نقطة القوة عنده . . لذلك نجد الملحن يقوم بتفصيل اللحن تبعاً لهذه الإمكانية . أما صوت أم كلثوم فمناطقه كلها كانت قادرة . وهذا سر تنقلها بين النغمات الموسيقية بسهولة واقتدار ، حتى قفلاتها في نهاية الجملة الغنائية كانت تؤديها بسهولة وتمكن واضح . وعن هذه القفلة قال عبد الوهاب :

« لم تَضِغْ من أم كلثوم قفلة واحدة في حياتها . . كانت دائماً تفاجئ الجمهور بقفلة قوية . . تشبه « الجول » عند لاعب الكرة » .

وصف عبد الوهاب ؛ صوت أم كلثوم بقوله :

« إن فيها » اصمح عصر جديد في طريقة الغناء والسلوك والشخصية والخلق ، وقدمت فناً بلا ابتذال . . وسمت بأخلاق المهنة . »
وقال أيضاً في ذكرى وفاتها التاسعة :

« إن فيها عشر مغنيات معا . فكل ميزة تجعل منها مطربة كبيرة . من أهم ميزاتها التعبير : بالجسم ، باليدين ، بالحركات ، بالإيماء بالوجه ، بالعبوس ، بالضحك . . كانت ممثلة . ولا أعنى أنها كانت تفتعل ، بل كانت تحس ، وهذه سمة الفنان العظيم ، تحس الغضب أو الفرح أو العتاب فتؤديه . كانت مجموعة عجيبة من عطايا الله السخية .

أما الصفة العظيمة فيها ، فهي أنها ظلت هاوية حتى آخر رمتق في حياتها . . وكانت مستمعة من الطراز الأول ، فتبكي حين تتأثر بأغنية تعجبها . ولو لم تكن مستمعة عظيمة . . لما كان في مقدورها أن تكون مطربة عظيمة . »

تقول د . نعمات فؤاد^(٦)

يقف إلى جانب صوت أم كلثوم نطقها وإلقاؤها وإخراجها للأغنية .

فنطق أم كلثوم نطق (مثقف) . . نطق أديب . وقد كان النطق سلاحها الذى اقتحمت به مسارح القاهرة فى العشرينيات . فأم كلثوم على المدى الطويل ، لم تخطئ غير مرتين اثنتين لا يلحظهما إلا متخصص . حتى أن أحد النقاد أطلق عليها (مطربة النحو والصرف) .

المرّة الأولى حينما تصل فى قصيدة (سلوا قلبى) إلى البيت . . .

فمن يغتر بالدنيا فإنى لبست بها فأبليت الثيابا

يغتر فعل الشرط مجزوم ، والقاعدة النحوية فتح المشدد للتخفيف فى حالة الجزم . فصحة الكلمة يغتر بالسكون ، فإذا أدغمت الراء فالجائز فى الشعر كسرهما لا ضمهما . وفصاحتها يغتر بالفتح ، ولكن أم كلثوم تنطقها بالضم (يغتر) . وقد نبهت إلى هذا فأصلحت الخطأ عند تسجيل الأسطوانة .

أما المرة الثانية ففى قصيدة . (قالوا أحب القس سلامة) والبيت :

كأنما لم يدر طعم الهوى والحب إلا الرجل الفاجر

فنطقت كلمة الحب بالضم ، والصواب (الكسر) . ولا وجه عند النحويين لضم هذه الكلمة فى هذا الوضع . ولو نطقتها أم كلثوم بالفتح لأمكن للنحويين أن يجدوا لها تأويلا نحويا مقبولا يجعلها معطوفة على كلمة (طعم) . «

كانت أم كلثوم تتكلم اللهجة الفلاحية لمحافظة الدقهلية ، ولكن لهجة أم كلثوم الفلاحية لم تظهر فى نطقها الغنائى ، لفرط ذكائها ودقة التقاطها للمخارج الصحيحة للألفاظ من مؤلفى أغانيها وملحنها .

وعن صوت أم كلثوم يقول زكريا أحمد :

إن الجملة الموسيقية بأداء الملحن تكون عادة أفضل منها بأداء المغنى أو المغنية ، لأنه هو خالق الجملة . أما بالنسبة لأم كلثوم فكان هذا القانون الفنى ينكسر . لأن

أداءها للجملة الموسيقية يكون أفضل من أدائه . إنها تجهد الملحن أولا ، لمعرفة مواطن القوة في صوتها . . وتتحدها بموهبتها أن يقدم إليها أصعب الألحان . ثم حين يؤدي هذا اللحن بصوتها الذكي أداء متميز الشخصية ، فهي تضيف من فهمها للمعنى على الأداء . وتلون هذا الأداء بحيث يتوهج عذابا وحبا في كل مرة تغنى فيها عن الحب الإلهي . إذن فقد كان صوتها العبقري وأداؤها الذكي أول درجتين في صعود نجمها كظاهرة فنية .

السبب الثاني نظرة الشرق إلى الحب . إن الشرق ينظر إلى الحب نظره لشيء محرم . في نفس الوقت الذي تهفو فيه الملايين إليه . وفي نفس الوقت يمارس فيه الآلاف تجارب الحب . وهذا التناقض بين العقل والفكر ، يخفف من أن تغنى لنا أم كلثوم ساعات عن الحب . وكان لابد لهذا التنفيس عن المشاعر الخاصة ، أن يجد صدى في نفوسنا . فهناك غناء يضع الإنسان وسط أعظم صنوف العذوبة والرقة . وكان غناء أم كلثوم من هذا النوع . كانت عندما تغنى تصبح مهدئا لمتابع الحياة . وأحيانا يتوقف الزمن . . ويلذوب المكان ولا يبقى غير اللحن والكلمة . حتى اللحن والكلمة يتبددان ولا تبقى غير قصة الحب الخاصة بالمستمع . فلا يبقى غير حبه هو - وذكرياته هو - وأحلامه هو . وعذابه هو . . مذابا في الألحان . ناظرا إليه من وجهة نظر أم كلثوم . وهكذا يتحول المحب إلى شهيد ، حيث تعبر له الأغاني عن الحكم وتصفى قصص حبه من شوائب الحياة وكدرها . كانت هذه إحدى ميزات أم كلثوم .

والميزة الثانية لها هي ارتباطها بالفكرة العربية واللغة العربية . وكانت نشيدا مشتركا يذكر بعروبتهن . فهي شيء مشترك بين العرب جميعا ولا اختلاف عليه . إن الأذن العربية مهما يكن صاحبها مثقفا ثقافة تطريية . فإن أم كلثوم تزيد التعبير أيضا على التطريب . . وبذلك ترضى الأذواق على اختلاف ألوانها .

الميزة الثالثة : أن أم كلثوم حافظت لفترة طويلة على إحساس الحب والمحبة كما كانا في الغناء العربي القديم : وقد كان هذا يستمد أصوله من العصر الجاهلي حين

كانت النساء والرجال من قبيلة بنى عذرة يهلكون بسبب الحب .

سئل شاعر من بنى عذرة : ما بال قلوبكم تذوب كما يذوب الملح . . قال : إنا لننظر في محاجر أعين ، لا ننظرون إليها ولا ترونها . . ولا بأس إذن أن يذوب العاشق حبا في محبوبه . بل يعاب على المحب إذا أعطى نفسه مكانة أمام حبيبته . فواجب المحب أن يظل دائما هو المتفاني . وأن يستعطف هذا الطابع الوجدانى في صورة المحب .

كان هذا أمرا واضحا في غناء أم كلثوم . ومثلها حافظت هى على هذا الطابع باختيار مؤلفى أغانيها . . فقد حافظت على طابع الأغنية الشرقية . حيث للأغنية الشرقية طابع يقوم على إبراز مظهر الارتجال الفنى أو التصرف والإعادة مع التصرف . وهذا ما امتازت به الفنانة أم كلثوم وحدها . وكان ذلك شيئا يغبطنا عليه الموسيقيون في الغرب . . . فقد كانت أم كلثوم تمثل الحصن الأخير لطابع الأغنية العربية ، كانت تزيد من ابتكاراتها في اللحن . وتمزج الكلمة بالنغم . لاهية جمهورها فلم يعد ممكنا أن تعرف موقع الغنى من موقع الجمهور . ولا من أين ينبع السحر ولا من هو المسحور . . ولقد استغرقت أم كلثوم فترة طويلة حتى أكدت نفسها كظاهرة فنية . . ثم تجاوزتها إلى تحويلها إلى ظاهرة عامة .

يقول زكريا هاشم زكريا :

« . . بدأت أم كلثوم - خلال الأربعينيات - تخصص « وصلة » في بعض حفلاتها لأداء إحدى أغاني العشرينيات - فسمعنا منها « وحقك أنت المنى والطلب » و « أفديه إن حفظ الهوى » وبعض الأغاني القديمة الأخرى .

وكانت عودتها إلى أغنيات تلك الحقبة ، لتؤديها بصوت أكمل وأجل . . من خلال مقدرة وذوق أكثر نضجا .

صحيح أنها لم تتمسك في أدائها هذا بما كانت تتمسك به في العشرينيات من الانضباط الصارم . . إنها سببه في العشرينيات حاجتها - وهى ناشئة - إلى إثبات تفوقها

الساحق في الأداء مستوفيا درجات الصوت مع قوة بالغة في الأسر : أى التحكم الدقيق في اللحن . على نحو ماكان متبعا في تلك الأيام .

أما في الأربعينيّات . . فإن أم كلثوم أصبحت بلا شريك بين المطربات والمطربين . وأصبح المستمعون يعرفون أن صوتها يحتوى بضعة عشر مقاما . ويدركون نفاسة معدنه ، واستحالة وجود قطعتين من هذا المعدن النفيس في زمن واحد . .

واختتمت أم كلثوم مرحلة الأربعينيّات بروائعها التي لحنها السنباطى : سلوا قلبى من أى عهد . . وفي الأرض شُرْ مقاديره . . ريم على القاع . . ولد الهدى . . ربايعات الخيام . . . »

كانت أم كلثوم تبدأ موسمها الغنائى في الخميس الأول من شهر ديسمبر وينتهى بالخميس الأول من يونيو . . أى سبع حفلات سنويا . لم يتغير هذا الانتظام منذ إبريل ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢ . وكان يقام بمسرح الأزيكية . . وعندما ضاق المسرح بالسميعة ، انتقلت ليلالى الخميس إلى سينما قصر النيل (١٤٢١ كرسيا) ، وكانت في كل حفل يضاف عدد من الكراسى يصل إلى حوالى (١٥٠ كرسيا) . وكان جمهور أم كلثوم يأتى بالطائرة من دول مختلفة لحضور حفلها . وآخر حفل غنت فيه أم كلثوم الخميس ٣٠ يناير عام ١٩٧٣ على مسرح سينما قصر النيل ، وفيها غنت في الوصلة الأولى ليلة حب (محمد عبد الوهاب) ويا مسهرنى (سيد مكاولى) . وآخر أغنية طبعت على أسطوانات حكم الهوى (بليغ همدى) كلمات عبد الوهاب محمد . . ولم تغنها في حفلة .

يقول إلياس سحاب (٧) :

« عظمة أم كلثوم قد فرضت نفسها في سوق الغناء العربى ، لدرجة أن كل الملحنين الذين تعاملوا معها ، كانوا في ألحانهم يدورون في فلك صوتها ، أكثر مما دار صوتها في فلك ألحانهم .

فالظاهرة التى تبدو الآن واضحة لو ألقينا نظرة سريعة شاملة على كل إنتاج

أم كلثوم . . هى أن هناك لونا « كلثوميا » فى الغناء العربى ، يوظف فى خدمته عددا من الملحنين الذين لا شك فى قيمتهم الذاتية . ولكنهم مع ذلك كانوا مع أم كلثوم جزءا من مدرستها الغنائية . فكانت تنوعات أساليبهم تنعكس بين ألحان السنباطى عندما يضع لحنا لأم كلثوم ، ثم عندما يضع لحنا لصوته أو لأى صوت آخر . كذلك الأمر واضح مع محمد عبد الوهاب ، فألحانه لأم كلثوم كانت ذات طابع خاص . . تنتمى غالبا إلى مدرسة الغناء الكلثومى ، أكثر من انتهائها إلى مدرسة الغناء الوهابى وإن كانت بصمات عبد الوهاب الخاصة بارزة جدًا فى مجموعة ما أعطى لأم كلثوم من ألحان » .

وحدث أكثر من مرة أن نسيت أم كلثوم كلمة . . وهنا يأتى دور عبده صالح (القانونجى) ، فيبدأ بإعادة الجملة الموسيقية مرات ومرات تسترد نفسها ، وتذكر الكلمة .

ويقول عبده صالح إن صوتها يتبع جسمها ونفسيته . . لذلك فهو فى كل حفلة يضبط طبقة الصوت وفقا لحالتها النفسية والصحية . . فهى إلى جانب معاناتها من المراءة ، كانت تعاني أزمات الغدة الدرقية . . وينجم عن هذا المرض توتر الأعصاب -ضيق النفس .

يقول كمال النجمى :

« لقد أسهم صوت أم كلثوم إسهاما جوهريا فى خلق أساليب التلحين العربية المتطورة . وأتاح للملحنين أن يجوبوا آفاقا شاسعة ما كانت لهم على بال لولا وجود هذا الصوت الذى حملهم بإمكاناته الباهرة إلى تلك الآفاق . وأعمال القصبجى وزكريا أحمد والسنباطى تشهد بذلك .

أم كلثوم قادت موكب الملحنين فى عصرها إلى الطريق الذى سارت فيه » .

كتبت الكواكب عام ١٩٣٢ تقول :

« لأم كلثوم ميزة تمتاز بها عن غيرها ، تلك هي حسن اختيار الأدوار التى تلائم الوسط الذى تغنى فيه . فقد رأيناها فى حفل المؤتمر الشرقى للموسيقى العربية الذى حضره الملك تغنى قصيدة :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
كما شاهدناها مرة ، وقد جلس لفيف من شيوخ الأدب العربى يستمعون إليها ،
فتهز قلوبهم بنغماتها الجميلة حين غتتهم :

عارضا بى ركب الحجاز أسا ثله متى عهده بسكان جمع
واستعيدا حديث من سكن الخيف ولا تكتباه إلا بدمعى
فلئننى إن أرى الديار بعينى فلعلى أرى الديار بسمعى

حتى إذا جمعتها الفرصة بالشباب سمعتها تصدح : إن حالى فى هواها عجب .
وإذا اختلت بالجنس اللطيف ، أثرت أن تنشده « الى حبك يا هناه » . وفى الحفلات
العامة تؤلف بين هذا كله لتروى كل طائفة بها يناسبها . . فهى كالطير الذى يحسن
الهبوط على مختلف الغصون .

ومن أهم مظاهرها تمسكها الشديد بما يلقي عليها من نغم . فإذا أخذت عن
المرحوم الشيخ أبى العلا مثلا طريقة ما لإلقاء قصيدة ، فإنها خير من يخرج بها على
الجمهور . وكأنك تسمع أبا العلاء من خلف ذلك الغصن الرطيب .

أم كلثوم تلحن :

ولأم كلثوم تجربتان فى التلحين طقطوقة « على عيني الهجر ده » من مقام الراست
(سجلت على أسطوانات جرامفون عام ١٩٢٨) ، ومونولوج « يا نسيم الفجر » من
مقام حجاز كار (مسجلة على أسطوانات أوديون عام ١٩٣٦) ، وهما من كلمات أحمد
رامى . ولم يظهر لأم كلثوم عمل آخر من ألحانها . ويقال إنها فضلت « أن تعطى
العيش لخبازه » ، فهى تؤمن بمبدأ التخصص . والذى يستمع إلى هذين اللحنين
١٧٥

يجد أن أم كلثوم حالفا التوفيق في تلحينها . . ويتضح تفهمها واتقانها فن المقامات وعلمها .

أم كلثوم والإذاعة :

وكما افتتحت أم كلثوم الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤ ، افتتحت التلفزيون في يوليو عام ١٩٦٠ . . حين وقفت لأول مرة أمام عدسات التلفزيون لتسجل أغنيها الجديدة .

كان العقد الأول الذى وقعته أم كلثوم مع الإذاعة المصرية في الثلاثينيات بأجر قدره خمسة وعشرون جنيهًا تشمل أجور الموسيقيين والمؤلف والممثل . . وكان هذا هو أعلى أجر في ذلك الوقت .

وسجلت ما غنت أم كلثوم في ثلاثة دفاتر . . وبلغ عدد الأغاني ٣٦٠ أغنية . وكان من عاداتها أن تسجل الأغنية قبل تقديمها في الحفلات . . لأنها في الحفل تلبى رغبات مستمعيها . . فتأتى الأغنية طويلة يصعب إذاعتها . ومع ذلك كانت الإذاعة لا تكتفى بما تسجله أم كلثوم قبل الحفل . . فكانت تقوم بتسجيل جميع حفلاتها . فمثلا أغنية « أنت عمرى » من ألحان « محمد عبد الوهاب » ومن كلمات « أحمد شفيق كامل » غنتها أم كلثوم في ثلاث ساعات إلا عشر دقائق .

ومن ضمن تسجيلات الإذاعة لصوت أم كلثوم شريط منقول من أحد أفلامها مسجل عليه قراءة للقرآن الكريم مدته ثلاث دقائق . . وتم تسجيله في ٧ يونيو من عام ١٩٥١ . وهو التسجيل الوحيد لأم كلثوم للقرآن الكريم . فلم تكرر هذه المحاولة مرة أخرى .

ويعتبر الشاعر أحمد رامى صاحب النصيب الأكبر من بين الشعراء والزجالين الذين كتبوا لأم كلثوم نصوص أغانيها . فقد بلغ رصيده ٤٨ أغنية عاطفية إلى جانب مائة أسطوانة . فأحمد رامى بدأ يكتب أشعاره لأم كلثوم منذ عام ١٩٢٣ . وسجلت أم

كلثوم من هذه الأغاني ما يقرب من مائة وخمسين أسطوانة ، تم نقلها عام ١٩٤٥ على شرائط ، مع احتفاظ الإذاعة لهذه الاسطوانات للرجوع إليها عندما يتعرض الشريط للتلف .

وجاء في إحدى المجلات الأسبوعية أن الأسطوانة الوحيدة الباقية لأم كلثوم من الزواج (كانت الأسطوانات القديمة تصنع من الألمنيوم أو الزجاج) قد كسرت أثناء نقل الاذاعة من مبناها في شارع علوى إلى شارع الشريفين . . وكان مسجلا عليها أغنية « أوانى الورد » .

كانت أم كلثوم تغنى حفلا واحدا في كل شهر ، رغم أن أحدا لا يشك مطلقا في قدرتها على إعطاء المزيد . . ولكنها كانت تصون كرامة الغناء ، وتحرص على تقديم الجديد . . كانت طيلة السهرة تعطى بشاء ، وتتعبد في العطاء . كانت مدرسة تحافظ على تقاليد الغناء العربى الأصيل .

الحفلة الشهيرة :

كانت أم كلثوم أول مطربة تقدم أغانيها في شكل حفلات ووصلات غنائية بالإذاعة ، منذ افتتاحها عام ١٩٣٤ . وكان مقدم حفلاتها الإذاعية الإذاعى الكبير محمد فتحى الذى اقترن اسمه بحفلات أم كلثوم الإذاعية لنجاحه في تقديمه للحفلات . اقترح محمد فتحى على الإذاعة خروج حفلات أم كلثوم إلى المسرح . وتم الاتفاق مع أم كلثوم على تقديم حفلة واحدة يوم الخميس الأول من كل شهر على أن تنقلها الإذاعة على الهواء مباشرة .

وفي الحفلة الأولى ، قدمت أم كلثوم ثلاث وصلات جديدة . وجاءت في الشهر التالى أغنية جديدة فى الوصلة الأولى وإذا بالجمهور يحتج مطالبا بإعادة أغاني الحفل الأول . وأرست أم كلثوم تقليدا جديدا لحفلاتها ، وهى أن تقدم فى الموسم كله أغنية جديدة أو أغنيتين وتعيد أغانيها المشهورة .

تقول د. نعمات فؤاد^(٦) :

كانت أم كلثوم منذ عام ١٩٢٥ تغنى فى مسرح فؤاد بشارع عماد الدين . وكان هذا المسرح يتسع لثلاثمائة متفرج فى الصالة والألواح ، وكان حلم أم كلثوم الكبير مسرح حديقة الأزبكية باستعداده الضخم نسبيا .

ولاحت الفرصة فى عام ١٩٣٤ ، حين غنت فيه حفلة خاصة ببنك مصر. فلما تعاقبت معها الإذاعة على الحفلات العامة ، تمسكت بمسرح الأزبكية » .

الوتر الحساس للإسلام :

ظل صوت أم كلثوم الوتر الحساس للإسلام . فقد استطاعت أن تجعل الدين موضوعا للفن . كتب أحد علماء دمشق يقول : إن أم كلثوم تقوم بدعاية للإسلام أكثر مما يقوم به الأزهر. وكتبت مجلة لايف تصف هذه السيدة بأنها ظلت لمدة خمسة وثلاثين عاما الوتر الحساس للإسلام .

فأم كلثوم قدمت منذ طفولتها العديد من الموشحات الدينية ، ثم قامت بغناء قصائد أحمد شوقى الدينية التى رددتها أفواه عامة الشعب .

نقد أم كلثوم لأغانيها :

سألته مجلة الجيل (١٧ / ١١ / ١٩٥٨) عن حقيقة شعورها عندما تسمع صوتها قالت :

« إنه شعور بالضيق !! وسبب ضيقى أننى عمرى ما رضيت عن أدائى لأغنية من أغنياتى رضاء تاما . عمرى ما اعتقدت أننى قد نجحت فى أداء أغنية مائة فى المائة . وفى الوقت الذى قد يكون فيه الناس معجبين بصوتى وأدائى أكون أنا فى حالة حساب عسير مع نفسى . ففى كل مرة أستمع فيها إلى نفسى أحس أنه كان يمكننى أن أؤدى الأغنية بطريقة أفضل . وأنا أعتقد مادمت أستطيع اكتشاف عيوبى الفنية فى الأداء

فسأظل أتقدم ولن أقف ولن أتأخر . وفي حديث آخر قالت :

« عندما أستمع إلى غنائى أحس بضيق أحيانا . . فقد يخيّل إلى أننى فى هذا المقطع من الأغنية لم أكن دقيقة بالقدر الكافى . وكان فى إمكانى أدائه أحسن مما قدمت . وهذا يسبب لى شيئا من العصبية . ولكنى مع الوقت أجد نفسى مستفيدة من هذه الملاحظات ، وأحاول عند إعادة الأغنية تلافى عيوبى . . وتقديم الأغنية بشكل أحسن . »

ويروى أن أم كلثوم على الرغم من أنها قامت بنقد أغانيها نقداً بالغاً فيه . . فإنها كثيراً ما تعجب بأدائها وغنائها . فعندما تستمع إلى شريط أغانيها أو أسطوانة وتكون وحدها . . وتعجبها (حركة) ، تصيح كما يفعل أى سميع معجب :

ـ يا شيخه مش كده اده جنان . . إيه ده !!

وكان لصوت أم كلثوم أثر كبير على ملحنينا ، فقد فرض هذا الصوت نفسه على الألحان . فالأغاني التى لحنّت لأم كلثوم كان لها طابع معين يتمشى مع القيمة الفنية لهذا الصوت . فالألحان كلها كانت تدور فى فلك صوتها أكثر مما يدور صوتها فى فلك الألحان ، ولذلك كثيراً ما نسمع كلمة « لون كلثومى فى الغناء » . فأما كلثوم فتعتبر مدرسة غنائية متفردة .

كانت أم كلثوم حينما تغنى تنفعل بها تتغنى . . وكان إحساس المستمع أنها تغنى له وحده . . وأكد الشاعر « أحمد رامى » هذه الحقيقة فى حديث له . حين قال :

« إنها فعلا — ودائما — تغنى لشخص واحد . . ولايم أن تعرفه ، فهى تختار من الجمهور أى واحد تترتاح إليه . . وتغنى له وحده . . وتكلمه وهى تغنى . »

وذات ليلة — أبدعت فى غنائها إلى حد بعيد . ولاحظ « رامى » أنها كانت طول الوقت تنظر إلى آخر الصالة . . تغنى لشخص واحد . . وفى الاستراحة ذهب إليها يسألها . . فقالت :

« إنها كانت تغنى لشيخ ضرير لمحتة فى المقاعد الأخيرة . . فقررت أن يكون غناؤها له وحده . »

وتقول أم كلثوم :

« عندما أغنى أغنية جديدة — لأول مرة — أشرحها للجمهور . وأفسر معانيها ولحنها . وعندما أتأكد أنها وصلت إليه : أبدأ فى الحفلات التالية أتصرف فيها . . وأترنم على راحتى » .

الصوت يتحدى

تحدى صوت أم كلثوم قوانين الطبيعة . فالصوت عادة يشيخ مع التقدم فى السن . ولم يحدث غير تغيير طفيف فى صوت أم كلثوم فى السنوات الأخيرة . وذلك بعد تخطيها سن الستين . . وهو انخفاض فى مساحات طبقات صوتها المرتفعة بينما احتفظت بجمال رنين صوتها .

وكم تخصصه فى فن الغناء ، أستطيع أن أحلل ذلك بأن أسلوبها فى الغناء كان بعيدا عن العنف . . إلى جانب تأهيلها فى بداية حياتها الفنية « بالتكنيك » الغنائى المتين ، وهو تلاوتها للقرآن الكريم وأداؤها للموشحات الدينية والقصائد لفترة طويلة ، مما أكسب صوتها مدرسة غنائية سليمة . ونلاحظ أن قارئى القرآن الكريم يستمرون فى قراءتهم فترة طويلة تصل فى أحيان كثيرة إلى سن السبعين . فأساليب تلاوة القرآن الكريم ، إذا ما قورنت بأساليب الغناء العالمى ، نجد أنها تتفق معها فى القواعد المتبعة فى التنفس ومخارج الحروف . والمعروف أن العرب كانوا سابقين لأوربا فى وضع أسس الغناء السليم وكان ذلك على يد « زرياب » .

هذا إلى جانب الحياة المستقرة التى كانت أم كلثوم تحياها ، واهتمامها بصحتها وابتعادها عن السهر .

وكتب الأستاذ حماد فى مجلة الناقد عام ١٩٢٧ ، يقول :

« تقف أم كلثوم للغناء . . أمام الجمع المحتشد فلا تزال كل جوارحها تشعرك
 بقلق وحركة دائمين كأنها تتصل بأسلاك الكهرباء أو كأنها ريشة في مهب الرياح . وما
 إن تستجمع قواها وتبادل الجمهور التحية حتى تبدأ غناءها في نغمة رقيقة تنساب في
 هدوء كمجرى النهر العذب . وما تكاد تملك زمام الجمع المنصت حتى تعلو رويدا
 رويدا في أنغامها ، وأنت تلمس ما وراء تلك الضلوع من الثورة المكتومة . فإذا تملكها
 الانفعال ، وجاشت الألحان التي تعترك في قرارة نفسها ، أرسلتها رنيئا عاليا ، فيعم
 الجميع الشجو والطرب فيثور هو أيضا . وصوتها عذب ينساب في رقة النسيم . وهي
 ترسله على حريته ، وما إخالك إلا مقدرا ما في الحرية من جمال ومالها من سحر ! ثم
 إنها لا تلزم نفسها بكثير أو قليل من القواعد والقيود . بل تكاد تسير طبيعتها التي
 نشأت على أكمل معانى الحرية وأوسع حدودها يوم كانت تمرح في أرض الله الواسعة
 متنقلة بين المزارع ووسط مناظر ريف مصر البهيجة » .

يقول إلياس سحاب^(٧):

يعتبر البعض صوت أم كلثوم رمزا من رموز الوحدة العربية ، والارتباط بأرض الوطن.
 بينما البعض الآخر يعتبر صوتها رمزا للتخلف ، وحجر عثرة أمام أى تطور فنى في
 الوطن العربى ، وسببا مباشرا من أسباب النكسة . وعلى صغر حجم هذا البعض
 الأخير، فإن صوته كان يعلو من وقت لآخر بالنقد المر، والتهجم على ما تمثله أم كلثوم
 وفنها .

والذى يريد أن يصدر حكما اجتماعيا أو سياسيا أو حضاريا على فنان ما (خاصة
 إذا كان فنانا كبيرا فى وزن أم كلثوم) ، فإن ذلك لا يعفيه أبدا من التعرف الكامل على
 آثار هذا الفنان وعلى عصره ، وعلى العصر الذى سبقه ، وإلا فقد حكمه قيمته وتحول
 إلى مجرد ثرثرة أو تخمين فى أحسن الأحوال ، فقبل أم كلثوم كان هناك نوعان من الغناء ،
 يقف بينهما سيد درويش كظاهرة جديدة ، كانت فى ذلك الوقت تشكل شيئا قائما
 بذاته ، مستقلا عن سياق الحياة الموسيقية الغنائية .

كان هناك تراث القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، الذى توج بالأعمال التطويرية والانتقالات المقامية والتغييرات الإيقاعية . فكانت تعوض قصور الكتابة الموسيقية العربية ، وتمثل قمة هذا التقليد القديم الذى يعتمد على التحفيظ البسيط للحن المفرد الذى يصحبه الإيقاع . فكانت تأتى بالكثير مما يقوم به الموسيقى الدارس لأصول التأليف العالمى فى كتابته وتعامله مع اللحن بأساليب التطوير ، إذ كانت تكرر اللحن مرارا بابتكارات لا نهائية ، مما يمكن إعتباره إعادة لتأليف اللحن . . وبطريقة تتجاوب تلقائيا مع مزاج الجماهير ، ومدى مقدرتهم على السمع والاندماج - هذا من ناحية موسيقيتها النادرة ، وحسها وسرعة بديتها وعمق فهمها . أما نبراتنا ، فكانت قوية وثابتة وحلوة عذبة ، صامدة . . كانت تحفر فى تجاويف الفراغ زخارف نادرة ترسخ فى ذاكرة جماهيرها وتكون أحاسيسهم وتوجه فكرهم وتوحد بين نبضات قلوبهم .

جاء فى مقال للناقد الفنى كمال النجمى تحت عنوان « أم كلثوم ومذهب حنكش^{(١١)(*)} » . . يرى حنكش أن الغناء العربى الآن أشبه بالإمبراطورية البريطانية فى أواخر أيامها ، لا يحميه من الزوال ، ولا يحفظ هيئته إلا أم كلثوم المترربة بعبقريتها التى لا تتكرر ، فوق عرشه ، ومن حوله وحولها ملايين المستمعين بين المحيط والخليج . .

جددت أم كلثوم فن الغناء العربى ، وردته إلى أسلوبه الحضارى الأول . وكان ما صنعت أم كلثوم فى الغناء العربى شبيها بما صنعه محمود سامى البارودى باشا فى الشعر العربى ، منذ مائة عام تقريبا . كلاهما رد فنه الجميل إلى الطريقة العربية التى داستها أقدام العثمانيين والجرس وشراذم العجر والوافدين على مصر من البلاد الأعجمية طوال مئات السنين .

كانت ثورة البارودى فى الشعر العربى لمحة من تبشير ثورة عرابى باشا فى سبيل القومية المصرية والعربية . وكانت ثورة أم كلثوم فى الغناء المصرى امتدادا لليقظة القومية المصرية الشاملة بعد ثورة ١٩١٩ ، وما حملته من بذور الانفتاح على الأمة

(*) نجيب حنكش (سميع قديم لأم كلثوم . . وهو لبنانى الأصل) .

العربية التى تقع مصر فى وسطها . واكتملت بتحرير الشعر العربى وتحرير الغناء العربى ، ثورة مزدوجة لهذين الفنين الجميلين العظمين ، ردت إليهما أصالتهما العريقة فى صورة معاصرة ، تعبيرا عن عودة الروح القومية فى الفن والأدب بعد طول غياب . . .

لم تكن أم كلثوم وحدها فى هذا المجال بطبيعة الحال ، كما لم يكن البارودى وحده . فلا ينسى أحد ما صنعه سيد درويش الذى عاصر نشأة أم كلثوم ، وكان يعبر بأمانة ونبوغ عن الروح المحلية للشعب المصرى خاصة ، وعن المزاج المصرى المحلى الذى قد يختلف بعض الاختلاف عن الأمزجة عند الشعوب العربية الأخرى . .

وكانت بداية محمد عبد الوهاب المصاحبة لبداية أم كلثوم ، فأدت دورا بالغ الأهمية فى إعادة الغناء المصرى إلى ذوقه ولسانه وخياله العربى ، وارتبط دوره هذا بدور أحمد شوقى الشاعر الكبير الذى حمل راية الشعر بعد البارودى .

وإلى المشايخ والفنانين ذوى الفطرة الموهبة فى العشرينيات والثلاثينيات ، يرجع الفضل فى تحريك الغناء العربى من رقده الطويلة ، وإحياء الموشحات القديمة التى جمعها الشيخ الفنان شهاب الدين خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر فى كتابه « سفينة الفلك » ، والذى اشتهر بين المشايخ الفنانين وغيرهم باسم « سفينة شهاب » !

ولما كانت الحمولة ثمينة ، تبلغ ثلاثمائة وخمسين موشحا مختلفة المقامات والإيقاعات والأوزان العروضية وأساليب التلحين ، فقد أخذوا منها وتعلموا وأنشئوا فنا جديدا . وبعد هؤلاء المشايخ والفنانين ، مضت أم كلثوم ترفع راية الغناء العربى وسط ملايين المستمعين فى البلاد العربية . وهكذا أصبح الباب موحدا أمام كل طريقة أخرى فى الغناء .

تخصّصت أم كلثوم فى المحافظة على طابع الموسيقى المصرية العربية الأصيل ، وتفننت فى تطويره والارتقاء به . هذا الفن الذى يعتمد على التراث وعلى المقامات والضروب . . والارتجال والزخارف اللحنية ، وعلى الأداء . فكانت هى تتربعا لعظمة

هذا الفن في قمة ما وصل إليه . فلم تستمع منها إلى لحن صرف أو نظم فقط . . ولكن إلى صوت وإبداع . . استمعنا منها دائما إلى أم كلثوم . فقد كان اللحن يخرج من كيانه ممزوجا بأحاسيسها وذوقها ، وارتجالاتها الخاصة التي كانت تعطي للحن كيانه ، وتعمق أصالته وتربطه بتاريخ الموسيقى العربية وسائر مقدماتها . ففى قوالب الموسيقى العالمية ، تبنى الكتابة الموسيقية على دراسات يهتم فيها المؤلفون بدراسة كل لحن وتطويرة في انتقالات مقامية وهارمونية ، وتلوينات أوركسترالية ، وتطورات لحنية . ويقوم المغنى باتباع خط التأليف الموسيقى المتطور بدقة قدر المستطاع .

منذ أن بدأت أم كلثوم حياتها الفنية في القاهرة ، وهى تتمتع بأكبر جمهور من المستمعين عرفه الغناء حتى يومنا هذا . والدليل على ذلك ما كتبت عنها الصحف منذ أن اعتلت خشبة المسرح . . فكتب محرر مجلة الكشكول (العدد ٥٧ الصادرة في ١٨ يونية عام ١٩٢٢ تحت عنوان « إرادة الشعب وأم كلثوم » :

« لم تنهيا لى فرصة أستمع فيها إلى صوت الأنسة أم كلثوم التى كثر الإعلان عنها ، وتحدث الناس بها ، إلى أن كانت ليلة السبت الماضية ، وعلمت أنها تغنى الناس أو على الأصح تشدهم في تياترو برنتانيا تلك الليلة . فشخصت إليه في رفقة من صحبتى . وبعد الجهد أصبنا « لوجا » في الطبقة الثانية ، إذ كان التياترو كله قد غص بالناس على اختلاف طبقاتهم . وقد أجلت بصرى طويلا ، وتفحصت في جميع أقطار المكان ، فلم أجد كرسيا واحدا خاليا .

وبدأت أم كلثوم تغنى ، فكانت رائعة الصوت ، بارعة الصنعة ، حسنة الإلقاء ، بديعة الإشارة ، لطيفة الإيحاء ، تجتهد في أن ترضى الناس وتدخل السرور على ألبابهم ، ولقد كان لها من هذا ما أرادت » .

أم كلثوم والعود :

أجادت أم كلثوم العزف على العود . تعلمته على يد أكثر من فنان . أخذت أصول العزف في البداية على يد ملحنها الدكتور أحمد صبرى النجريدى (الطيب الهاوى) ، ثم على يد إبراهيم القباني ، ثم محمد القصبجى ، وأخيرا داود حسنى . كانت

تصاحب غناءها بالعود . . كما كانت تتوسط أفراد فرقها (التخت) في حفلاتها بالمسارح في مطلع الثلاثينيات . . وهى ممسكة بالعود . ثم تفرغت للغناء وحده .

أم كلثوم الباحثة عن الثقافة والعلم :

انصفت أم كلثوم بذكائها وحضور بديتها وسرعة الخاطر . . سعت وراء تثقيف نفسها . فدرست اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وحفظت مئات الأبيات من الشعر لفحول الشعراء . . واستفادت بصلتها القوية بشاعر الشباب أحمد رامى ، الذى علمها تذوق الشعر .

قرأت أم كلثوم أمهات الكتب العربية . . ودواوين الشعراء القدامى والمحدثين . تعلمت اللغة الفرنسية حتى أتقنتها . . بل وأجادتها . كما حرصت على مجالسة الأدباء والمفكرين تتزود منهم علما وثقافة . وانعكس كل ذلك على أدائها واختيارها للكلمة .

أم كلثوم والغدة الدرقية :

منذ عام ١٩٤٩ ، وأم كلثوم تعاني من الغدة الدرقية . وعرضت الولايات المتحدة الأمريكية على مصر أن تعالج أم كلثوم ، بمستشفى البحرية الأمريكية ، وهو مستشفى تخصصى . . نزيه الج به غير رجال البحرية الأمريكية وعظماء شخصيات العالم .

وعندما سافرت أم كلثوم ، لم يجرؤ واحد من الأطباء الأمريكيان أو العرب على إجراء عملية جراحية ، تهبيا لما قد يترتب عليها من مشاكل في صوتها . وفضلوا استعمال الذرة في علاجها . . وشفيت أم كلثوم . . وعادت إلى مصر . . واستقبلت استقبالا شعبيا رافعا في الإسكندرية . . وأقام الفنانون والشعراء والأدباء مهرجاناً جمع بين الخطب والقصائد الشعرية والزجل والغناء . وقدم لها « المصور » ميدالية عليها صورتها من صنع المثال « عباس الشيخ » ، وتبارت الهيئات والجمعيات في تكريمها .

وفي ١٨ يناير من عام ١٩٥٥ ، نشرت جريدة الأخبار تحت عنوان « أم كلثوم هى السبب في إنشاء معهد للذرة في مصر » : إن المعونة التى قدمتها الطاقة الذرية لإنقاذ الحياة الفنية لأم كلثوم ، أشهر مطربات مصر ، كان لها الفضل في وضع الحجر الأول في مشروع الرئيس أيزنهاور لاستغلال الذرة في الأغراض السلمية في الدول الأجنبية .

وأثناء وجود أم كلثوم في الولايات المتحدة الأمريكية ، توفي شقيقها وأعز إنسان لديها . . وأوصى الأطباء بإخفاء الخبر عنها ، حتى لا تموت من الصدمة أثناء العلاج . ومن المعروف أن أحد كبار موظفي وزارة الخارجية الأمريكية ، طلب من أم كلثوم أن تغنى أغنية واحدة لمحطة إذاعة صوت أمريكا بعد شفائها . ورفضت أم كلثوم ، وقالت :

سيكون أول غناء لى بعد شفائى لإذاعة مصر، لا لإذاعة أمريكا . وأنا مستعدة أن أدفع كل مصاريف العلاج ، لأغنى فى بلدى أولاً !!
فى أيامها الأخيرة :

كانت أم كلثوم عندما تقوم بتسجيل أغانيها ، تقف طيلة فترة التسجيل ، مهما طالّت المدة . . دون أن تشكو أو تشعر بالتعب . وفى آخر تسجيل لها . . وكان لحن محمد عبد الوهاب . . . كان يبدو عليها التعب الشديد . حاولت أن تتماسك . . ولكن التعب كان أقوى منها ، فجلست على كرسي . . وجاء مهندس الصوت وأصلح من وضع الميكروفون ، حتى تستطيع الغناء دون أن تبذل مجهودا كبيرا . ومنذ هذا اليوم ، أحس الحاضرون فى الاستوديو بمرض أم كلثوم الشديد .

وفى السنوات العشر الأخيرة من حياتها ، أى بين منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات ، بدأت أم كلثوم تشعر بخوف فى مواجهة الجماهير على الرغم من محبته العظيمة لها . وكان هذا الخوف كثيرا ما يسبب لها اللجلجة والنسيان . . فيتأثر مستواها الفنى المعهود . وظهر ذلك واضحا بعد مرضها بالغدة الدرقية .

ويؤيد المؤرخ كمال النجمى هذا رأى بقوله : « إن هناك فرقا بين أداء أم كلثوم قبل مرضها بالغدة الدرقية ، حين كانت تواجه الجمهور بصوتها مجردا يهز المسرح بلا ميكروفون ، وبعد مرضها عندما لجأت إلى الميكروفون .

الفصل الخامس القوالب الغنائية التي غنت منها أم كلثوم

في الثلاثينيات ، اكتمل بيان الغناء العربى على قواعده الأصولية . . واكتملت المدارس الغنائية . . فالمطربات بزعامه أم كلثوم ، والمطربون بزعامه عبد الوهاب . وانقسم الملحنون أيضا وراء أم كلثوم وعبد الوهاب . وظهرت قوالب غنائية جديدة . كما انكمش الدور . . فلم يعد مسموعا في الثلاثينيات إلا من مطربى الغناء ، مع أدوار قليلة بصوت أم كلثوم وعبد الوهاب

في الثلاثينيات تغير تكوين « التخت » ، وظهر إلى جانب العود والقانون والناى والكمان ، عدد كبير من الآلات الأوركستراية الأوربية . واستطاع الموسيقيون تعريب هذه الآلات الأوربية ، وتطويرها لتؤدى المقامات العربية . كما انصرف الجمهور في الثلاثينيات عن المسرح إلى السينما ، بعد أن أصبحت ناطقة . . وانتقلت الأصوات من المسرح إلى السينما . . ومن لم يستطع الظهور في السينما اتجه للغناء بالإذاعة .

الدور:

كان فن الدور يوشك أن يطوى أوراقه ويودع الدنيا ، عندما بدأ زكريا أحد في تلحين الأدوار لأم كلثوم ، وذلك بداية من عام ١٩٣١ . وهو دور « هو ذا يخلص من الله » . وكان زكريا يحاول تطوير فن الدور، بينما فن الدور يغادر ساحة الغناء المعاصر . ويبدو أن زكريا لحن هذه الأدوار بناء على رغبة أم كلثوم ، لتعلقها بهذا اللون من الغناء . فزكريا لم يلحن أدوارا غيرها من المطربات والمطربين ، باستثناء الدور الذى

غنته ليلي مراد ، ودور آخر غناه عزيز عثمان . وثمة دور ثالث غناه زكريا بصوته .
وهذه الأدوار الثلاثة جاءت في نفس الحقبة التي لحن فيها زكريا أدواره لأم كلثوم .
وفي المدة نفسها ، لحن داود حسنى لأم كلثوم عشرة أدوار . إلا أن أدوار زكريا
امتازت بمحاولاته للتجديد والإبداع فيها . . في حين تمسك داود حسنى بطريقة
التلحين الأصولية للأدوار، كما تعلمها وسمعها من أساتذته محمد عثمان وعبد
الحامولي .

إن هذه الأدوار التسعة عشر لزكريا أحمد وداود حسنى ، هى كل ما غنته أم كلثوم
من الأدوار طوال حياتها الفنية الحافلة .

والدور يتطلب أصواتا قوية ، متمكنة ، وهو ما كانت أم كلثوم تتميز به . أشار
«نجيب محفوظ» في روايته «خان الخليلي» ، عندما وصف في سياق الرواية «قعدة» في
حي الحسين ، تحدث فيها الأصدقاء عن الغناء ، إلى أن قال أحدهم :

«أجمل ما تسمع الأذن سى عبده الحامولي إذا غنى ياليل . والشيخ على محمود إذا
صعد مثذنة مسجد الحسين وأذن لصلاة الفجر، وأم كلثوم في دور «امتى الهوى ييجى
سوا» ، وما عدا هؤلاء فحشيش مغشوش بتراب» .

وكانت لدور «امتى الهوى ييجى سوا» عند المستمعين ضجة . وهو من كلمات
الزجال «حسن صبحي» ، لحنه زكريا من مقام هزام . ويبدأ بمقدمة قصيرة . . ولم
تكن للأدوار مقدمات . . وأدخل في الدور لزمات موسيقية تصل الفقرات . . وعدل
عن استخدام مذهبجية من المطربات ، كما فعل في دور «ابتسام الزهر» الذى شارك
في غنائه مذهبجيات . سجلت أم كلثوم هذا الدور على أسطوانة أوديون عام ١٩٣٦ ،
وفيه يظهر صوت زكريا أحمد الغليظ القدير، يتردد بين أصوات المذهبجية في جزء
الآهات والمذهب .

ومن أجمل أدوار زكريا أحمد لأم كلثوم ، دور «هو دا يخلص من الله» . وهو أول
أدوار زكريا لها ، والذى أحدث صدى واسعا عند المستمعين . فهو من مقام زنجران ،
ومن كلمات بديع خيرى .

ويعتبر هذا الدور قمة غنائية أبرزت إمكانات أم كلثوم الصوتية وقدرتها على أداء هذا اللون من الغناء . ويعتبر هذا الدور أعظم أدوار زكريا على الإطلاق ، فضلا عن كونه من أعظم الأدوار في تاريخ الغناء المعاصر .

ومن أدوار زكريا المميزة ، دور « مين اللى قال » و« ابتسام الزهر » و « يا قلبى كان مالك و « يا للى تشكى م الهوى هوّ عليك » . وقد توالى هذه الأدوار خلال أربع سنوات .

وآخر ما لحن زكريا لأم كلثوم من أدوار كان في أواخر عام ١٩٣٨ ، وهو دور للزجال يحيى محمد ، ومطلعه « ما كانش ظنى فى الغرام » ، وكان زكريا قد أخذه من إحدى المجالات وقام بتلحينه . غنته أم كلثوم عام ١٩٣٩ . وبهذا الدور طوى زكريا أحمد صفحة فن الدور واكتفى بها لحن في هذا القلب الغنائى . .

يقول كمال النجمي :

« لولا ما صنعه محمد عثمان والمسلوب وعبد الحامولى فى فن الدور ، لما استطاع الغناء المصرى أن يثب تلك الوثبة التاريخية الهائلة ، منذ منتصف العشرينات إلى يومنا هذا ، ولما أمكن أن تظهر أم كلثوم وعبد الوهاب وغيرهما فى الشوب الفنى الرائع المتجدد الذى رأيناه . . فالحقيقة أن عصر أم كلثوم وعبد الوهاب مدين للملحنين الفحول ، الذين تفننوا فى تلحين الأدوار الخالدة التى استوعبت مالا يمكن إحصاؤه من الضروب والمقامات ، والتى لم يسبق للغناء المصرى والعربى أن يكون قد سلك طرقها من قبل . »

ويمكن أن يقال إن الأغنية الطويلة التى اشتهرت بأدائها أم كلثوم بداية من الأربعينيات ، وليدة فن الدور ، وإن اختلفت عنه فى الشكل والصياغة . ويرى كمال النجمي أن الطقطوقة أيضا وليدة الدور . . فهو يقول :

« إن الطقطوقة الحديثة وليدة هذا الفن ، وليست امتدادا للطقطوقة القديمة مثل

«ارخى الستارة الى فى ريحنا» وغيرها من طقاطيق ما قبل ستين عاما . فصالح عبد الحى عندما غنى فى الخمسينيات طقطوقة «ليه يا بنفسج» من تلحين رياض السنباطى ، كان صالح يقول مفتخرا «إن هذه الطقطوقة تساوى دورا غنائيا بأكمله .» أما عن الأدوار التى لحنها داود حسنى لصوت أم كلثوم ، فقد تحدثنا عنها فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

القصيدة :

غنت أم كلثوم الدور والموشح والموال والطقطوقة ، غير أنها اختارت قالب القصيدة الشعرية . غنت العديد من القصائد لكبار الشعراء العرب . غنت من شعر «أبى نواس الحمدانى» ولحن «عبد الحامول» قصيدة «أراك عصى الدمع شيمتك الصبر» ، ومن قصائد «عمر بن الفارض» غنت «غبرى على السلوان قادر» . وللشيخ عبد الله الشبراوى (أحد مشايخ الأزهر السابقين فى القرن الثامن عشر) غنت «وحقك أنت المنى والطلب» . ومن شعراء العصر الأيوبرى غنت «لابن النبيه المصرى» «أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا» . . وغيرهم .

ويرجع لأم كلثوم وملحنى قصائدها فضل كبير فى أن جعلت أفراد الشعب العادى يتغنى بالأشعار . . ويفهم مضمونها . والمعروف أن الشعر هو أعلى ما بلغت إليه ألفاظ اللغة العربية .

وكان لأم كلثوم ذوقها الخاص فى اختيارها القصائد المغناة . . والكثير منها مأخوذ من دواوين بأكملها مثل قصيدة سلوا قلبى (أحمد شوقى) ، فهى من ديوان مؤلف من واحد وسبعين بيتا . . اختارت منها أم كلثوم واحدا وعشرين بيتا للغناء . الأبيات الستة الأولى فى الغزل . والخمسة التالية فى الحكمة . . وباقى الأبيات فى مديح الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

كما اختارت أم كلثوم قصيدة « نهج البردة » التى تضم ثلاثين بيتا من ديوان لشوقى

يضم مائة وتسعين بيتا . ومن الثلاثين بيتا التي اختارتها أم كلثوم ، ستة منها في الغزل وثلاثة في الحكمة . . وخمسة في الضراعة والتعبد ، وأثنا عشر في مدح الرسول ، وأربعة في الدعاء . وقصيدة « إلى عرفات الله » مأخوذة من ديوان شوقي الذي يضم ستين بيتا . اختارت أم كلثوم منها خمسة وعشرين بيتا ، منها ستة أبيات حذاء لركاب الحجيج ، وثمانية دعاء واستغفار لرب الكعبة . وبيتا واحدا في الحكمة ، وعشرة أبيات في زيارة الرسول . وقصيدة همزية شوقي مأخوذة من ديوان يتألف من مائة وواحد وثلاثين بيتا ، اختارت أم كلثوم منها أربعة وثلاثين بيتا . جاءت تسعة أبيات منها في بشرى مولد النبي ، وثلاث عشرة بيتا في الإشادة بدعوته للدين الإسلامي ، وسبعة في مدح الرسول ، وخمسة في التضرع والدعاء . والأمثلة عديدة .

غنت أم كلثوم في طفولتها عددا من القصائد التي تعلمتها عن طريق استماعها لفنونوغراف العمدة . كذلك حفظت بعض القصائد من والدها الذي كان يحرص على تقديم القصيدة ، ضمن أغانيه في الحفلات . وكان أستاذ أم كلثوم الأول المطرب والملحن « الشيخ أبو العلا محمد » الذي التقى بها في قريتها « طماي الزهايرة » قبل بدء حياتها الفنية بالقاهرة .

غنت أم كلثوم من ألحان الشيخ أبو العلا :

قصيدة	الصبب تفضحه عيونه	(أحمد رامى) (*)
قصيدة	أقصر فؤادى	(أحمد رامى)
قصيدة	قل للنحيلة بالسلام تورعا	
قصيدة	مثل الغزال	(صفى الدين الحلبي)
قصيدة	وحقك أنت المنى والطلب	(الإمام عبد الله الشبراوى)
قصيدة	يا آسى الحى	(إسماعيل صبرى باشا)
قصيدة	أفديه إن حفظ الهوى	(ابن النيه المصرى)
قصيدة	أمانا أيها القمر المطل	(ابن النيه المصرى)
قصيدة	أكذب نفسى	(ابن النطاح)

(*) أول قصيدة تغنيها أم كلثوم لأحمد رامى .

ولم تكن هذه القصائد ملحنة لصوت أم كلثوم . . ولكنها أخذتها عن الشيخ أبو العلا ومن تسجيلاته . وكان الشيخ أبو العلا قد غنى هذه القصائد بصوته .
وسجلت أم كلثوم هذه القصائد بصوتها على أسطوانات شركتى « جرامفون »
و« صوت سيدة » .

كما سجلت أم كلثوم قصيدة « أراك عصى الدمع » شعر « أبى فراس الحمدانى »
ولحن « عبده الحامولى » من مقام البياتى على أسطوانة أوديون فى عام ١٩٢٦ .
ويقول كمال النجمى :

« الشيخ أبو العلا » أول من أدرك من ملحنى العقدين الأول والثانى من القرن
العشرين أهمية التوافق بين الكلام والألحان . مع اهتمامه فى الوقت نفسه باستعراض
جمال الصوت وقوته وانضباطه فى الأداء . لم يسبقه إلى المطابقة بين اللحن والكلام أحد
من معاصريه فى العقد الأول من هذا القرن . ثم لحق به فى هذا المجال سيد درويش
وبقية الملحنين منذ العقد الثانى . وتوسعوا - وبخاصة سيد درويش - فى تصوير
معانى الكلمات والألحان .

وقد تجلّى ذلك كله فى القصائد الأولى التى غنتها أم كلثوم من تلحينه مثل « الصب
تفضحه عيونه » من تأليف الشاعر أحمد رامى ، وقصيدة « وحقق أنت المنى والطلب »
للشيخ عبد الله الشبراوى أحد مشايخ الأزهر القدماء ، وقصيدة شاعر العصر الأيوبرى
« أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعه » .

وهذا الشيخ الفنان هو الذى أعاد الغناء المصرى إلى أصوله العربية ، ونفى عنه
لهجته التركية والغجرية وغيرها .

واستطاع الشيخ أبو العلا وأم كلثوم معا أن يردا الغناء العربى إلى طريقته الحضارية
التي كانت له قبل سقوط بغداد فى أيدي التتار سنة ١٢٥٨ م ، ثم سقوط غرناطة
وضياع الأندلس على أيدي القشتاليين « الأسبان » سنة ١٤٩٢ ميلادية .

وكان انطلاق حنجره أم كلثوم بهذه الطريقة فى غناء القصائد فى العشرينيات ثورة

غنائية قائمة على بعث الطريقة العربية في الغناء ، بدلا من الاقتباس أو التزود من طرق الغناء الأوروبى .

والعجيب أن الشيخ « أبو العلا محمد » ترك هذا الأثر الفنى العظيم ، مع أنه لم يعايش أم كلثوم فى القاهرة إلا حوالى خمس سنوات ، أى من سنة ١٩٢٢ إلى أوائل سنة ١٩٢٧ حينما توفى .

وهذه السنوات القلائل كانت المدرسة الحقيقية التى تلقت فيها أم كلثوم فن القصائد من شيخها الفنان ، وكان هو نفسه شاعرا يملك موهبة نظم الشعر، وموهبة تلحينه فى وقت واحد . وله قصيدة يمدح بها أم كلثوم ، ويبدى فيها إعجابه بصوتها فى تلك المرحلة المبكرة من عمرها .

ويذكر عارفو الشيخ أبو العلا أنه كان شديد الخوف على أم كلثوم ، متوقعا لها حياة قصيرة ، لأنها على حد تعبيره « تغنى بدمها » ، أى تحرق دمه فى الغناء ، ولهذا لن تعمّر طويلا !

ولكن مخاوف الشيخ لم تتحقق لحسن الحظ . »

ثم جاء الطبيب الهاوى د . أحمد صبرى النجريدى ليلحن لأم كلثوم بعض القصائد . ويمكن القول إن أسلوب النجريدى فى تلحينه للقصيدة يعد امتدادا للشيخ أبو العلا محمد . من هذه القصائد :

قصيدة	كم بعثنا مع النسيم سلاما	(إبراهيم حسنى ميرزا)
قصيدة	لى لذة فى ذلتى وخضوعى	
قصيدة	مالى فتنت بلحظك الفتاك	(على الجارم)

ثم جاءت مرحلة محمد القصبجى وألحانه لأم كلثوم التى جاءت بالجديد فى فن الغناء ، غير أن محمد القصبجى لم يكن من ملحنى القصائد ، وإنما تعد أغانيه الناجحه لأم كلثوم من لون « الطقطوقة » و « المونولوج » .

حاول القصبجى أن ينقل نجاحه فى تلحين المونولوج إلى القصائد . . ولكنه لم

يوفق . .

ويقول كمال النجمى :

« لم يوفق القصبجى فيما حاول تلحينه من القصائد ، ولم يتيسر له إلا القليل ، فإن قصائده مثل « يا غائبا عن عيونى » و « يا نسيم الفجر ريان الندى » و « أيها الفلك على وشك الرحيل » لم تكن الا تقطيعات لحنية ، مصحوبة بنقرات على العود ، تصاحبها أصوات آلات موسيقية أخرى قليلة تعزف على استحيا ، بينما يجهد صوت أم كلثوم لتنفيذ سيناريو « التعبير » الذى رسمه القصبجى ، كأنه دوائر هندسية جامدة » .

وليس للقصبجى إلا قصيدة واحدة جمع فيها بين التعبير والطرب العربى الأصيل وهى قصيدة « يا فؤادى غن ألحان الوفاء » التى غنتها أم كلثوم فى فيلم « دنانير » . ويخيل إلى المستمع أن القصبجى تأثر فى بعض مقاطعها بلحن النجريدى لقصيدة « كم بعثنا مع النسيم سلاما » .

لم يلحن القصبجى لأم كلثوم إلا سبع قصائد وهى :

- إن حالى فى هواها عجب سنة ١٩٢٦

- انظرى سنة ١٩٢٦

- إن يغيب عن مصر سعد سنة ١٩٢٧

- أيقظت فى عواطفى سنة ١٩٢٨

- أيها الفلك على وشك الرحيل سنة ١٩٣١

- يا غائبا عن عيونى سنة ١٩٣١

- يا فؤادى غن ألحان الوفاء سنة ١٩٣٩

واشترك محمد القصبجى مع رياض السنباطى فى تلحين قصائد أوبرا عايدة من « فيلم عايدة » الذى مثلت فيه أم كلثوم دور الأميرة الحبشية (عايدة) . وكان الهدف

من تقديم هذا الجزء من أوبرا عايدة في فيلم من أفلام أم كلثوم ، هو البدء في تأليف هذا اللون من الغناء الغربى ، وإدخاله ضمن ألوان الغناء العربى . فشلت هذه المحاولة ، بل وفشل الفيلم بأكمله على الرغم من جمال الألحان الأخرى التى تغنت بها أم كلثوم . وعلى الرغم من جودة ألحان القصبجى والسنباطى فى جزء أوبرا عايدة . . الا أن الجمهور لم يستسغ هذا اللون من الغناء الأوبرالى . . وكانت عايدة هى المحاولة الأولى ، ولم تكررهما أم كلثوم فى أفلامها أو غنائها فيما بعد .

لم يكن القصبجى ميالا إلى تلحين الشعر ، وحاول إخضاع القصائد التى لحنها لنفس أسلوب تلحينه للزجل العامى فى الطقطوقة والمونولوج ، وهذا هو السبب الأساسى لفشل القصبجى فى تلحين الشعر الفصيح .

وجاء زكريا أحمد بقصائده المميزة . فلحن لصوت أم كلثوم القصيدة الشعرية الوحيدة فى فيلمها الأول وداد (١٩٣٥) ، وهى من شعر الشريف الرضى . أحد كبار شعراء العصر العباسى الثانى . نظمها على بحر « الخفيف » ومطلعها :

أيها الرائح المجد تحمّل حاجة للمتيّم المشتاق

لحنها زكريا أحمد من مقام الصبا . . وأبدع فى صياغتها . وكانت هى أول قصيدة يلحنها لأم كلثوم . . وفيها أثبت براعته الفائقة فى تلحين الفصيح . وعندما شرعت أم كلثوم فى تقديم فيلم « دنانير » ، أسندت إلى زكريا تلحين جميع ما فيه من قصائد الشعر . . وكانت أربع قصائد ثلاث منها مجتمعة فى موقف واحد ، تبدأ كل منها بقول الشاعر :

قول لطيفك ينثنى عن مضجعى . أما القصيدة الرابعة ، فهى من تأليف أحمد رامى . . وهى قصيدة باكية من مقام الصبا مطلعها : « رحلت عنك ساجعات الطيور » .

وآخر ما لحن زكريا من القصائد لأم كلثوم ، كان من شعر الشيخ محمد الأسمر . وقد نظمه تحية للجامعة العربية سنة ١٩٤٥ ومطلعها :

زهر الريح يرى أم سارة تحب

وروضة أينعت أم حفلة عجب

أى أن حصيلة زكريا أحمد لأم كلثوم من القصائد لم تخرج عما قدمه لأفلامها السينمائية . . وتلك المناسبة التاريخية المتعلقة بالجامعة العربية . وقصيدة « بين ذل الهوى وعزة نفسى » وهى من الأعمال التى لم تنتشر ولا يذكرها الآن أحد .

أما الوثبة الكبرى فى فن القصيدة ، فكانت على يد رياض السنباطى الذى لقب بأبى القصيدة . فقصائد السنباطى هى شوامخ هذا المجال من الغناء . أدخل عليها رياض المقدمات والزمات الموسيقية كما أكثر من تنقلاته فى المقامات ، مما أكسب اللحن ثراء .

كان السنباطى متأثرا بالرعيل الأول من ملحنى القصائد . كما كان متأثرا بأسلوب زكريا فى هذا المضمار . ويبدو ذلك واضحا فى أول قصيدة من ألحانه لأم كلثوم ، وهى من شعر أحمد رامى ومطلعها :

كيف مرت على هواك القلوب فتحيرت من يكون الحبيب

ولكن سرعان ما استطاع رياض التخلص من جنادبية أسلافه فى التلحين ، وانطلق بأسلوبه المميز فى فضاء هذا الفن العريق . فن تلحين القصيدة الذى فتح له صوت أم كلثوم أبوابا سحرية . وبذلك تفتحت موهبة السنباطى ولبى بألحانه صوت أم كلثوم وارتفع به إلى قمة الغناء .

يقول كمال النجمى (١٣) .

« لقد تخطى السنباطى أسلافه ومعاصريه فى تلحين القصائد بالاستعاضة عن الطرب الزخرفى بطرب أكثر تعبيرا . وأحاط الجملة الغنائية فى القصيدة بإطار مبتكر من المقدمات واللوازم الموسيقية يزيد الجملة الغنائية بكلامها ولحنها معا ، وضوحا فى الأسجاع ، ورهافة فى القلوب ، ويعقد صلة شديدة القوة بين الصوت واللحن وعزف الآلات الموسيقية . وقد تزايدت قدرته من مرحلة إلى مرحلة ، وزودته تجاربه بما يمكن

تسميته « سر الصنعة » وهو سر لم يستطع أحد من ملحنى عصرنا كله أن يشارك فيه السنباطى ، وحسبك أن تتذكر ألحانه الفذة لقصائد مثل « سلوا قلبى » و « ريم على القاع » و « وقف الخلق ينظرون » و « سلوا كتوس الطلا » و « رباعيات الخيام » و « الأطلال » .

وبين الثلاثينيات والستينيات تدرجت الألحان السنباطية لأم كلثوم فى القصائد التالية :

- كيف مرت على هواك القلوب سنة ١٩٣٥
- اذكرينى كلما الفجر بدا سنة ١٩٣٩
- سلوا كتوس الطلا سنة ١٩٤٤
- سلوا قلبى سنة ١٩٤٥
- ريم على القاع سنة ١٩٤٦
- من أى عهد فى القرى تتدفق (النيل) سنة ١٩٤٦
- أصبون كرامتى سنة ١٩٤٧
- ولد الهدى سنة ١٩٤٩
- رباعيات الخيام سنة ١٩٤٩
- وقف الخلق ينظرون جميعا (مصر تتحدث عن نفسها) سنة ١٩٥١
- أغار من نسمة الجنوب سنة ١٩٥٤
- بأبى وروحي الناعمات الغيدا سنة ١٩٥٤
- ذكريات سنة ١٩٥٦
- قصائد رابعة العدوية سنة ١٩٥٧
- أنا لن أعود إليك (قصة الأمس) سنة ١٩٥٨
- ثورة الشك سنة ١٩٦٢
- أراك عصى الدمع سنة ١٩٦٤
- إلى عرفات الله سنة ١٩٦٥
- الأطلال سنة ١٩٦٦

سنة ١٩٦٧

- حديث الروح

سنة ١٩٦٩

- أقبل الليل

سنة ١٩٧١

- من أجل عينيك

كما لحن رياض السنباطى العديد من القصائد التى قيلت فى مناسبات سياسية عابرة ، وأناشيد وطنية . والتاريخ يشهد لرياض السنباطى أنه ليس بين جميع معاصريه من استطاع أن يلحن مثل هذه القصائد كما وكيفا . وقد اهتم رياض بالمقامات العربية . . فأعطى كل قصيدة ما يناسبها من المقامات الموسيقية التى تعبر عن معانيها فأكسبها نراء .

وانضم إلى ركب ملحنى القصائد الكلثومية ملحنان جديدان ، هما كمال الطويل ومحمد الموجى . استعانت بهما أم كلثوم فى ألحان قصائد « رابعة العدوية » . وهى تمثيلية غنائية ضخمة ، بطولة سميحة أيوب (تمثيلا) وأم كلثوم (غناء) . وكانت هذه بداية لمرحلة أخرى من الغناء الكلثومى للقصائد الفصيحة . جاءت قصائد « رابعة العدوية » « عصرية الطابع . مع أن رابعة عاشت قبل ألف ومائتى سنة . . عقب زكريا أحمد على هذه القصائد بقوله : « إن القصص التاريخية القديمة تحتاج لألحان ذات نكهة تراثية ، مثل الألحان التى وضعتها لفيلم سلامة سنة ١٩٤٤ . » وكانت هذه القصائد من أروع ما غنت أم كلثوم .

لم تشأ أم كلثوم أن تسند إلى السنباطى تلحين القصائد فى رابعة العدوية ، فأسندت إلى الطويل والموجى تلحين البعض منها . . وكانت هذه مفاجأة لمتابعى فن أم كلثوم . فإن تجارب الموجى والطويل فى تلحين القصيدة كانت لا تزال فى بدايتها .

لحن الموجى قصيدتى : « انقروا الدفوف » و « حانة الأقدار » . كما لحن الطويل قصيدة « لغيرك ما مددت يدا » (شعر طاهر أبو فاشا) . يقول كمال النجمى (١٣) :

« إن الطابع الأساسى فى غناء أم كلثوم للقصائد فى تلك الفترة كان إطلاق صوته

على امتداد مقاماته السبعة عشر (في العشرينيات) ، والتشدد في دقة الأداء ، تحقيقا لعنصر أساسى من عناصر الغناء العربى المتقن ، وهو « قوة الأسر » . أى شدة الضبط والإحكام فى الأداء . . ومتانة بناء الأداء نبرة فوق نبرة .

وقوة الأسر فى الغناء العربى المتقن كانت منذ بدايته استطرادا للفصاحة فى الشعر العربى . فلا تجتمع الفصاحة الشديدة فى الشعر مع ركاكة الغناء واسترخائه .

وقد حققت أم كلثوم فى تلك الفترة الحافلة بالنشاط ، تدريباً صوتياً بالغ الأهمية . كما حققت نصراً ساحقاً على طريقة الغناء العجربى والعثمانى والسوقى العامى . ومضت بعد ذلك مع ملحنى قصائدها بل أعظم ملحنى القصائد وغير القصائد فى عصرنا كله . وعلى رأسهم رياض السنباطى . «

ودخل عبد الوهاب مضمار القصائد الكلثومية متأخراً . فلم يلحن لها القصيدة إلا بعد أن لحن لها أربع أغنيات هى :

« إنت عمرى » - « إنت الحب » - « أمل حياتى » - « وفكرونى » .

وأول قصيدة لحنها عبد الوهاب لأم كلثوم من شعر « جورج جرداق » قصيدة « هذه ليلتى » . وفيها ابتعد عبد الوهاب عن أسلوب السنباطى والقصبجى وزكريا فى التلحين . وجاء بأسلوبه الوهاى الخاص . وعبد الوهاب ذو تاريخ طويل فى تلحين القصائد . فقد لحن وغنى مجموعة كبيرة منها فى العشرينيات والخمسينيات .

أدخل عبد الوهاب الإيقاعات والألحان الراقصة فى قصيدته الأولى لأم كلثوم « هذه ليلتى » . ولم يكن المستمع العربى قد اعتاد هذا الأسلوب فى غناء أم كلثوم . فجاءت هذه القصيدة للمرح والرقص والغزل الجربى . وقد تخفف عبد الوهاب من هذه الإيقاعات الراقصة فى قصيدته الثانية التى لحنها لأم كلثوم عام ١٩٧١ . وهى قصيدة « أغدا ألقاك » (شعر الهادى آدم) . ففى هذه القصيدة عاد عبد الوهاب للسلطنة والطرب . وتعتبر هذه القصيدة من أجمل ما لحن عبد الوهاب لصوت أم كلثوم . ففيها جمع بين التعبير والطرب وبين خفة الظل والرقص والعذوبة . . وأدتها أم كلثوم باقتدار . . وفيها كانت تودع عالم الغناء .

هوجم عبد الوهاب في أسلوب تلحينه لأغاني أم كلثوم ، بإدخاله الإيقاعات الغربية والآلات الكهربائية « الأورج » و « الجيتار » . كذلك آلة « الأكورديون » .
وعلى عبد الوهاب استخدامه لهذا الأسلوب الجديد بقوله :

« استطعت بهذا اللون الجديد الذى فرضته على صوت وأداء أم كلثوم ، تقريب أغانيها إلى الشباب الذى التف حول المطرب المعبر عبد الحليم حافظ .

ولعبد الوهاب لحنان آخران لقطعتين من الشعر الفصيح . . إحداهما من شعر كامل الشناوى وهى « على باب مصر » ، والثانية من نظم نزار قبانى (أصبح عبنى الآن بندقية) .

ومنذ أن بدأت أم كلثوم فى غناء القصائد فى أوائل العشرينيات ، وهى تظهر بحنجرتها المثقفة ولهجتها ونطقها السليم .

كان الناس فى تلك الفترة يستمعون إلى غناء سوقى ، حتى إذا جاءت أغانيها باللغة العربية الفصحى فإنها تؤدى باللهجة السوقية التى كانت المطربات يتغنين بها الطقاطيق الزجلية الرخيصة المنتشرة فى ذلك الوقت .

فقد جاءت أم كلثوم بمدرسة الشيخ أبو العلا محمد . . وهنا صمت المطربون ، وأنصت المستمعون .

وتعرف أم كلثوم بمطربة القصائد فى عصرنا - لأنه لا ينازعها فى هذا المضمار مطرب أو مطربة . . غنت ما يقرب من ثمانين قصيدة . وبين القصائد التى تغنت بها فى العشرينيات وقصائدها فى الستينيات والسبعينيات مشوار طويل وصعب . فخلال هذه الفترة الزمنية تطورت بأدائها للقصيدة ، حتى وصلت بها إلى أزهى صورة عرفها تاريخ الغناء العربى المتقن .

الطقطوقة :

استطاعت الطقطوقة أن تتفوق على ألوان الغناء الأخرى ، فهى أغنية بسيطة فى معانيها شعبية فى ألحانها .

والطقطوقة أغنية ذات مذهب وأربعة أو خمسة أدوار أو أغصان . وعند ظهور

« الفونوغراف » وانتشار الأسطوانات ، انتشرت الطقطوقة التى كانت أكثر ألوان الغناء مناسبة للتسجيل . فهى الأغنية الخفيفة ، القصيرة ، التى لا تزيد على خمس دقائق . وكانت الطقطوقة تختلف فى عدد أدوارها أو أغصانها تبعاً لحجم الأسطوانة وأسلوب المغنى فى الإلقاء من حيث السرعة والبطء . وبظهور الطقطوقة ، استغنى المطرب عن البطانة أو السنييدة فى أدائه لهذا اللون الجديد من الغناء . وتعد الطقطوقة بمثابة لحن شعبى يشعر بها رجل الشارع ، ويردها فى كل مكان لبساطة تركيبها وبعدها عن التعقيد .

وتلحق الشعب المصرى بهذا اللون من الغناء ، أخذ الملحنون والمطربون يقدمون على أدائه . كما اهتمت شركات الأسطوانات بتسجيل هذا اللون من الغناء الذى جاءت من ورائه مكاسب طائلة . تطورت الطقطوقة على يد الشيخ زكريا أحمد وأصبحت « الأغصان » لا تلحن جميعها من مقام واحد . كما أدخل زكريا جملاً موسيقية (لزمات) تمهد لكل غصن .

ومن تطوير زكريا للطقطوقة صياغته للموال الزجل فى قالب الطقطوقة المتطورة ، مثل « الأولى فى الغرام » ، وهى من تأليف بيرم التونسي . وكان من نصيب صوت أم كلثوم عدد كبير من هذه الطقاطيق . . فغنت أم كلثوم فى الثلاثينات من ألحان زكريا « الى حبك يا هناء » ، و « العزول فايق ورايق » ، و « الليل يطول ويكيدنى » ، و « بكره السفر » ، و « جمالك ربنا يزيد » وغيرها . وفى الأربعينيات غنت أم كلثوم : « قل لى ولا تخبيش يا زين » ، و « غنى لى شوى شوى » وغيرها .

وغنت أم كلثوم من بين هذه الطقاطيق فى حفلاتها الإذاعية : « كل الأحبة اثنين اثنين » ، و « إيه اسمى الحب » ، و « آه من لفاك فى أول يوم » ، و « أنا فى انتظارك » و « أهل الهوى ياليل » و « حببى يسعد أوقاته » . . وكانت كل هذه الطقاطيق من نظم بيرم التونسي وألحان زكريا أحمد .

أما محمد القصبجى فاستطاع أن يساهم فى تطوير هذا اللون من الغناء ، بأنه ابتعد

بها عن مفهوم التطريب المتزلف ، إلى أبعاد أخرى أكثر رفعة ووقارا . ومن الأمثلة على ذلك : طقطوقة « ليه تلاوعيني » التي غنتها أم كلثوم في الثلاثينيات – « وتبيعيني ليه كان ذنبي إيه » ، و « انت فاكراي والانساني » ، و « محتار يا ناس » . إلى غير ذلك . كما اهتم رياض أيضا بالطقطوقة ، فوضع لها معزوفة ترتبط بالمعنى وتثير الانتباه . ومن بين أشهر أعماله الأولى لأم كلثوم « افرح يا قلبي » . وكان رياض لا يخرج في ألحانه عن القالب الموضوع من أسلافه الملحنين . ثم لحن من لون الطقطوقة لأم كلثوم :
لما انت ناويه تهاجريني - ياليلة العيد آنستينا - ظلموني الناس - وغيرها . وطور رياض تلحينه للطقطوقة حتى أصبح لها أسلوب متطور متقدم ، تتنوع فيها اللزمات الموسيقية بين كل غصن وآخر . كما تتنوع الألحان في الأغصان المختلفة . وهو في كل ألحانه ، كان حريصا على التعبير عن معاني الكلمات تعبيرا حقيقيا صادقا .
ولأم كلثوم طقطوقة واحدة قامت بتلحينها في عام ١٩٢٨ ، وهى من كلمات أحمد رامى ، ومن مقام الراس ، وهى طقطوقة « على عيني الهجر دا منى » مسجلة على أسطوانة جرامفون في عام ١٩٢٨ . وتقول كلماتها

طقطوقة

على عيني الهجر دا منى

تأليف أحمد رامى - تلحين أم كلثوم - (مقام راس)

مذهب

دا بعاذك كان غصبين عنى

على عيني الهجر دا منى

غصن
وجفانى وجفيتيه النوم
على عيني الهجر دا منى

حييتك ورضيت باللوم
تعا ليل وشوفي حالى اليوم

غصن

وهاديتك باعز ما عندى
على عيني الهجر دا منى

حييتك وصفاك ودى
أشجانى ودموعى وسهدى

غصن

في غرامك يا ما شفت الويل
أتألم وتنامى الليل
سهران بك ونديمى سهيل
على عينى المهجر دأ منى

غصن

اصفى لى يصفالك قلبى
حيثك والأمر لربى
وراضينى ترضى من حبى
وعلى عينى المهجر دأ منى

غصن

* * *

المونولوج :

الشاعر أحمد رامى هو الذى أضاف مصطلح « المونولوج » إلى مصطلحات الغناء العربى الجديد . وكلمة « مونولوج » معناها باللغة الإغريقية الأداء الانفرادى .

وخلال ثورة ١٩١٩ ظهر قالب الغنائى النقدى الخفيف الذى عرف بالمونولوج الفكاهى . واشتهر بأدائه يوسف وهبى - حسن فايق - فكرى أباطة وغيرهم . وتطور هذا اللون من الغناء على يد إسمايل يس ومحمود شكوكو وثرىا حلمى وغيرهم . وانتشر المونولوج الخفيف بأنواعه النقدى والشورى والوطنى . . وكانت هذه المونولوجات تثير حماس الشعب خلال ثورة ١٩١٩ .

ثم جاء المونولوج الغنائى الذى طور قالبه اللغوى أو النظمى أحمد رامى بعد عودته من بعثته فى باريس عام ١٩٢٤ . ففى المونولوج استخدم رامى أكثر من بحر وقافية فى القطعة الواحدة ، وبذلك أعطى الملحن الفرصة لإدخال التنويع واستخدام المقامات والضروب الإيقاعية المتعددة .

استطاع القصبجى أن يجعل من تلحينه للمونولوج قالباً غنائياً عربياً جديداً . ففيه استبدل القصبجى بالمقدمة الموسيقية القصيرة (الدولاب) ، أخرى تفصح عن روح الأغنية . وقوبلت هذه المحاولة من الملحنين الزملاء بالهجوم وعدم الاقتناع . وذلك بخروج القصبجى عن التقليد المتبع . ولكن سرعان ما انتشر هذا اللون الجديد من

الغناء ، ولقى استحسانا من المستمعين .

كتب أحمد رامى فى عام ١٩٢٧ لأم كلثوم مونولوجا دراميا « إن كنت أسامح وأنسى
الأسية » ولحنه محمد القصبجى . ويمتاز هذا المونولوج بالقلب الجديد . ففيه اختفت
القفلة المتكررة . . وظهرت مقدمة موسيقية قصيرة مستقلة ، شبيهة بمقدمات الأغاني
الأوربية حينذاك . كما أدخل القصبجى من مقام الماهور (الماهورك) ، وهو مقام
عربى الأصل ، اتخذ اسما أجنبيا بعد سقوط هولاء سنة ١٢٥٨ وانطواء صفحة الغناء
العربى المتقن . والماهور أو الماهورك باللغة الفارسية معناها « الهلالى » . وكان مونولوج
« إن كنت أسامح وأنسى الأسية » حافزا لعبد الوهاب على غناء مونولوج « أهون
عليك » .

وتوالى بعد ذلك المونولوجات التى لحنها القصبجى لأم كلثوم . محاولا إضافة
الجديد فى هذا اللون من الغناء . . فغنت مونولوج « عيني فيها الدموع » ، و « يا لى
جفائك المنام » ، و « يا ما ناديت من أسايا » ، و « فين العيون الى سابتنى » . ومن
مونولوجات الأفلام « يا طير يا عايش أسير » (فيلم وداد) و « فنت شبابى » و « امجد
يا ما اشتيتك » (فيلم نشيد الأمل) . ثم آخر لحن بصوت أم كلثوم من ألحان
القصبجى « رق الحبيب وواعدنى » . (١٩٤٦)

وفى هذه الفترة ، غنى عبد الوهاب « النيل نجاشى » ، و « ببل حيران » ،
و « يا دنيا يا غرامى » ، و « أحب عيشة الحرية » ، و « فى الجو غيم » ، و « فى الليل لما
خلى » ، و « يا لى بتنادى أليفك » ، وغيرها .

ثم جاء السنباطى ولحن مونولوجاته الأولى لأم كلثوم من سنة ١٩٣٥ إلى أوائل
الأربعينيات : « النوم يداعب عيون حبيبى » ، و « قضيت حياتى » ، و « يا لى
صنعت الجميل » ، و « يا طول عذابى واشتياقى » ، و « يا لى كان يشجيك أنينى » ،
وغیرها .

وكان أثر القصبجى واضحا فى مونولوجات السنباطى الأولى . ثم استقل الأخير

بأسلوبه الخاص في التلحين .

ويرى « كمال النجمي » أن السنباطى لم يتحرر بالكامل من أسلوب القصبجي ، إنما بقى هناك شيء يربط السنباطى بالقصبجي ولو من بعيد وبعيد جدا . ولحنت أم كلثوم مونولوجا من كلمات أحمد رامى (مقام حجاز كار) وغنته وسجلته على أسطوانة أوديون عام ١٩٣٦ .

الأغنية الوطنية :

بدأ الشعور الوطنى لدى أم كلثوم منذ صغرها . فعند وفاة الزعيم سعد زغلول عام ١٩٢٧ ، انقطعت عن الغناء مشاركة في أحزان الشعب . ولم تعد للغناء إلا يوم ذكرى الأربعين ، فرثته بأغنية نظمها أحمد رامى ولحنها القصبجي :

إن يغيب عن مصر سعد	فهو بالذكرى مقيم
ينضب الماء ويبقى	بعده البيت الكريم
خلدوه في الأمانى	واذكروه في الولاء
واندبوه في الأغانى	أعذب الشكوى البكاء
أنشدوا الشعر ثناء	في سجاياء العذاب
أرسلوا الدمع وفاء	للذى لاقى العذاب

في سبيل الوطن	* مثنى صفوف المحن
بين سجن واغتراب	في مشيب وشباب
مجدوه في الأغانى	خلدوه في الأمانى

ولتعيش ذكرى الزعيم

وحينما قامت ثورة ١٩٥٢ ، انفعلت أم كلثوم بالأحداث ، وراحت تغنى للشعراء الذين نظموا ، وانفعلوا بهذه المواقف الوطنية . وكان أولهم أحمد رامى الذى غنت له :

مصر التى فى خاطرى وفى فمى أحبها من كل روحى ودمى
 كما غنت من الشعر القديم لحافظ ابراهيم :
 وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى
 وانتشرت الأغانى الوطنية بصوت أم كلثوم فى الإذاعة والتلفزيون فسمعنا :
 يا دعاة الحق هذا يومنا لاح فى آفاقه نور الرجا
 وقصيدة بين عهدين (أحمد رامى - رياض السنباطى) غتها أم كلثوم عام ١٩٤٩ :
 طالما أغمضت عينى وتخيلىت بـلادى
 مثلها صـور ظنـى وتمناها فـؤادى
 وغنت أيضا :
 أيها السارى إلى فجر المنى غنى للنور الذى قد أشرقا
 إلى غير ذلك .. ويمكن حصر أشهر الأغانى الوطنية والقومية التى غتها أم كلثوم فى
 الآتى :

١٩٣٧	أحمد رامى - رياض السنباطى	يا شباب النيل
١٩٥٢	أحمد رامى - رياض السنباطى	مصر التى فى خاطرى
١٩٥٤	أحمد رامى - محمد الموجى	يا مصر إن الحق جاء
١٩٥٦	صلاح جاهين - كمال الطويل	والله زمان يا سلاحى
١٩٥٦	صلاح جاهين - رياض السنباطى	راجعين بقوة السلاح
١٩٥٧	عبد الفتاح مصطفى - بليغ حمدى	كشف النقاب عن الوجوه الغابرة
١٩٥٨	محمود حسن إسماعيل - رياض السنباطى	بغداد يا قلعة الأسود
١٩٥٨	عبد الفتاح مصطفى - رياض السنباطى	منصورة يا ثورة أحرار
١٩٥٩	طاهر أبو فاشا - رياض السنباطى	مشى المجد فى يومه المرتقب
١٩٦١	عبد الفتاح مصطفى - رياض السنباطى	نوار ولاخر مدى نوار

الزعيم والثورة	عبد الفتاح مصطفى-رياض السنباطى	١٩٦٣
على باب مصر	كامل الشناوى-محمد عبد الوهاب	١٩٦٤
قم واسمعها من أعماق	صالح جودت-رياض السنباطى	١٩٦٧

روى كمال النجمى :

« فى بداية عصر جمال عبد الناصر، كانت أم كلثوم مستبعدة عن ثقة العهد الجديد ورضاه . فقد استطاعت مجموعة صغيرة من العسكريين والمدنيين ، أن تدخل فى روع بعض ذوى النفوذ ، أن أم كلثوم كانت من رموز العهد البائد ، وأن من واجب العهد الجديد منعها من الغناء !

ونجح أولئك السذج فى منع إذاعة أغانى أم كلثوم بعض الوقت ، ولكن العقلاء من مستشارى العهد الجديد استطاعوا وقف هذه الحملة البلهاء ، وإعادة أغانى أم كلثوم إلى ميكروفون الإذاعة .

ولم يكن لعبد الوهاب يد فى هذه الحملة من قريب ولا من بعيد ، لأن السذج الذين منعوا إذاعة أغانى أم كلثوم ، يمكن أن يمنعوا أغانيه هو أيضا إذا تراءى لهم ذلك .

وانفجرت هذه المشكلة بعد انطلاق الرصاصات الطائشة على جمال عبد الناصر فى حادث المنشية بالإسكندرية بعد عقده « معاهدة الجلاء » مع الإنجليز عام ١٩٥٤ . فقد سارع أصدقاء أم كلثوم ، ينصحونها بانتهاز الفرصة وتسجيل أغنية تعبيرا عن ابتهاجها بنجاة الرئيس . وكانت طقطوقة « يا جمال يا مثال الوطنية » ، من زجل بيرم التونسى وتلحين رياض السنباطى ، هى العصا السحرية التى ألغت ما حاول السذج والجهلاء تلفيقه وتدبيره لخلق صوت أم كلثوم .

بعد هذه الأغنية المطربة ، الخفيفة الظل ، التى تعانق فيها صوت أم كلثوم بالحن السنباطى ، صارت أم كلثوم هى مطربة العهد الجديد . وتحولت هذه الأغنية إلى ما

يشبه « النشيد القومى » . . وتلقفها ميكروفون الإذاعة ييئها بلا ملل ولا كلل ، يوسا
بعد يوم .

أم كلثوم والسينما :

فى عام ١٩٣٣ ، وبعد نجاح فيلم « الوردة البيضاء » الذى لعب بطولته محمد
عبد الوهاب ، فكرت أم كلثوم أن تنتج فيلما لحسابها ، تقوم ببطولته . ولكنها تراجعت
عن الفكرة عندما بلغها أن تكاليف فيلم الوردة البيضاء بلغت اثنى عشر ألف جنيه .
عرض بولس حنا (باشا) ، وهو أحد أغنياء الصعيد ، على أم كلثوم القيام بإنتاج
فيلمها الأول ، على أن تكون شريكة له بمجهودها الفنى . وافقت أم كلثوم . وقررت
أن تكون قصة « وداد » لأحمد رامى أول أفلامها . ولكنها عادت وفسخت عقدها مع
بولس حنا (باشا) . وقامت شركة مصر للتمثيل والسينما بإنتاج فيلم « وداد » .
وتقاضت أم كلثوم عن دورها فى الفيلم خمسة آلاف جنيه . وكان أجرا خياليا فى ذلك
العهد . وقام بإخراج الفيلم المخرج الألمانى « فريتز كرامب » ، وكتب السيناريو له
أحمد بدرخان ، وقام بالبطولة أمامها أحمد علام . وكان العرض الأول لفيلم وداد فى ١٠
فبراير عام ١٩٣٦ . وضم الفيلم تسع أغنيات .

وفى هذا العام نفسه ، اشتركت مصر بفيلم « وداد » فى معرض السينما الدولى الذى
أقيم بمدينة البندقية ، على اعتبار أنه أول إنتاج لإستوديو مصر .

غنت أم كلثوم فى فيلم وداد :

« ليه يا زمان » - و « يا طيريا عايش أسير » - و « يا لى ودادى صفا لك » - و « يا
بهجة العيد السعيد » ، وكلها من ألحان محمد القصبجى وكلمات أحمد رامى - كما
غنت من ألحان زكريا أحمد « يا بشير الأنس » (أحمد رامى) - وقصيدة « أيها الراحل
المجد » (*) - و « يا ليل نجومك شهود » (أحمد رامى) . ومن ألحان رياض السنباطى

(*) من نظم الشاعر العباسى المشهور « الشريف الرضى » .

غنى عبده السروجى « على بلد المحبوب ودينى » وغنت المجموعة « حيوا الربيع » - و« البحر زاد يا فرحنا » كلمات أحمد رامى . كما ألف رياض موسيقى بعنوان رقصة « شانجهاى » لتؤدى فى مقهى فى أحد مناظر الفيلم . وعندما سئلت أم كلثوم عن سبب اختيارها لقصة وداد أجابت : « لأن وداد جارية مغنية ، وبذلك يسهل إيجاد مناسبات الغناء . وبذلك لا تحشر الأغاني حشرا . . أو تأتى بتكلف » .

ويقال إن أم كلثوم بكت طربا وفرحا وهى تسمع أغاني فيلم وداد ، وذلك عند رؤيتها للفيلم فى عرضه الأول .

وعند الحديث عن فيلم وداد ، لابد من ذكر اسم « طلعت حرب » فخر الاقتصاد وسياسة المال . الذى حذاه إخلاصه لوطنه وحبه للفن إلى التفكير فى إنشاء شركة مصر للتمثيل والسينما . وشيد لها أستوديو أراد به أن يكفى بلاده مئونة الاتكال على غيرها من البلاد . وأعد هذا الأستوديو بأرقى المعدات وأحدث وسائل الإخراج . وبعد نجاح فيلم وداد . . وإقبال الجماهير عليه ، أعلنت منيرة المهدي مسئولية أم كلثوم عن انهيار المسرح الغنائى . فهى بهذا الفيلم ، جذبت جمهور الغناء الذى أدار ظهره لمنيرة وللمسرح ، واتجه إلى الفن الجديد . . فن السينما .

واتجهت منيرة أيضا إلى السينما طمعا فى الربح ، وشفاء لغليلها ، فأنجبت فيلما غنائيا هو « الغندورة » ، الذى اقتبس من مسرحيتها الغنائية التى كانت تحمل نفس الاسم . . وكانت أكثر مسرحياتها نجاحا . إلا أن منيرة لاحقا فشل على الشاشة . . فخسرت جزءا كبيرا من ثروتها . . لأنها أنتجت الفيلم لحسابها الخاص . . كما احترق الفيلم وضاع أثره .

وعند الحديث عن فيلم وداد ، لابد من التوقف عند أغنية « على بلد المحبوب » (لحن رياض السنباطى) ، التى قام بغنائها فى الفيلم المطرب عبده السروجى . فقد نجحت هذه الأغنية جماهيريا . وبعد عرض الفيلم بعدة شهور ، ظهرت أسطوانة لهذه الأغنية بصوت أم كلثوم . وفيها استطاعت أم كلثوم أن تضيف لمساتها البديعة .

وسجلت مبيعات هذه الأسطوانة رقما خياليا في كل أرجاء الوطن العربى . ويقال إن أغنية « على بلد المحبوب » كانت قد وضعت أصلا لتغنيها أم كلثوم في فيلم وداد . . لكنها لم تعجبها . فلما سمعتها بصوت عبده السروجى ، وبعد نجاحها الشعبى ، ندمت وعادت تسجيلها على أسطوانتها التى اشتهرت شهرة بالغة . وفى ذلك يقول السنباطى :

« إن هذه كانت من أندر هفوات أم كلثوم في تقديرها للألحان » .

وفى حديث آخر أدلى به رياض السنباطى من إذاعة القاهرة عام ١٩٧٧ ، قال : عرض على « أحمد سالم » (*) كلمات أغنية « على بلد المحبوب ودينى » لأحمد رامى ، وهو يعتذر بأنها الأغنية الوحيدة التى سألحها لفيلم وداد . وبعد أيام أنهيت تلحينها وسلمتها لأحمد سالم ليعود إلى فى اليوم التالى قائلا : اللحن لم ينل الرضا ، ولم يحظ بقبول من أم كلثوم ، وطلب إلى أن ألحنه ثانية ، فرفضت ، وطلبت منه أن يكلف ملحنا آخر ليحلحها ، وأعلمته بأننى سأعطى هذا اللحن لعبده السروجى . وعندما استمع إليه « باروخ » أعجب به ، وسجله بصوت السروجى . وقبل أن ينتهى الفيلم ، ظهرت الأغنية ونجحت نجاحا شعبيا كبيرا . وزادها نجاحا على نجاح ظهورها ثانية فى فيلم وداد . . عندما أسند إلى عبده السروجى تمثيل دور ثانوى فى الفيلم . وبعد نجاح الأغنية وإقبال الناس عليها ، طلبت أم كلثوم تسجيلها بصوتها على أسطوانة لحساب شركة « أوديون » بشرط إرضاء عبده السروجى أولا . وتم ذلك ، وظهر لحنى للمرة الثانية . . « ولقد تحولت كلمات هذه الأغنية ، فى بعض الأقطار العربية مثل سوريا ، إلى أغنية شعبية وطنية إبان النضال ضد الفرنسيين ؛ فغنت الجماهير المذهب على الوجه التالى : على بلد المحبوب ودينى - لأفدى وطنى بعينى .

ويمكن اعتبار فيلم وداد خطوة أولى لبداية العلاقات الفنية بين أم كلثوم والسنباطى .

(*) المنتج المنفذ.

ثم توالى أفلام أم كلثوم . . فظهرت فى ستة أفلام، منذ عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٤٥ . . من إنتاج شركات السينما الكبرى نظير أجرها الكبير . وثانى أفلام أم كلثوم « نشيد الأمل » الذى عرض فى ١١ يناير من عام ١٩٣٧ ، وكان من إنتاج أفلام الشرق ، والفيلم عن قصة لإدمون تويما وسيناريو وإخراج أحمد بدرخان .

وغنت أم كلثوم من ألحان محمد القصبجى « منيت شبابى النعيم » . و « نامى نامى يا ملاكى » ، و « يا بهجة العيد السعيد » ، و « يا لى صنعت الجميل » ، و « يا مجد يا ما اشتيتك » .

ومن ألحان رياض السنباطى غنت أم كلثوم :

« افرح يا قلبى » - « قضيت حياتى جرى عليك » - و « يا شباب النيل » . وجميع أغانى هذا الفيلم من كلمات أحمد رامى . كان رامى فى ذلك الوقت يحتكر أغانى أم كلثوم . . ألف كلماتها عدا القصيدة الشعرية القديمة . والمعروف عن رامى أنه كان لا يتقاضى أجره على أغانى أم كلثوم . . عدا أغانى الأفلام التى كان يتقاضى عنها من منتج الفيلم .

واختارت أم كلثوم طقطوقة « افرح يا قلبى » لتقدمها على المسرح ضمن الفقرات الغنائية لحفلها الساهر . . كما قدمت نشيد الجامعة بقاعة الحفلات بجامعة القاهرة . . وفيها استعانت أم كلثوم بعدد من طلبة وطالبات الجامعة للقيام بأداء المجموعة (الكورال) . وقام السنباطى نفسه بتدريهم . والأغنيان من فيلم نشيد الأمل .

وفى عام ١٩٣٩ ، عرض لأم كلثوم فيلم « دنائير » . . الذى عرض يوم ٢٩ سبتمبر . وهو عن قصة لأحمد رامى ، وسيناريو أحمد بدرخان ، وإنتاج أفلام الشرق . وفيه غنت أم كلثوم من ألحان القصبجى :

« الزهر فى الروض » - « طاب النسيم العليل » - « يا فؤادى غن ألحان الوفاء »

ومن ألحان زكريا أحمد غنت أم كلثوم :

« بكره السفر » - « رحلت عنك ساجعات الطيور » - « قولى لطيفك ينشى (*) » .

وغنت أم كلثوم من ألحان رياض السنباطى :

« الشمس مالت للمغيب » (بغداد) - و « ياليلة العيد أنستينا » .

والفيلم الرابع لأم كلثوم « عايده » عرض فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٢ ، وهو عن قصة لعبد الوارث عسر ، وسيناريو وإخراج أحمد بدرخان ، وإنتاج أفلام الشرق . وفيه سجلت سبع أغنيات لحنها لها رياض السنباطى - و الفصل الأول من أوبرا عايده قام بتلحينه محمد القصبجى - أما الفصل الثانى من الأوبرا فكان من ألحان رياض السنباطى . وقام بالتوزيع الموسيقى الموسيقىار « إبراهيم حجاج » ، وقام بغناء المشاهد مع أم كلثوم ، إبراهيم حمودة فى دور راداميس ، وفتحية أحمد فى دور ابنة الملك « امنيريس » ، غناء . أما التمثيل ، فقامت به الممثلة القديرة فردوس حسن .

وفى فيلم عايده قدمت الأوبرا « المصرة » لأول مرة . ولم ينجح هذا الجزء الأوبرالى لبعده عن الدوق الفنى العربى . . مما اضطر إلى حذف الفصل الأول من الأوبرا والاكتفاء بتقديم الفصل الثانى فقط .

أما أغانى فيلم عايده التى غنتها أم كلثوم فهى :

« عطف حببى وهنانى » - « بكره السفر » وهما من ألحان محمد القصبجى . كما غنت لزكريا أحمد : « القطن فتح » - « يا فرحة الأحباب » - « وموال فضل لى إليه يا زمان » .

وفى عام ١٩٤٤ ، ظهرت أم كلثوم فى فيلم سلامه الذى لحن كل أغانيه زكريا أحمد عدا قصيدة واحدة هى « قالوا أحب القس سلامة » التى نظمها (على أحمد باكثير) ، صاغ رياض هذه القصيدة بلغة العصر ، مع احتفاظه بالجو الذى كانت سلامة تعيش فيه أزمته العاطفية . وقصة (سلامة) لعللى أحمد باكثير . سيناريو وإخراج « توجو مزراحى » . وأغانى فيلم سلامة :

(*) شعر الشريف الرضى .

« برضاك يا خالقى » - « سلام الله على الحاضرين » - « عينى يا عينى » - « فى نور
حمايك » - « قل لى ولا تخبيش » - « غنى لى شوى شوى » - وهى من كلمات بيرم
التونسى . و « يا بعيد الدار » (عباس بن الأحنف) .

وآخر أفلام أم كلثوم ، هو فيلم فاطمة الذى عرض عام ١٩٤٦ أمام أنور وجدى
وسليمان نجيب ، والذى حقق أرباحا خيالية بلغت نصف مليون جنيه . وهى عن
قصة لمصطفى أمين . سيناريو وإخراج أحمد بدرخان ، والفيلم من إنتاج ستوديو
مصر وتوزيع شركة مصر للتمثيل . ومن أغانى فيلم فاطمة ، من ألحان رياض
السنباطى :

« أصون كرامتى » - « حقاله بكره » - وهما من كلمات أحمد رامى ، و « ظلمونى
الناس » (بيرم التونسى) . وغنت أم كلثوم من ألحان زكريا أحمد :
« جمال الدنيا » (أحمد رامى) - « نصره قوية » - « الورد جميل » وهما من تأليف بيرم
التونسى .

ومن ألحان محمد القصبجى ، غنت أم كلثوم « نورك يا ست الكل » (بيرم التونسى)
و « يا لى انحرمت الحنان » (أحمد رامى) و « يا صباح الخير » (بيرم التونسى) .
ويلاحظ فى الأفلام التى قدمتها أم كلثوم ، أنه لم يغن مع أم كلثوم فى أفلامها غير
مطرب واحد هو إبراهيم حمودة ، وذلك فى فيلم « عايدة » . أما عبده السروجى فغنى
أغنية فى فيلم وداد بعيدا عنها . أى أن أفلام أم كلثوم كانت كلها خاصة لها .
واعتمدت أغلب أفلام أم كلثوم على القصص التاريخية ، فلم تحقق هذه الأفلام
الإيرادات العالية . . وإنما يمكن القول بأن أقل إيرادات الأفلام الغنائية باستثناء فيلم
فاطمة ، كانت أفلام أم كلثوم . وقد استمدت هذه الأفلام قيمتها الفنية بيا قدمته فيها
من أغانى . فقد أدت أغانيها فى الأفلام باقتدار وتفوق . إلا أن موضوعات الأفلام لم
تكن تجذب الجمهور العادى . ونحن اليوم لا نشاهد هذه الأفلام إلا فى النادر ، ونجد
أغانيها دخلت التاريخ من أوسع أبوابها .

مشروع فيلم « ثومة » :

عام ١٩٦٨ ، ولدت فكرة إنتاج فيلم « ثومة » الذى يجسد سيرة حياة أم كلثوم .
وكان « ثومة » هو الاسم الذى كانت أمها فاطمة تدللها به . . وتحت عنوان « إلى
ثومة » نظم أحمد رامى عددا من قصائده الوجدانية والعاطفية ، بعد لقائه الأول معها ،
وتعلقه الشديد بها .

« ثومة » الفتاة الريفية المصرية التى خرجت من ريف مصر لكى تصبح سيدة
الغناء العربى .

تبنّت المؤسسة العامة للسينما عام ١٩٦٨ مشروع إنتاج هذا الفيلم . وكلفت
الكاتب الكبير سعد الدين وهبة بكتابة السيناريو والحوار له . وتعاقدت مع المخرج
يوسف شاهين لإخراجه . وفعلًا قام يوسف شاهين بتصوير حفل « أم كلثوم » الشهير
في صالة مسرح أولمبيا بباريس . وصور أيضا جانبا من حفل غنائى لها في طنطا
عاصمة الغربية . . وقد كان واحدا من حفلاتها الأخيرة .

وكان المبلغ المرصود لهذا العمل الفنى الكبير نصف مليون جنيه . وشرع يوسف
شاهين في إعداد الأجزاء التى صورها لأم كلثوم في حفلاتها الغنائية . . كما عاد إلى
أرشيفها السينمائى . . وأعمالها القليلة في التلفزيون . فالمعروف أن أم كلثوم كانت تكره
أن تسلط عليها كاميرات التلفزيون ، وهى تغنى . . وإذا تم التصوير فلا بد أن تكون
اللقطات بعيدة عنها . . فهى تحرم استخدام عدسة « الزوم » ، وكانت تحدد أماكن
تواجد الكاميرات لكى تظهر في صورة جانبية واحدة ترضى عنها . كل هذا جعل
يوسف شاهين يعانى فقر المادة الفيلمية ، التى يمكن أن يستخدمها في فيلم « ثومة » .

وكانت أم كلثوم موافقة على هذا المشروع . . وكانت تعطى الكثير من وقتها
للجلوس مع سعد وهبة . كما عرض عليها يوسف شاهين المرشحات للقيام بدورها
على الشاشة في مرحلة الصبا والشباب ، وكان يأخذهن ويذهب ليلتقى معهن
بأم كلثوم . ويقول سعد الدين وهبة :

قضيت أكثر من خمسة شهور أتردد على أم كلثوم في فيلتها بالزمالك ، وذلك بعد أن قرأت كل ما كتب عنها منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها الغناء في قرية « طماي » ، في الصحف المصرية ، وفي الصحف العربية وفي صحافة العالم . وبعد هذا كنت أجلس إليها وأتركها تتكلم عن حياتها كيفما شاءت . كانت تركز على بعض النقاط بإسهاب ، وتوجز في البعض الآخر . وعندما انتهت من كتابة ملخص سيرتها الذاتية في نهاية الجلسات . . قرأته لها . . وكانت شغوفة لمعرفة ما سوف يتعرض له الفيلم من قصة حياتها وجوانبها المتعددة .

ولم يتم لإخراج هذا العمل السينمائي الكبير . . ويعمل سعد الدين وهبة سبب توقف العمل في فيلم « ثومة » بقوله :

« إن المخرج يوسف شاهين هو السبب . . فقد كان مصرا على أن يشترك معي في كتابة السيناريو » .

ورفض سعد الدين وهبة مطلب يوسف شاهين . وحدث في الفترة نفسها أن توقف القطاع العام عن الإنتاج ، وآل الإنتاج إلى يوسف شاهين ، لكنه اختلف مع الورثة ، فتوقف المشروع كله .

روى سعد الدين وهبة ، الذي كتب سيرة حياة أم كلثوم لفيلم « ثومة » الذي كان مزمعا لإنتاجه في عام ١٩٦٨ ، أن الفيلم يحكى من خلال قصته الكثير من الأسرار الخافية التي احتفظ بها وحافظ عليها لينفرد بها الفيلم كما سمعها من أم كلثوم نفسها . إن ثمة علاقة كبيرة بين الاقتصادى المصرى الكبير « طلعت حرب » (باشا) « وأم كلثوم » . . خاصة في العشرينيات والثلاثينيات . وإن طلعت حرب أنشأ بنك مصر ومجموعة شركاته الكبرى ، ومنها شركة مصر للتمثيل والسينما التى أسست ستوديو مصر ، ولعبت دورا حلاقا وبناء في تاريخ السينما المصرية فيما بعد . طلعت حرب كان ، إلى جانب اشتغاله بالاقتصاد وحمله عبء نهضته ، يهتم كثيرا بالفن ، وهو الذى أعاد المخرج محمد كريم عندما قابله في ألمانيا ليكون واحدا من رواد السينما

في مصر. وهو الذى أنتج أول فيلم مثلته أم كلثوم، وهو فيلم « وداد » ، وأرسله إلى مهرجان فينيسيا السينمائي الدولي ، لكى يمثل مصر عام ١٩٣٦ فى أول دورة للمهرجان. وهو الذى أرسل أحمد بدرخان وصلاح أبو سيف ونيازى مصطفى إلى بعثات سينمائية دراسية من ستوديو مصر . وكانت صلته بأم كلثوم فريدة . فقد أرادها كموهبة عظيمة أن تسهم فى نقل أغانيها على أسطوانات . وشجعها على أن تتعاقد مع إحدى شركات الأسطوانات التى تعمل فى السوق عندئذ ، والتى يلقي إنتاجها رواجاً كبيراً لتعاقدها مع مطربات ومطربين الصف الأول . وعملت أم كلثوم بنصيحة الاقتصادى طلعت حرب . لكن الشركة أهملت أغنيات أم كلثوم ، ووضعتها فى الصف الثانى بعد مطربة القطرين فتحية أحمد . وذهبت أم كلثوم تقابل طلعت حرب تستشيريه فيما يجب أن تفعل ، خاصة وأن الشركة كانت قد وضعت شرطاً جزائياً فى العقد يلزم أم كلثوم إذا فسخته بدفع ألفى جنيه ، ولم تكن تملك هذا المبلغ الضخم . وكان رأى طلعت حرب أن تفسخ العقد فوراً ، وأن تدفع المبلغ ، وإلا بقيت طيلة حياتها مطربة فى الصف الثانى . أكثر من هذا أقرضها المبلغ من بنك مصر لتنفيذ نصيحته .

مشروع فيلم سميراميس :

قدم الشاعر والكاتب الإذاعى طاهر أبو فاشا (صاحب أغاني رابعة العدوية - وألف ليلة وليلة) عملاً درامياً غنائياً ضخماً هو « سميراميس » ، كتبه منذ مستهل الستينيات - وكان المقرر أن تقوم كوكب الشرق أم كلثوم بالبطولة فيه .

نشرت مجلة الكواكب ٨ مارس عام ١٩٦٦ فى صفحاتها الأولى :

نجحت المحاولات التى بذلت مع أم كلثوم فى السينما ، لتقوم ببطولة فيلم سميراميس . وسميراميس أسطورة تروى أن واحدة من الملائكة أحبت رجلاً من البشر ، ونزلت إلى الأرض معه . وحملت منه وأنجبت طفلة صغيرة ، فاستحقت غضب الملائكة . واضطرت لأن تترك ابنتها الوليدة فى غابة ، ليجدها أحد الرعاة ،

وقد راحت تحوم حولها الحمامات البيضاء، فأخذها إلى كوخه ورباها، وأطلق عليها «سميراميس». وكانت نصف ملاك، صوتها فيه حلاوة أصوات الملائكة، وأصبح هذا الصوت إلهاما للشعب الذى كان يلاقى الهوان والاستعباد. واستطاع هذا الصوت أن يحرض الشعب على الثورة والتحرر من العبودية. كانت أم كلثوم ستقوم - صوتنا - فقط بدور «سميراميس». ويحاول «سعد الدين وهبة» الآن أن يقنع الموسيقار «محمد عبد الوهاب» بتلحين أكبر عدد من الأغنيات التى ستغنيها «أم كلثوم» فى هذا الفيلم، والتى كتبها الشاعر «طاهر أبو فاشا».

إلى هنا تنتهى سطور الخبر الذى نشرته مجلة «الكواكب». غير أن المشروع تعثر لأكثر من سبب، من بينها: العقبة المالية، فالعمل يتطلب ميزانية ضخمة. . لما فيه من مجاميع كبيرة يتطلبها الفيلم. . والديكور الهائل وأعمال التصوير والجو الأسطوري المصاحب للقصة. . كل هذا يتطلب ميزانية لم تقدرها تكاليف الفيلم المصرى.

ورحلت أم كلثوم. . وطوى طاهر أبو فاشا أوراقه حزينا أسفا، فهو لا يتصور وجود صوت جدير بالقيام بطولة هذا الفيلم الغنائى. . هذا الصوت الذى يقود شعبا بأسره إلى التمرد والثورة والقضاء على الطاغية.

أغان مجهولة:

غنت أم كلثوم مئات من الأغاني، لاقت جميعها نجاحا وانتشارا لدى الجمهور العربى. إلا أن هناك أغنيتين فقط لم يقدر لهما الزواج. . ولم تصلا إلى جمهورها. . واكتفت أم كلثوم بغنائهما مرة واحدة فقط. فى الثلاثينيات والأربعينيات اعتمدت أم كلثوم فى أغانيها على ملحنين الكبار القصبجى وزكريا ورياض. . الذى انضم مؤخرا إلى قائمة ملحنينها. أرادت أن تغنى لحنا جديدا للملحن جديد. واستعانت بالملحن «فريد غصن» لتلحين أغنية «وقفت أودع حبيبى» كلمات أحمد رامى.

قدمت أم كلثوم أغنيها الجديدة فى حفل من حفلاتها الغنائية فى عام ١٩٤١،

وكانت مقتنعة باللحن . . ولكن، فاجأها استقبال الجمهور لأغنياتها الجديدة بفتور شديد . . وذلك من بداية المقطع الأول . . فاضطرت إلى تكملة غناء اللحن كيفما كان . . ولأن اللحن لم « يضرب » مع الجماهير ، لم تعد أم كلثوم إليه ثانية .
وهناك لحن آخر لم يلق قبولا لدى مستمعيها . . وهو من ألحان زكريا أحمد وكلمات بيرم التونسي . غتته أم كلثوم بعد نجاح لحنها « أنا في انتظارك » و « الآهات » ، وذلك في الأربعينيات أيضا . واللحن الذي لم يلق قبولا لدى الجماهير ، هو « اكتب لي اكتب لي . . اكتب لي كثير » .
أيضا لم تحاول أم كلثوم إعادة غناء هذه الأغنية بعد سقوطها الفاحش ، وعدم تقبل جمهورها لها .

التقدير والأوسمة والنياشين التي حصلت عليها أم كلثوم :

كرمت أم كلثوم تكريما لم يكرم به فنان من قبل . فعند حصولها على وسام الجمهورية الأكبر ، عزف لها السلام الجمهوري من باب الاستثناء . كما منحتها الدولة جواز سفر دبلوماسيا ، تقديرا وعرفانا لفنها . غنت أم كلثوم في نوفمبر عام ١٩٦٧ في باريس . وكانت أول فنانة مصرية تغنى في باريس . . وعلى مسرح أولبياد . عقد لها مؤتمر صحفى ضم كبار العاملين بالصحافة بالعالم . . كما انتشرت صورها بالحجم الطبيعى بالأنوار النيون في معظم شوارع باريس المهمة . وتبارت الصحف الفرنسية الكبرى في وصفها ، ووصف حفلها الغنائى وإقبال الجماهير المحتشدة على حفلها وخارج المسرح . وكانت أم كلثوم في غنائها ومقابلاتها تعلن رفض الهزيمة . وغادرت أم كلثوم فرنسا ، بعد أن كانت خير سفيرة لمصر والعرب . وأرسلت برقية إلى الرئيس السابق دييجول تناشده وقوفه مع السلام جاء فيها :

« قبل أن أغادر فرنسا العظيمة . . أحيى فيك وقوفك مع العدالة وفي جانب السلام . »

وجاء رد الرئيس دييجول :

« لقد لمست بصوتك أحاسيس قلبي وقلوب الفرنسيين جميعا » .

وفي هذا العام نفسه ، اتجهت أم كلثوم إلى الغناء من أجل مصر ، متبرعة بالدخل لدعم المجهود الحربي . فسافرت إلى العديد من الدول العربية ، وأصبحت سفيرة الفن العربي في أوروبا . تنشر وتدافع عن قضية العرب ، مطالبة بالسلام .
تقول د . نعمات فؤاد^(٦) :

« . . وبعد العدوان ، أصبحت أم كلثوم عنوانا ثابتا في الصحف ، فهي تدعو السيدات إلى التجمع الوطني . وكانت تجتمع بالصياغ وتجار المجوهرات لحثهم على التبرع بالذهب . وتنتقل لجنة التبرعات بالذهب بينك القاهرة إلى منزلها لتسلم مجموعة المصوغات المتبرع بها من سيدات التجمع الذي ترأسه . ومن بينها إسورة كبيرة لها مرصعة بالماس ، وعقد عبارة عن سلسلة ذهبية مجدولة طولها متران ، وساعة ذهبية وعقد آخر مرصع بالماس . »

كما جمعت أم كلثوم مئآت الآلاف من العملة الصعبة قدمتها لمصر وللمعركة . وتنافست البلاد العربية في تكريمها .

غنت أم كلثوم في عيد استقلال الكويت عام ١٩٦٣ . . كما غنت عام ١٩٦٨ في الخرطوم . لصالح المجهود الحربي العربي . وفي السودان صلى الناس في المسرح أثناء غنائها شكرا لله . وزارت بها مدرسة ، فأطلق اسمها عليها .

وفي إبريل من عام ١٩٦٨ ، غنت في الكويت . . وخرج الناس يرشون فنانتهم بالعطر . . واستقبلها قصر الحاكم . وقدمت الإذاعة اليابانية بمناسبة هذه الزيارة للكويت برنامجا خاصا عنها ، مدته ١٢ دقيقة . وهى المرة الأولى التى تقدم فيها الإذاعة اليابانية (ن . هـ . ك) برنامجا عن فنان عربى .

وفي المغرب قدم لها أهل مدينة فاس شمعة خضراء طولها متر ، مرصعة بالذهب الخالص ، رمزا للمحبة والإعجاب . وكما فعل السودانيون والتونسيون حين سمووا مواليدهم الإناث أم كلثوم ، فقد أطلق سكان مدينة فاس نفس الاسم على المواليد

خلال زيارة أم كلثوم لهم .

وفي مراكش ، استقبلت بحشد كبير من الراقصين والراقصات في رقصاتهم الشعبية المصحوبة بالغناء .

وفي تونس ، أحاطوها في المسرح ببستان من زهور القرنفل ، وصل عددها ما يقرب من ٢٨٠ ألف زهرة . . كما وزعت مناديل مرسومة عليها صورتها . . وأطلق اسم أم كلثوم على أحد شوارع تونس .

وفي عام ١٩٧٠ ، أحييت أم كلثوم مهرجان بعلبك الدولي بלבنا . وسجل التلفزيون الإنجليزي والفرنسي حفلها الأول كاملا ليعرض في لندن وباريس .

وفي ديسمبر عام ١٩٧١ ، غنت أم كلثوم في أبو ظبي ، لتضيف إلى عطائها للمجهود الحربي ٢٤ ألف جنيه إسترليني .

وقد أهدت مدن عديدة أم كلثوم مفاتيح من الذهب الخالص . كما ألف وزير المعارف الباكستاني كتابا عن سيرة أم كلثوم .

ومن أهم الأوسمة التي حصلت عليها أم كلثوم من الرؤساء والملوك في العالم العربي والغربي :

- نيشان الكمال في سبتمبر عام ١٩٤٤ (مصر) .

- وسام النيل .

- نيشان الرفادين من الدرجة الأولى من الملك فيصل عام ١٩٤٦ .

- نيشان الرفادين العراقي .

- وسام الأرز اللبناني عام ١٩٥٥ .

- وسام النهضة من ملك الأردن عام ١٩٥٥ .

- وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى من الرئيس هاشم الأتاسي عام ١٩٥٥ .

- وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى في مارس من عام ١٩٦٠ . (*)

(*) نال محمد عبد الوهاب أيضا في نفس هذا التاريخ هذا الوسام تقديرا لفنه .

- وسام الجمهورية الأكبر من تونس في ٤ يونيو عام ١٩٦٨ (منحت مصر أم كلثوم في نفس هذا العام جواز سفر دبلوماسيا) .
- وسام الكفاءة العسكرية المغربي .
- وسام الاستحقاق من لبنان عام ١٩٦٨ .
- جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٨ (تنازلت أم كلثوم عن قيمتها ٢٥٠٠ جنيه لصالح صندوق معاشات الفنانين) .
- وسام « نجمة الامتياز » من باكستان تقديرا لغنائها قصيدة إقبال « حديث الروح » ، وهو أرفع أوسمة الباكستان .
- وفي يناير عام ١٩٧٢ ، منحتها مصر لقب « فنانة الشعب » . وقد أهدى اللقب أيضا إلى محمد عبد الوهاب ويوسف وهبي .
- وعام ١٩٥٣ ، انتخبت أم كلثوم عضو شرف في جمعية « مارك توين » الأمريكية الدولية . ومن أعضاء الشرف في هذه الجمعية « الجنرال أيزنهاور » و « مستر » تشرشل .
- « مستر » روزفلت .

الفصل السادس أم كلثوم في ذمة التاريخ

الشهور الأخيرة في حياة أم كلثوم الفنية :

كان آخر ما غنت أم كلثوم بصوتها لحن سيد مكاوى ، وكلمات عبد الوهاب محمد أغنية « أوقاتى بتحلو معاك . . وحياتى بتكمل برضاك » . كانت في بداية البروفات متفتحة للحياة . . ولكن بعد ساعات من البروفة وقعت أم كلثوم صريعة المرض . . كان مرض النهاية .

قررت أم كلثوم أن تسافر إلى لندن للعلاج . . وكانت ، إلى جانب مرضها ، تفكر في أغنية جديدة . . أغنية تؤديها بمناسبة نصر أكتوبر .

طلبت أم كلثوم من الشاعر صالح جودت أن يكتب لها أغنية لعيد أكتوبر، وأن ينتهى من كتابتها قبل عودتها من الخارج .

وفي لندن قال الأطباء لها إن الكلى تفرز الأملاح . . وعليها أن تشرب ماء بالملح . . وظلت أم كلثوم بقوة إرادتها تشرب الماء بالملح . . وفور وصولها إلى مصر، اتصلت بصالح جودت الذى قدم لها كلمات الأغنية التى كانت قد طلبتها منه قبل سفرها . وأعطتها أم كلثوم لرياض السنباطى ليلحنها . . فهى مصرة على غنائها في ٦ أكتوبر . ولكن المرض لم يمهلها ، فقد رحلت أم كلثوم قبل أن تؤدي أغنيها هذه . وتقول كلمات الأغنية :

يا لى شبابك فى جنود الله . . والحرب فى قلوبهم صيام وصلاة . .

ودمهم عند الشهادة زكاة . . زى الى عزوا الدين فى غزوة بدر . . طول أعمارهم أحرار
أولاد أحرار . . متسلحين بالعزم والإصرار . . ساعة ما ناداهم منادى الثأر . . قاموا فى
شهر الصوم . . وعدوا البحر وقالوا دا احنا نموت وتحييا مصر . . الله يزيدك منزلة
يامصر .

وفى صباح ٢٢ يناير عام ١٩٧٥ ، أعلنت الصحف نبأ مرض أم كلثوم ، وأخذت
تنشر التقارير الطبية . وكانت الإذاعة تستهل نشرتها بالنشرة الطبية عن أم كلثوم .
وعرض الناس التبرع بالدم لأم كلثوم . وتوفيت أم كلثوم فى ٣ فبراير من نفس العام .
وقطعت الإذاعات فى مصر وفى باقى بلاد العالم جميع برامجها ، لتذيع النبأ الأليم ، لقد
كانت ملحمة أمة .

الفن التشكيلى بخلد أم كلثوم :

لعب الفن التشكيلى دورا فى تكريم أم كلثوم . فبعد وفاتها ، قام المثل عبد الحميد
حمدي بصنع بورتريه لها (تمثال نصفى) ، عبر فيه عن شخصية أم كلثوم كإنسانة
وفنانة . وفى الذكرى الثانية لوفاتها . . كلف محافظ الدقهلية الفنان عبد الحميد حمدي
بإقامة تمثال كامل لها يوضع فى أحدث ميادين المنصورة (ميدان المحطة) ، وأطلق على
هذا الميدان اسم « أم كلثوم » . وقد استغرقت إقامة هذا التمثال عاما كاملاً . والتمثال
طوله ثلاثة أمتار ، ويزن ما يقرب من ألف كيلو باستثناء القاعدة . مثل الفنان
عبد الحميد حمدي تمثاله لأم كلثوم وهى تغنى وتمسك بمنديلها الطويل . . وتتنظر إلى
أعلى .

كانت أم كلثوم أنيقة . . . بل مغالية فى الأناقة . وربما جاء ذلك نتيجة للحرمان
الذى عاشت فيه فى طفولتها . . والملابس التى ارتدتها عندما نزلت لأول مرة إلى القاهرة
(زينا الريفى) ، كانت دافعا لرغبتها فى إثبات أناقتها فى المجتمع .

و كانت الصحف و أجهزة الإعلام ، حريصة على وصف تفاصيل ما ترتديه

أم كلثوم في حفلاتها . كانت أناسها بسيطة الخطوط ، ثرية الخامات . . مغالية في الاحتشام . وكانت أم كلثوم تبدو دائما بوجهها الريفى الطبيعى ، وتحرص على ألا تغير تسريحة شعرها .

وهذا الوجه الريفى الجميل ، نقله الفنان محمود مختار ، الذى قام بنحت تمثال لأم كلثوم من بداية حياتها الفنية حوالى عام ١٩٢٤ ، عندما اهتم مختار بفن أم كلثوم ، فطلب منها أن تجلس فى مرسومه ، لينحت لها تمثالا . . ويقول :
« كانت تحكى لى نوادرها و ذكريات صباها . . وكانت لا تزيد عن ٢٦ سنة » .
ويقول كمال الملاخ :

« . . كانت تسرى بينهما ومضات حب عذرى . وإذا تطلعنا إلى وجه فلاحه نهضة مصر الواقفة الشاحنة بجوار الأسد ، وهى من أعمال مختار المميّزة ، لرأينا بعض ملامح أم كلثوم مع بعض ملامح الفنانة الفرنسية التى عشقها محمود مختار » .

زواج أم كلثوم:

خرجت أكثر من مرة إشاعات بزواج أم كلثوم ، والعرسان الذين أكدت الإشاعات عقد قرانهم منهم :

١ - النبيل عمرو إبراهيم

وقصته أن أم كلثوم اشترت منه مائة فدان . . فجاء إليها صحفى يسألها عن سر اجتماعها به فأجابت أم كلثوم : كنا بنكتب العقد يا أختى . .
وفي اليوم التالى نشر خبر عقد زواج أم كلثوم على النبيل عمرو إبراهيم .

٢ - الشيخ عبد الرحيم بدوى (صاحب مطبعة الرغائب)

أرادت أم كلثوم السفر إلى فلسطين لإحياء بعض الحفلات بها . واعترضت حكومة فلسطين على التصريح لها بدخول فلسطين ، إلا بصحبة الزوج . فعقد الشيخ

عبدالرحيم بدوى عليها (سوريا) ، لتتمكن من السفر ، ثم طلقها بعد عودتها .

٣- الفنان محمود مختار ، لكثرة ترددها عليه أثناء نحته تمثالا لها .

٤- أحد كبار الدولة المشتغلين بالقانون .

٥- الشاعر أحمد رامى . . وكانت أسرته نفسها معتقدة بزواجهما سرا .

٦- الفنان محمود الشريف

زواج أم كلثوم من محمود الشريف :

روى محمود الشريف : (أخبار اليوم ١٩٤٤)

كنت فى يوم من الأيام على موعد مع الأستاذ محمد فتحى كبير المذيعين آنذاك . .
وبينما كنت أخترق مدخل المبنى فى طريقى إلى الدرج كانت سيدة فاضلة تسبقنى . .
أخليت لها الطريق لتأخذ طريقها على سلم المبنى . . الهمسات تعلو بين الساعة . .
«الست أم كلثوم . . .»

الساعة يحومون حولها مهللين . . مرحبين بسيدة الغناء العربى . . إذن هذه
أم كلثوم التى تملأ أسماع الوطن العربى . . هى بدمها ولحمها ترتقى سلم الإذاعة فى
تواضع ، حتى بلغت باب الإذاعى الكبير الأستاذ محمد فتحى . . .

محمد فتحى يقف عند الباب لاستقبالها . . هاشا . . مرحبا بها . . تلكأت قليلا
حتى تنتهى مراسم الاستقبال على خير ما يرام . . ترددت فى الدخول ، وفكرت فى
الزوغان . . رغم موعدى مع الإذاعى الكبير . . لكنه لمحنى من بعيد . . نادى
على . . تسمرت فى مكانى ، أسرعت إليه بعد لحظات . . تصافحنا . . بادر بتقديمى
لسيدة الغناء العربى . .

كان محمد فتحى مهندس حفلاتها الذى ابتدع أساليب جديدة فى تقديمها .
استمر بينهما الحوار . . وانتقل بها إلى الحديث عنى . . أصغت إليه باهتمام وهو

يحدثها عن حياتى .. نشأتى ... معاناتى .. مشوارى الطويل مع الفن .. وأدهشها أن تعرف لأول مرة أن أغنية « بتسألينى بحبك ليه » من ألحانى . فقد كانت حتى ذلك اللقاء المثير ، تعتقد أنها من ألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب .. استمر صديقى محمد فتحى فى الحديث عن شخصى المتواضع .. حتى قال :

- قريبا سوف تستمعين إلى عمل غنائى رائع .. صورة غنائية باسم « بالوما » ، سيكون له شأن عظيم .. وفتح جديد فى عالم التوزيع الأوركسترالى ..

سألت : ومن المغنى ؟

-رد محمد فتحى :

- هو نفس الملحن الجالس أمامك .. رمقتنى بنظرة ذات مغزى .. وقالت ضاحكة .

-إذن أنت مطرب أيضا .. .

انحبس صوتى فى حلقى ، وأنا أحاول الرد .. . فخرج وكأنه حشرات : لا .. دى مجرد محاولة .. تجربة فقط .. .

نهضت أم كلثوم .. وقبل أن تغادر الغرفة قالت موجهة حديثها إلى الأستاذ فتحى : طيب يا محمد .. أنا فى انتظار تليفون ، نتفق فيه على زيارة عندى .. وتبقى فرصة نسمع ملحنك ومطربك الجديد .. .

مدت يدها .. مددت يدي للسلام .. وكم كنت أتمنى أن تكون يدها بلا قفاز ، حتى أمس بكفى أناملها .. أنامل الإنسانة المعجزة . ولكن اللقاء الذى وعدت به أم كلثوم لم يتم .

وكان لقائى بها للمرة الثانية من لون آخر .. حدث فى إحدى سهراتنا بشارع عماد الدين .. كنا نستعد لتسجيل إحدى أغنيات فيلم « ليلة العيد » للممثل أنور وجدى .

وفى إستوديو مصر قامت مشادة بين ضابط الإيقاع إبراهيم عفيفى وبين أنور وجدى . انتهت باعتداء الأخير على ضابط الإيقاع بالضرب والسب ، الأمر الذى

أثارتنى . فأمرت الفرقة بالتوقف وركبنا « الباص » الذى أقلنا إلى الشقة التى كان الموسيقيون يجتمعون فيها ، ويؤدون فيها البروفات . .

كان الموسيقيون يلتفون حولى . . فقد كنت فى ذلك الوقت أسعى إلى تنظيم نقابة الموسيقيين فى مصر . . وكانت أم كلثوم فى ذلك الوقت تسعى حثيثا للتقرب من الموسيقيين ، أملأ فى أن تصبح أول نقيبة لهم . وإثر ما حدث من مشادة بين الفرقة وبين أنور وجدى ، تدخلت أم كلثوم لفض الإشكال . وكانت فى حديثها شديدة التعاطف مع أنور وجدى ، الأمر الذى أثار غيظى ، وحملنى على القول بأعلى صوتى دفاعا عن الموسيقيين وعن كرامة الفن ، لأم كلثوم : إن مطلبنا يتلخص فى الآتى :

- يدفع أنور وجدى أجر الموسيقيين الذين انتقلوا للتسجيل فى أستديو مصر ، وكأن التسجيل قد تم فعلا . .

- أن تقوم الفرقة نفسها بالتسجيل . . وسوف يحدث مالا تحمد عقباه ، إذا ما حاول أنور وجدى تسجيل اللحن عن طريق فرقة أخرى .

- أن يدفع أنور وجدى مبلغ عشرين جنيها لضابط الإيقاع إبراهيم عفيفى ، كرد شرف على إهانته بالإستوديو . .

فزعت أم كلثوم مما قررته . . ووقف كل الموسيقيين صفا واحدا إلى جانب كل ما اقترحته ، مما جعل أم كلثوم تقف بعيدة عن تأييد أى واحد منهم . ولقد أحست يومها بأننى أقف فى حماس مع قضايا الموسيقيين العادلة ، وأقف بشدة أكثر ضد أية إهانة تلحق بهم . وقد كان للموقف الصلب الذى وقفه الموسيقيون ، أن تراجع أنور وجدى ، ونفذ كل ما طلبناه . . وكان أول انتصار جماعى للموسيقيين قبل أن تضمهم أية نقابة . . .

كان لقاىى بأم كلثوم ذلك اليوم لقاء مثيرا حقا . . . دفعها إلى محاولة التعرف على أكثر فأكثر .

ومع تراكم مشاكل الموسيقيين . . أحسوا بأنهم في حاجة ، لا إلى مكان يجمعهم لعمل البروفات ، ولكنهم في حاجة إلى نقابة تساندهم وتحميهم وتحافظ على حقوقهم . ومع تكتلهم ، صدر القانون رقم ١٢٣ لسنة ١٩٤٤ بإنشاء أول نقابة للموسيقيين . اجتمعت الجمعية العمومية وتم انتخاب أول مجلس إدارة للنقابة . . فازت فيها أم كلثوم بمنصب النقيب ، وانتخبت وكيلًا للنقابة . وكان من بين أعضاء المجلس : أحمد الحفناوى - إبراهيم حجاج - محمد القصبجى - عبده صالح - كامل إبراهيم - الشيخ زكريا أحمد - محمد بخيب (سكرتيرًا للنقابة) . انعقد المجلس لأول مرة وبعد مناقشات صاخبة انتهى الاجتماع ، وانصرف من انصرف وبقي من بقي . .

وفى نهاية الاجتماع جلست إلى أريكة بالقرب من النافذة . اقتربت أم كلثوم من النافذة وأطلت منها . . ثم عادت وألقت بحقيبتها إلى جوارى . . جلست إلى جانبى على الأريكة . . مدت يدها إلى حقيبتها . . وأخرجت علبة سجائر . « لكى سترايك » . . قدمت لى سيجارة وأشعلت لها الأخرى . ودار حديثها حول مصيف رأس البر الذى عادت منه منذ أيام . . .

اقترح عازف الكمان المشهور أحمد الحفناوى أن يعزنا الليلة على الحاتى ، بشرط أن يقدم لنا « محمد القصبجى » بعضًا من تقاسيم على العود . . .

فوجئ القصبجى بالاقتراح ، وخيم عليه صمت كثيب بعد أن وافقت أم كلثوم ووافق باقى الحاضرين . . وبعد لحظات غيرت أم كلثوم من الاقتراح قليلا :

- أنا عندى فكرة أحسن . . إيه رأيكم بدل سهرتنا فى النقابة . . أعزمكو ونقضى السهرة عندى فى البيت . . مش أحسن ؟

حمل القصبجى عوده على مضض ، ولكنه فوجئ بأم كلثوم تضحك ملء شديها وهى تقول له :

- سلامتك يا قصب . . طب خليك أنت ما دام تعبان !!

ولكن القصبجى انتزع نفسه من على مقعده وهو يقول :

- أمرى لله آجى أسهر معكم . .

لقد كان للقصبي مع أم كلثوم قصة حب من طرف واحد ، تحسها أم كلثوم .
المهم أننا هبطنا سلم النقابة . أخذتني إلى جوارها في المقعد الخلفي بينما جلس
القصبي حاملاً عوده إلى جانب السائق . . وفي سيارة أحمد الحفناوى ، كان محمد
عبد صالح إبراهيم عفيفي وآخرون لا أذكرهم .

وفي القاعة الكبرى بمنزل أم كلثوم بدأت السهرة . جاءت مأكولات الحاتى
وملاحقاتها . . وعزف القصبي أحلى مقطوعاته . وغنت أم كلثوم ، كما لم تغن من
قبل . . وكانت ليبتها شديدة المرح . . شديدة الجاذبية . . تلقى بالنكتة وتغنى وكأنها
ابنة ستة عشر ربيعاً .

امتدت السهرة حتى مطلع الفجر . . . قمت إلى شرفتها المطلّة على النيل أتشم
بعض الهواء البارد . . بعد أن بلغت النشوة بالجميع مداها . . أحسست بيدها تمسح
على كتفى . . تلفت إليها . . إلى الرمز الخالد . . إلى ثومة . . أحسست أنها مسحت
عنى الأحزان . . اقتربت منى . . فهمست فى أذنى ببضع كلمات . .

- أنت تتغذى معايا بكره هنا فى البيت .

ما سر اهتمام أم كلثوم بى ؟ قد يكون لأنى المشاكس الدائم فى مجلس النقابة ،
ومعظم أعضاء النقابة من أسرة فرقتهما الموسيقية . وهى تريد بكرمها وحسن استقبالتها
لى ، أن تلوى ذراع هذا المشاكس وتطويه تحت إبطها . . وقد يكون لأنى أحد أصدقاء
الموسيقيار محمد عبد الوهاب . فى وقت كانت تتصارع فيه القمّتان ، فظنت أننى مجرد
أحد رجال الموسيقار الكبير . . الذين يروجون لفنه بمناسبة وبدون مناسبة . . فأرادت
بذلك أن تستميلنى إلى جانبها . . فتكسر بذلك حدة أحد أنصار عبد الوهاب . لإننى
كنت فعلاً صديق عبد الوهاب لتلقى وتتناول طعام الغداء معا . . ولكننى كنت
أتعامل معه معاملة النند للند . استفدت من أعمال عبد الوهاب العظيمة ولكننى لم
أخرج من معطفه . . ولم أتصور فى يوم من الأيام أن أكون نسخة مكررة لأحد . . حتى
ولو كان ذلك عبد الوهاب نفسه . لقد كنت معتزاً بفنى وبأسلوبى الخاص الذى كان

متميزا . . الأمر الذى كان يتلقاه الموسيقار الكبير بانبهار شديد ، ويعلم عن انبهاره هذا فى مناسبات مختلفة . . ولكنها مع مرور الأيام اكتشفت أننى شيء آخر . . بعيد عن كل ما دار بخلدها ، وأننى سأظل رغم كل كرمها وعطفها ذلك النقابى المشاكس ، وذلك الملحن الذى يتعامل بأسلوبه المتميز فى التلحين بندية حتى مع القمم . .

ومع تطور علاقتى بأم كلثوم ، بدأت شخصيتى الحقيقية تتكشف لها . . أدركت أننى لا أدور فى فلك أحد . . ولا أعيش على بقايا موائد عالم الموسيقى والتلحين . .
جاء فى كتاب أم كلثوم «عصر من الفن» : (٨)

رشحت الإشاعات يوما فى شبه تأكيد شريف صبرى باشا خال الملك فاروق زوجا لأم كلثوم . ولكن الباشا تخلى تخرجاً بحكم العقلية القديمة أو تيبيا ، أو تحت ضغط أسرته المالكة .

وأحسست أم كلثوم بجرح غائر . . إن تقبيل يدها والهيام بها حركات للاستهلاك المحلى فقط ، مراسم حفلات وشغل صالونات .

وبكل كبرياء المرأة الطبيعية ، ردت اللطمة لأصحاب الحياة العالية بارتضاها فنانا من صميم الشعب ومن صميم عملها . . محمود الشريف .

ونجحت فى تدبيرها ، فقد هرع إليها شريف صبرى هذا يتلظى هياما ومعه بهى الدين بركات باشا .

- كيف ؟ ولماذا ؟ وما هذا ؟ إلخ علامات التعجب والاستفهام . وأخيراً ذكرها بنيشان الكمال الذى أنعمت به أسرته عليها . وكان هذا آخر سهم فى الجعبة :

- أنسيت أنك تحملين نيشان الكمال ، وأن زواجك من أجل هذا مرهون بإرادة فاروق ، ومتوقف على رضاه . . السامى ؟

وذات صباح . . .

تعلن الصحف نبأ زواج أم كلثوم من محمود الشريف الفنان الشعبى الذى يقف على أولى درجات السلم فى ذلك الوقت .

وجاء دور الشعب . . كثرت الأسئلة ونشط الفضول . . وحينئذ قال البعض إنها أساءت الاختيار ، وأنها بعد الانتظار الطويل لم تلتق بالرجل المنشود . والرجال من جمهورها الغفير لم يفرحوا . . جلسوا كعجائز الفرح بنهشون « محمود الشريف » أصله وفصله و . . . كل شيء خاضوا فيه عدا فنه وموهبته . . وكأن الرجل ليس له حسنة واحدة !! ولكن هؤلاء ظلموا الرجل وظلموها معه . فمحمود الشريف هو الفنان الذى حصل على وسام الفنون من الدرجة الأولى فى عيد العلم - فيما بعد هذا التاريخ وعلى وجه التحديد سنة ١٩٦٠ . وحصل على أكثر من وسام من دول عربية شقيقة . وفاز بالميدالية الذهبية عن لحن السد العالى . وميدالية بورسعيد عن تشيد بناء بورسعيد . . وميدالية التسليح والجللاء فى عيد الجللاء . . وغيرها .

ومن وجهة نظر الفن الصحيح محمود الشريف هو الفنان الذى ساهم فى كل ألوان الفن الموسيقى . . وله ألحانه الكثيرة التى لاقت نجاحًا كبيرًا .
وفى مذكراته كتب :

ولدت مرتين . . يوم ولدتنى أمى ويوم أحببتها . ستان ونصف السنة ، ولم أقل لأحد إنى أحبها ، ما أسعد القلب حينما يسعى إلى قلبه فى غفلة عن عيون الرقباء .
ليس عندى شيء أقوله سوى أن يتركنى الناس وشأنى حتى أتفرغ للعناية والسهر على هذا القلب الكبير . لإننى أرجو من الدنيا أن تبتهل إلى العلى القدير ، أن يبارك هذا الحب ويرعاه ويحفظه من شياطين الإنس . «

هذا الحب القوى كان الناس أقوى منه ، لم تستطع أم كلثوم أن تتحدى رأى العام الذى ارتفع همسه إلى استنكار مسموع ، فلم تقو وهى العنيدة الصلبة الرأى ، ذات الهيلىان ، على المقاومة . . والمخالفة والمخاطرة .

وانتهت العلاقة . . واستراح المعجبون . وجاءت قصة حبها الثانية .

زواج أم كلثوم من د . حسن الحفناوى :

كان أحد أطبائها . . وكان يسهر عليها . إلى جانب أنه كان واحدا من محبى فنها ، مستمعا من أصحاب الصفوف الأولى .

نشرت الأهرام فى ١٧ / ٩ / ١٩٥٤ نبأ عقد قران أم كلثوم بالدكتور حسن سيد الحفناوى الأستاذ المساعد بكلية طب قصر العيني . وهو من مواليد ٨ / ٨ / ١٩١٥ فى مدينة أسيوط . . أى أنه أصغر منها سنا . واستمر هذا الزواج إلى وفاتها فى فبراير من عام ١٩٧٥ .

قصص وحواديت :

روى المهندس محمد دسوقي (ابن أخت أم كلثوم ، وكان أقرب أفراد الأسرة إلى قلبها) :

« كانت أم كلثوم تجلس إلى جانبى فى السيارة . وكنا فى طريقنا إلى المسرح . كانت مستغرقة فى تلاوة آيات القرآن الكريم ، كأنها تدخل الامتحان للمرة الأولى . سألتها : - لماذا هذا القلق ؟ هل نسيت أنك أم كلثوم ؟ لو غنيت أى شىء ، حتى لو كان « ريان يا فجل » فإن الجمهور ملهوف إليك . التفتت إلى فى حسم وقالت :

- بلاش يا محمد . . إوعى تقول كده تانى . . إن الجمهور يقبل منك ما تعطيه لأنك تتفانى معه . إذا خطر ببال أى إنسان أن يثق فى نفسه لدرجة الغرور . . فلا يعطى كل ما عنده بإتقان ، فإن الجمهور لا يرحمه .

وبهذا العمق سجلت أغانيها . تعرف أنها تغنى فى الحفلات ، وتصل إلى القمة ، وما يبقى هو التسجيل ، لذلك تهتم لتتركه ثروة للمصريين والعرب ، تظل تذاع ، ولا يأتى يوم نبحث عن أغنية لأم كلثوم فلا نجدها . يقول المهندس محمد الدسوقي :

« كان أشد ما تحرص عليه أم كلثوم قبل أن تغنى في حفلة عامة . . هو إجراء عدة بروفات . . فهي تارة تجتمع بالملحن ، وتارة تجتمع بأفراد فرقها . ولا يمكن أن تذهب إلى حفلة دون أن تجرى بروفة لها ، ولكنها في كثير من الأحيان تغنى أغانى غير التى غنتها فى البروفة . فقد كانت تعتبر الأغنيات التى تغنيها من الأسرار التى يجب ألا يعرفها أحد . وكانت تجرى البروفات على عشر أغانٍ لتختار منها ثلاثا . وكانت تحرص على أن تختار الأغنية التى تلائم الجو . فكانت تتمتع بقدرة فائقة على معرفة ذوق جمهور الحفلة بمجرد أن تلقى نظرة سريعة من فتحة الستار . .

وكانت تذهب إلى الحفلات وهى جائعة جدا . . ولا تأكل إلا فى الساعة الرابعة صباحا ، بعد أن تنتهى من الحفلة . . ثم تنام ثلاث أو أربع ساعات ثم تستيقظ لتتناول إفطارها . . وكان العشاء والغداء يتكونان من الفاكهة . »

حينما قررت اعتزال الغناء :

تقول أم كلثوم :

مزقتنى محنة وطنى . . قررت اعتزال الغناء بعد ١٩٦٧ . لم يكن ممكنا أن أفرح ، وأن أضع فى صوتى لحظات فرح تمنح طربا ولا ترضى مزاجا . . كان الحزن طاغيا . . كاد يشلنى . . ويحبس صوتى . ولم ينقلنى إلا بريق أمل فى لحظة يأس قائلة إن مصر لن تنهزم . . إن تاريخها فى النضال تحدى كل النكسات . لقد صمدت فى أيام المحن لتتفرض ، وصنعت انتصاراتها العظيمة .

رأيت فى صوتى رغبة فى الانطلاق . أصبح الغناء مجندا . والطرب وسيلة لهدف عظيم قادم .

تحويل الهزيمة إلى نصر . . الثأر من النكسة . . مشاركة أبناء وطنى فى المخاض العظيم لميلاد الحرب التى تستعيد فيها مصر كرامتها وأرضها وكبرياءها . وتراجعت فى قرارى عن الاعتزال . ولكن عودتى بعد ٦٧ لم تكن للغناء . . بالمعنى الذى عشته

وأديته . فقد عرفت هذا الفن وعرفنى . . كانت عودتى نوعا من وضع السلاح الذى أملكه فى خدمة بلدى . . ووضعت صوتى . . وكانت رحلاتى حول العالم . . «
بدأت أم كلثوم رحلاتها بعد النكسة إلى باريس ، حيث غنت على مسرح أولمبيا . .
وحققت نجاحا كبيرا ، وعادت من رحلتها بعائد كبير ، مساهمة من الفن فى الإنفاق
على صد معارك الأعداء . وهكذا أصبحت أم كلثوم سفيرة تساهم بفنها العظيم فى
قضايا الوطن والإنسان .

أم كلثوم بريشة الفنان صلاح طاهر : (الكواكب ٧ فبراير ١٩٧٨) :

عاشت أم كلثوم فى وجدان الرسام الفنان صلاح طاهر الذى رسم لها صورتين لم
يكتملا حتى وفاتها . . وعن اللوحتين تحدث الفنان فقال :

شرعت فى عمل اللوحة قبل رحيلها بأربعة أعوام على وجه التقريب . وسبب عدم
اكتمال الصورة أو أحد أسباب عدم اكتمالها بمعنى أصح ، هو سفرها إلى أمريكا فترة
طويلة للعلاج . وبعد أن عادت ، سافرت مرة أخرى إلى بلاد أخرى فى رحلات فنية
ورحلات للاستشفاء . . وسافرت أنا أيضا لإقامة معارض فى بلاد أوروبية متعددة .
من أجل هذا تعطل العمل فى اللوحة عدة مرات . . أضف إلى هذا سببا آخر ، هو
أننى حينما كنت أذهب إلى بيتها المطل على نيل الزمالك ، كان وقت طويل يمر دون
أن أشعر به من فرط أنها . . وفى حضرتها ، ومن خلال حديثها الممتع ، فقد كان الرسم
يستغرق دقائق محدودة فى كل مرة ، بينما يستغرق حديثها وأنسها الساعات الطوال .

أدهشنى فى أم كلثوم الجوانب الثقافية المتعددة . . فقد كانت على جانب كبير من
الثقافة ، وأبرزها صولاتها وجولاتها فى الأدب والشعر العربى . حتى أنها كانت تحفظ
نصوصا بأكملها من كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى

. . ومن الدوافع التى جعلتنى أرسم أم كلثوم . . شكلها المصرى الذى يشبه
الأميرة « نفرت » ، والموجود تمثالها فى المتحف المصرى أيام كانت فى سن الشباب .

كذلك المعانى التى كانت تفيض من وجهها ويديها وجسمها وهى تقوم بغناء روائعها من أغنياتها البديعة . ثم حضورها الذى كان يستقر فى النفوس دائما ، والذى ما كان يستطيع أى إنسان أن يتجاهله حتى وهى صامتة . مضافا إلى كل ذلك خفة الروح والذكاء اللذين كانا يشعان منها فى كل لحظة .

رسمت لوحتين لا لوحة واحدة . . وكلتاها لم تتم بالألوان والخطوط . وفى نيتى أن أعيد الكرة من جديد وأصورها فى لوحة جديدة تجمع كل تلك الصفات التى احتشدت فى خاطرى ، وهى حصيلة تلك الجلسات التى لا تنسى ، ولا تنسى صاحبها أبداً .

أم كلثوم فى عهد الأسرة المالكة :

روت أم كلثوم قصتها مع الملكة نازلى :

طلبت الملكة نازلى من أم كلثوم أن تزف العروس الأميرة فوزية والأمير رضا بهلوى (الشاه السابق لإيران) . وكان من مبادئها - أم كلثوم - أنها لا تزف أية عروس تحبى فرحها . . كانت تقوم بغناء وصلتها فقط . وكانت كبريات العائلات تلجأ لفرفة بديعة مصابنى ، أو فرقة إحسان وثرىا سالم ، أو غيرها للقيام بزفة العروسين .

أرادت الملكة نازلى « الأم » أن تخرج عن هذه التقاليد . فبحثت عن الأقوى والأقيم . . فلم تجد غير صوت أم كلثوم . ووقعت أم كلثوم فى حرج شديد . . بين مبدئها فى الحياة والخضوع للسلطة . . للأسرة الحاكمة ، قررت أم كلثوم أن تقبل هذا الطلب على أن تكون أول وآخر عروس تزفها ، وقد كان ، وضعت أغنية خاصة لهذه المناسبة من كلمات « بيرم التونسي » وكانت مطلعها « مبروك على سموك وسموه » . وأعدت أم كلثوم لهذه المناسبة فستانا من الدانتيل الأسود ، وكان ذلك قبل أن يعرض عليها زفة العروسين .

وعلمت الملكة نازلى من « الخياطة ريتا » أن أم كلثوم سترتدى فستانا أسود . . فطلبت الملكة تغيير لون الفستان . . ولم تجد أم كلثوم أمامها إلا أن تغير بطانة الفستان

من اللون الأسود إلى اللون البمبى . وكانت أول مرة يبطن فستان بلون آخر . .
وأصبحت موضة أطلقت عليها مدام ريتا « موضة ثومه » .

أم كلثوم في عهد الثورة :

وفي بداية عصر الثورة . . همس بعض المغرضين للرئيس جمال عبد الناصر بأن يجعل
للثورة مطربة أخرى غير أم كلثوم . . التى غنت للملك « حبيبى يسعد أوقاتى » ،
ونالت نيشان الكمال . . وأصبحت صاحبة العصمة . . وأنه يجب أن تعامل كما
يعامل زعماء أحزاب العهد البائد !!

واقتنع جمال عبد الناصر بهذا الرأى . وطلب أن تنصب المطربة ليلى مراد على عرش
الغناء . وفعلا كانت ليلى المطربة الأولى لقطار الثورة ، وغنت فى أول أعياد الثورة .
أسفت أم كلثوم لتصرف الرئيس جمال عبد الناصر، ولكنها كانت تعرف قدر
نفسها . . قالت :

« أنا أم كلثوم . . أمامى اليوم عاصفة . . سأتركها تمر من فوق رأسى . . ثم أعود
شاخحة كعادتى . . »

وفعلا لم يمر على الثورة غير عام أو ربما أقل . . حتى استدعاها عبد الناصر
وطلب منها أن تعود . . بسؤاله لها
أين أنت ؟

ومرت العاصفة . . وعادت أم كلثوم لمكانها الطبيعى . . على قمة الغناء .

عبد الحليم حافظ يبكى :

روى « أحمد الحفناوى » (عازف الكمان الأول بفرقة أم كلثوم) :

حدث فى بداية الاحتفالات بأعياد الثورة ، أن كانت أم كلثوم تغنى بمفردها فى
هذه الحفلات . . فاقترح عبد الحليم حافظ أن يشارك مع بقية زملائه الفنانين

والفنانات في هذه الحفلات، كنوع من التعبير عن فرحهم ومشاعرهم تجاه الثورة أيضا. ووافق الرئيس عبد الناصر، ولم يمانع المشير عبد الحكيم عامر. وأصبحت الحفلة تبدأ بغناء أم كلثوم وتنتهي بها. وبين الوصلتين الأولى والأخيرة يغنى عبد الحليم حافظ وبقية الفنانين. ولكن هذا الوضع كان يرهقها صحيا ومزاجيا، لأنها كانت تنتظر وقتا طويلا. . . كما أن هذا الانتظار الطويل يخرجها من جو السلطنة والسخونة التي عاشتها في الوصلة الأولى. . ولا يجعلها تتألق كعاداتها في الوصلة الثانية وهكذا. . . وعلى ذلك، طلبت أن تغنى الوصلة الأولى، ثم تُقدّم فقرتان قصيرتان، ثم تغنى الوصلة الثانية. . ثم يتعاقب بقية الفنانين في بقية السهرة فأجيب طلبها. .

وحدث أن كان عبد الحليم آخر من يغنى. . فغضب لذلك، وأعلن في الحفلة وعلى الملأ أمام الميكروفون، بأن هناك شيئا غير عادي في تنظيم فقرات الحفل. . وهذا ليس سليما.

وكان إعلانه رآيه هذا والكل يسمعه سببا في غضب أم كلثوم الشديد منه عندما سمعت بذلك. . فقاطعته لأنها اعتبرت أن هذه الكلمات إهانة مباشرة وموجهة لها. ولكن عبد الحليم طبعا لا يقصد ذلك إطلاقا، وإنما كان يعنى مراعاة ظروفه الصحية. كما أنه كان من رآيه أن أم كلثوم تمتع الناس ببداية الحفل، و تمتع الناس أيضا بختامها للحفل، سواء تمتع الجمهور ببقية الفقرات التي تتخلل الوصلتين أم لا.

ومرت الأيام والشهور على هذه الواقعة. وفي إحدى هذه الحفلات قابلنى وسألنى عن أم كلثوم لأنه يريد أن يسلم عليها، فذهبت معه إلى حجرتها الخاصة ليسلم عليها، فتجاهلت دخوله الحجرة، وقد كان الغضب منه ما زال بداخلها ولا أدرى - فقالت غاضبة منى: إيه يا أستاذ فيه إيه؟

فقلت لها: إن عبد الحليم حافظ جاء ليسلم عليك. . فردت قائلة بانفعال: أنا. . لا أريد أن أسلم على عيال. .

فخرج عبد الحليم متأثرا أشد التأثر من إهانتها وقسوتها. . وبكى. .

لقد كانت في خصوصياتها قاسية جدًا .

أمنية القرآن :

روى مصطفى أمين :

« في يوم من الأيام طلبتني أم كلثوم ، وبمجرد لقائنا ، قالت لي إن لها أمنية تحلم بها وهي أن تسجل القرآن بصوتها . . وأن تسجل كل القرآن في أسطوانات . وأنها لا ترغب في أن تستفيد من هذه العملية . . وقد قدر لها الخبراء في ذلك الوقت أن تربح مليون جنيه كل عام . وسألتني رأيي في الجهة التي سوف تخصص لها المليون جنيه سنويا . فاقترحت أن ينحصر المليون جنيه لطلبة الجامعة ومساعدتهم . وتوجهنا إلى الأستاذ نجيب الهلالي ، وكان محاميا في ذلك الوقت ، وطلبنا منه أن يكتب لنا تنازلا من أم كلثوم عن هذا المبلغ لصالح الطلاب . وعندما اتصلت أم كلثوم بشيخ الجامع الأزهر آنذاك للحصول على موافقته ، رفض شيخ الأزهر أن يوافق على أن تقرأ أم كلثوم بصوتها جميع سور القرآن . حدث ذلك ، بالرغم من أن أم كلثوم قرأت بعض آيات من القرآن في فيلم « سلامة » ، ونالت استحسان العالم الإسلامي كله . »

من هواة الكرة :

ويقول مصطفى أمين :

« ربما الناس لا يعرفون أن أم كلثوم كانت من هواة الكرة . وأنها في وقت من الأوقات كانت تحضر كل مباريات كرة القدم في النادي الأهلي . وأنها وقفت حكما في بعض مباريات كرة القدم . وأنها في رأس البر كانت تلعب معنا . . وكانت تقف (حارسة مرمى) . وكان الذين يلعبون معها كرة القدم الأستاذ التابعي وكامل الشناوى ومأمون الشناوى وأحمد ألفى عطية .

فضل أم كلثوم على أخبار اليوم :

كتب مصطفى أمين في مجلة آخر ساعة (١٢ فبراير سنة ١٩٧٥) يقول :

« . . كانت أم كلثوم أول من شجعنا على إصدار أخبار اليوم . . وأول من وقفت معنا . . كانت أمنية حياتها قيام جريدة مصرية كبيرة . . . وحدث أن خاضت أخبار اليوم معركة طاحنة مع إحدى الحكومات . . صحفها تصادر كل يوم . . المظاهرات تضربها بالطوب . . مجهولون يلقون عليها القنابل والديناميت . . محرروها يوضعون في السجون والمعتقلات . . وأصدرت الدولة أمرا إلى الشركات والمحال التجارية بعدم نشر إعلانات في أخبار اليوم . وخضعت بعض الشركات للضغط . . وخافت أن تغضب الدولة ، فامتنعت عن نشر الإعلانات . وقعت أخبار اليوم في ضائقة مالية .

وبعنا البيت الذى نملكه في الروضة . . ولكنه لم يكف لسداد المطلوب . . وبعنا أسهم أبى فى شركة بيع المصنوعات المصرية ، ولكن ابتلعتها الجريدة الجائعة . وذهبنا إلى البنوك نقترض منها . ولكن صدرت الأوامر للبنوك بالامتناع عن إقراض أخبار اليوم . وكنا قد استنفدنا كل ما نستطيع أن نقرضه من البنك العربى . ونذكر هنا أن صاحبه الفلسطينى عبد الحميد شومان فتح حسابا لأخبار اليوم على بياض بثلاثين ألف جنيه . . ولكن الثلاثين ألف جنيه انتهت أيضا . وامتدت أيد كثيرة لتخنقنا . وكنا نخفى هذه الحقيقة على كل من يعمل معنا . كنا نضحك وقلوبنا تبكى . . كنا نكتب ولا نعرف هل سنجد ثمن الورق الذى ستصدر به الجريدة فى اليوم التالى ؟ . .

وذاث يوم دق جرس التليفون فى مكتبى ، وإذا بها أم كلثوم ، وقالت إنها تريد أن تقابلنى أنا وعلى أمين فورا فى بيتها . فذهبنا إليها ، فقالت إنها علمت أننا فى أزمة خانقة ، وأن أخبار اليوم مهددة بالإفلاس . . وأنها على استعداد لأن تضع كل مليم تملكه تحت تصرف أخبار اليوم . . وبهتنا !! وسألناها من أين عرفت هذا السر ؟؟ فقالت إنها ترفض أن تقول من أين علمت السر ، وأحضرت لنا مبلغ عشرين ألف جنيه . . وقالت إنها مستعدة لأن تبيع مصوغاتها وأسهمها وبيتها وتقدم لنا لغاية مائة ألف جنيه . قلنا لها : أنت مجنونة !! إن هذا المبلغ قد يضيع !

قالت : إن الذى يهمنى هو ألا تموت جريدة مصرية . فقلنا لها : إننا نشك فى أننا

نستطيع أن نسدد لك هذا المبلغ قبل سنوات . . قالت : لا أريد أن تسددوه إلا بعد أن تسددوا آخر دين عليكم للآخرين . واكتفينا بمبلغ ١٨ ألف جنيه . وأردنا أن نكتب إيصالا باستلامنا المبلغ . . ورفضت أم كلثوم أن نكتب هذا الإيصال . . وجلسنا وكتبنا الإيصال ، فمزقته ورمته في وجوهنا . وكنا قد سمعنا قبل ذلك ألوف القصص والأكاذيب عن بخل أم كلثوم . ولكن أم كلثوم فعلت في ذلك اليوم ما لم تفعله البنوك . وفعل هذا المبلغ فعل السحر في أخبار اليوم . واستطعنا بعد بضعة شهور أن نسدد هذا المبلغ كله إلى أم كلثوم . ولكنها اشترطت علينا شرطا واحدا . . وهو أن نخفي هذا الأمر عن كل إنسان . وأخفينا الأمر عن الجميع سنوات طويلة . وفي شهر نوفمبر سنة ١٩٦٠ ، أحسست أنني لن أبقى طويلا في أخبار اليوم . وأحسست أن واجبي أن أذكر أسماء الذين وقفوا بجوارنا في أزماتنا . . وكتبت القصة في عدد أخبار اليوم الصادر في ١٢ نوفمبر سنة ١٩٦٠ . وغضبت أم كلثوم وخاصمتني . فقلت لها : إنني فعلت ذلك لأنني شعرت أن أيامي معدودة في أخبار اليوم . وبعد أسابيع قليلة صدقت نبوءتي ، وصدر قرار بإخراجي أنا وعلى أمين من أخبار اليوم . . وبأن نلزم بيوتنا . واتصلت بي أم كلثوم وصالحتنى . وقلت لها إنني لا أعرف سر غضبها الشديد للنشر . قالت ضاحكة : خشيت أن تطلب مني جريدة الأهرام سلفة هي الأخرى !

ثم قالت إنها تضايقت لأنني قضيت على شهرتها التي كونتها على مر السنين كامرأة بخيلة . وأنها استفادت من هذه الشهرة فائدة عظيمة لأنها أبعدت عنها النصاب والمحتالين !!

عندما جلست أسمهان عند قدمي أم كلثوم :

جاء هذا العنوان في مقال كتبه للكواكب فؤاد الأطرش شقيق أسمهان (عام ١٩٦٦) ، وفيه قال :

« كنا قادمين ، فريد وأنا ، من جبل الدروز في رحلة الفرار من ثورة الجبل على

الفرنسيين ، وقد رأينا صورة أم كلثوم تتصدر ملهى البوسفور حوالى عام ١٩٢٣ ، وكانت تضع على رأسها عقالا مما يضعه الرجال عندها . وقد استوقفنا المشهد . . فلما سألنا عنها ، اتهمتنا أننا بالجهل لأننا لا نعرف فنانة مصر الصاعدة . ومنذ ذلك الحين بدأنا نستمع إلى أغاني أم كلثوم .

وقد كان اللون الذى قدمته أم كلثوم فى الأغنية المصرية صاروخا حملها إلى سماء الطرب . . وما لبثت أن أصبحت أكبر الفنانين جميعا واحتلت كل العروش بغير توقف . . وأم كلثوم فى سعيها للتجديد سبقت كل جديد .

وأذكر أن أسمهان لما تزوجت وذهبت إلى جبل الدروز لتعيش مع زوجها الأمير حسن الأطرش ، أرسلت بعد ثلاثة أعوام تريد أن تزور مصر بشرط أن ترى أم كلثوم . كانت أسمهان شغوفة بأم كلثوم عاشقة لصوتها . وما من مرة سمعتها تغنى وجمعها مكان واحد ، إلا واختارت أسمهان أن تجلس عند قدمى أم كلثوم ، حتى ينساب صوت الست أول ما ينساب إلى أذنيها . ذهبت لأم كلثوم بالخطاب فقالت لى :

- خليها تيجى . . . والله وحشتنا .

وجاءت أم كلثوم وكنا جيرانا فى بيت الزمالك ، وأمضت معنا ليلة من ليالى العمر التى قل أن يجود الزمان بمثلها . . كنا - أسمهان وزوجها وفريد والقصبجى وعمر شوقى وعبد صالحو وأنا - وغنت أم كلثوم سلوا كنوس الطلا هل لا مست فاها « فزحفت أسمهان إلى قدميها وجلست وهى تردد الآهة الإعجابية فنقلوها معا كأننا كورس . . . فما إن وصلت أم كلثوم إلى البيت الذى تغنى فيه :

حمامة الأييك من بالشجو طارحها
ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها
حتى استبد بنا الطرب ، فاستعدناها لا أقل من خمسين مرة .
صاح القصبجى :

- حرام عليك يا ست الكل . . أنت ذبحت تحت قدميك كل الحمام الى فى
الحجرة !

وكان يقصد أسمهان لأنها استسلمت للبكاء من فرط التأثر !!

من أقوال أم كلثوم الماثورة

- الفنان الأصيل هو الذى يكرس نفسه لخدمة هذه الأصالة .
- إذا أحس الإنسان أنه قمة وأنه نال وحقق كل ما يريد ، فهذا يعنى الموت . .
يعنى النهاية .
- يجب أن نكون شرقيين . . وموسيقانا شرقية . . حتى نثبت للعالم كله شخصيتنا .
- لا سر فى احتفاظى بصوتى ، إنه هبة من الله - والله وحده هو الذى يحفظه .
- الأمل هو أول مصادر الحياة . . والتحرك فى رأى هو الحياة .
- إننا قد نعجب بالموسيقى الأفرنجية ، ولكننا لا نطرب لها . وإن الجمهور قد يعجب مثلاً بأنغام الفالس المحشورة فى القطعة . ولكن عندما يصل اللحن إلى جزئه العربى ، يتغير حاله ويغلبه التأثر . وهذا هو الفرق بين شعورنا أمام الموسيقى الأفرنجية والموسيقى العربية . . الفرق بين الإعجاب والطرب .
- الفن وحده هو الذى يفرض نفسه .
- إن الفنان يجب أن يشعر بأهميته ، فإذا شعر بذلك كان جادا ، وكان حريصا على أن يكون عند حسن ظن الناس . وهذا يرهقه ويعذبه ، ولكن هذا هو أحلى ما فى الفن : إن يلتقى فيه العذاب والعذوبة .

عن طه حسين قالت أم كلثوم :

« المفضل عندى هو طه حسين . فكتاباته فيها رقة الشعر وموسيقاه . وكلما قرأت كتابه « الأيام » أحسست أننى أمام شاعر حساس موهوب . كلماته غنية بالأنغام ،

غنية بالأصالة الشعرية .

وكتاب الأيام هو في حقيقته مجموعة من القصائد الجميلة البديعة . طه حسين هو الكاتب الشاعر » .

● عن محمد عبد الوهاب قالت (*)

« هو مطرب الشرق الأول بلا منازع . . له من حرارة صوته والعاطفة المrehفة ما يوفر النجاح الكبير . فهو موسيقى ماهر خصوصا في الاقتباس عن الموسيقى الغربية . وهو يعتز بهذه المهارة في الاقتباس ، حتى أنه ينسب أحيانا إلى نفسه لحنا مقتبسا على أنه مؤلفه الأول والأخير أيضا » .

قالت أم كلثوم عن المطربين والمطربات والملحنين :

● محمد عبد الوهاب :

إنه قمة في كل شيء

● رياض السنباطي :

هو الوحيد الذى يستطيع أن يتذوق الشعر ، ويستطيع أن يلحنه . ولا أظن أحدا قد أوتى هذه المهبة .

● محمد الموجي :

له ملامح خاصة وله مزايا نعرفها بسهولة ، وهو شرقى مصرى ، وفنه نابع منه ، وجمله الموسيقية نابغة منه .

● كمال الطويل :

موهوب ، وعباراته جديدة وشابة ، ولكن ليس عنده صبر .

● عبد الحليم حافظ :

صوته جميل جدًا ، وهو قادر أن يطربك ويشجيك ، ولا أعتقد أن عندنا صوتا في جمال صوت عبد الحليم .

(*) آخر ساعة ١٩٤٣ .

● محمد عبد المطلب :

ابن بلد وجدع ، وفيه نبرة مصرية شعبية ، والجدعنة التى فى صوته تجعلك تضحك أو تفرح به ، لأنه جدع فى زمن اختفت فيه الجدعنة . . ثم إن أولاد البلد أصبحوا يخرجون من أنهم أولاد بلد .

● محمد رشدى :

أيضا ابن بلد ، وصوته فيه نبرة حلوة ، ولكن أخشى عليه أن يتفرنج .

● محمد العزبى :

صوته شرقى وحلو ومريح للأذن . .

● محمد قنديل :

هذا الصوت القوى الجميل . . لا أعرف بالضبط هل قنديل ساذج ، أو غير ساذج أو هو لا يعرف أنه يملك حنجرة ممتازة ؟

● فائزة أحمد :

صوتها جميل جدا وقدرتها الغنائية هائلة .

● شادية :

صاحبة صوت ظريف حلو ، وهو شبيه بالوشوشة ، وربما هذا هو السر فى شعور الناس بالراحة عند سماع أغانيها .

* * * *

قالوا عن أم كلثوم :

● قال الحبيب بورقيبة (رئيس جمهورية تونس السابق)

« عرفتُها وأكبرت فيها مع المقدرة الفنية سعة الشخصية ، وقوة الخاطر ، وجملة من الخصال جعلت منها سيدة بارزة في مقدمة سيدات العالم العربى المرموقات . »

● قال يوسف السباعى :

« إنها فنانة الشعب التى أعطت فأجزلت العطاء ، وقدمت فبدلت بسخاء ، ومن خلال صوتها أذابت روحها ، وهبتهما لخير وطنها . عاشت عدة أعمار فنية ، كانت فيها همزة الوصل بين أجيال وأجيال . إنها نسيج نادر لا يجود به الدهر إلا بعد أجيال وأجيال . وسبقى فن أم كلثوم تراثا خالدا تتغنى به الدنيا وسيظل مشعلا هاديا يضىء طريق الفن العربى . »

● قال مصطفى أمين .

« رغم أن أم كلثوم كانت أشهر امرأة فى العالم ، إلا أنها كانت زاهدة فى الشهرة . وكانت إلى سنوات قريية تخاف من الصحفيين . ولم تهاجم فنانة فى مصر كما هوجمت أم كلثوم . نشرت عنها القصص والأكاذيب . . ألفت عنها الأكاذيب . . أطلقت الإشاعات ، ولكن كل الطوب والأحجار التى أُلقيت عليها لم تهدم الهرم ، بل زادته ضخامة . »

وقال أيضا :

« أم كلثوم عدة شخصيات فى امرأة واحدة . فهى مثلا على المسرح تظهر طويلة بالنسبة للناس ، مع أنها فى حقيقة الأمر قصيرة . . وللناس تبدو بخيلة وهى كريمة ، ولأهل السنبلاوين تبدو فلاحه ، وهى « سيدة صالون » من الطراز الأول . ولأستاذة الجامعة سيدة لها فكر راق ، وبالتحديد هى لم تدخل مدرسة . ومع ذلك فهى أكبر النساء المثقفات فى مصر . . »

● قال محمد عبد الوهاب :

« الأخان الكلثومية وجدت للحنجرة الكلثومية . إن لون أم كلثوم يعتمد على القفلات (قفلات الطرب) . وأم كلثوم أقدر الجميع على أداء القفلة التى تعتبر أصعب امتحان للصوت ، والتى تحتاج إلى شجاعة وإحساس عميق ، وصوت سليم مدرب وقوى . وهذه المزاي من الصعب أن تجتمع فى حنجرة واحدة بعد أم كلثوم .

ويقول محمد عبد الوهاب أيضا :

« . . إن أم كلثوم فيها ملامح عصر فى طريقة الغناء والسلوك الشخصية والخلق . قدمت فنا بلا ابتذال ، وسمت بأخلاق المهنة . »

ومن كلماته أيضا عنها فى ذكرى وفاتها التاسعة فى حديث له بإذاعة القاهرة :

« إن فيها عشر مغنيات معا . . فكل ميزة تجعل منها مطربة كبيرة . من أهم ميزاتها التعبير بالجسم واليدين بالإيماء بالوجه بالعبوس بالضحك . . كانت ممثلة . ولا أعنى أنها كانت تفتعل ، بل كانت تحس . . وهذه سمة الفنان العظيم . . تحس الغضب أو الفرح أو العتاب فتؤديه . . كانت مجموعة عجيبة من عطايا الله السخية . أما الصفة العظيمة فيها ، فهى أنها ظلت هاوية حتى آخر رفق فيها . كانت مستمعة من الطراز الأول ، فتبكى حين تتأثر بأغنية تعجبها . ولو لم تكن مستمعة عظيمة لما كان فى مقدورها أن تكون مطربة عظيمة » .

● ومن أقوال عبد الوهاب أيضا :

« أم كلثوم المغنية الوحيدة التى جمعت بين القوة والعاطفة والحساسية فى صوتها . وإنها الصوت الوحيد الذى تمرد على ذل الميكروفون » .

● قال توفيق الحكيم :

« أم كلثوم تؤدى كل قصيدة ، وكل أغنية ، وكل لحن : الأداء الكامل . إنها صفة الفنان الأصيل . »

● قال د. طه حسين :

إن أم كلثوم بصوتها النادر في امتيازها سواء في الجمال . . أو في سلامة نطق اللغة العربية - ساهمت عندما غنت القصيدة : في إثبات جمال اللغة وطوعية موسيقاها ، حتى في أصعب الكلمات لموسيقى الغناء . وكان لصوتها فضل في انتشار الشعر العربي على ألسنة العامة والخاصة . »

● قال عباس محمود العقاد :

« أيها الكوكب الذي أسعد الأرض باللقاء أنت كالشمس لا تعدد في هذه السماء
وقال أيضا :

أم كلثوم هي المطربة الموهوبة التي أثبتت ، أن الغناء فن رهوس وقلوب . . وليس
فن حناجر وأفواه فحسب . »

● قال أحمد رجب :

« قال محمد عبد الوهاب لي مرة أن أم كلثوم « تكلمتم » اللحن فتزيده جمالا على
جمال !!

« وتكلمتم » تعبير ابتدعه عبد الوهاب ليعبر به عما يضيفه فن أم كلثوم على اللحن
وأداء اللحن ! ولكن أم كلثوم لا تكلمتم اللحن فقط ! إنما أيضا تكلمتم كلمات الأغنية
قبل أن تغنيها ، ثم « تكلمتم » معاني هذه الكلمات خلال الأداء .

إن دور أم كلثوم في الأغنية لا يقتصر على مجرد تلقي الكلمات من المؤلف واللحن
من الملحن ثم أداء الأغنية وانتهينا . . برغم أن هذا الأداء الساحر في حد ذاته معجزة
تكفي ! أبدا ! إن دور أم كلثوم في الأغنية يشمل خلق الكلمة والمعنى ، وأحيانا فكرة
الأغنية كلها .

● قال الدكتور مصطفى محمود :

أم كلثوم لها صفة غير أنها تغنى . . وتفلسف الحب . . وتمثل أعظم دار للنشر . .

أم كلثوم في الوطن العربي أقوى من ألف خط طيران يربط الأرض العربية . أقوى من أى خط تليفون ! أقوى من ألف خط سكة حديد تمتد من بغداد والكويت وقطر شرقا ، إلى الدار البيضاء في أقصى الغرب . ومن القامشلي وحلب في أقصى الشمال ، إلى عدن والخرطوم في الجنوب . فإنك تستطيع أن تسمع في يوم الخميس من أول كل شهر صوت أم كلثوم وهو ينساب من نوافذ البيوت في الموصل أو عمان ، وفي نفس الوقت يملأ صوتها ليل بنغازي ، وبيروت وتونس ، وفي ذات اللحظة يشد صوتها الناس حول أجهزة الراديو في جدة وصنعاء والخرطوم وكل مكان فيه عرب . فلو أنك خرجت بسيارة ليلة حفلة أم كلثوم لتتجول في الوطن العربي ، فإنك تستطيع أن تحدد معالم هذا الوطن وحدوده ! كل أرض لا يتردد فيها صوت أم كلثوم ليلة حفلتها - معناها أنك خرجت بسيارتك عن حدود الوطن العربي . أم كلثوم أجهل وأوضح خريطة مسموعة تبين الحدود المتراصة للوطن العربي . إنها أقوى الأدلة على أن الوطن العربي يعيش فوق أرضه شعب واحد ، له عقل واحد ، قلب واحد ، وجدان واحد ، وذوق واحد .

● ومن أقوال الدكتور مصطفى محمود أيضا :

« أم كلثوم في الغناء مثل طه حسين في الأدب . تمثل العربية الفصحى في الأداء ، والإعراب السليم للحروف الغنائية ، والجزالة في الصوت والنغم . صوتها يشبه في نفاثه وشرقيته سلاله الخيول العربية الأصيلة ، وهى تخطر في اختيال مثل الخيول في رقصها في أبهة وجلال . . وفخامة ، وهو يذكرك بآهة حافلة من مواعيد رمضان .

● قال الدكتور إبراهيم ناجي :

« أم كلثوم تملك جوهرة يسجد لها عرش الدولار المعظم ، ولا تقدر بهال في خزائن الأرض . وليست ثروة أم كلثوم بما تملك من مال فحسب ، ولكن ثروتها الكبرى هى ما تملك من ملايين القلوب التى تعبد عظمة الله في صوتها الحنون . وهى بهؤلاء العباد

أغنى من قارون :

قارون ما شافش من الغنى
ربع الى « ثومة » شافته
ولا عرفش من الغنا
شئ م الى هيا عرفته
ولا حد جبه جبا
آدى الغنا فى روعته
لو كان سمعها زينا
كان باع هدومه وثروته

كما وصفها د. إبراهيم ناجى : بأنها مطربة الجنة . . على كل وتر من أوتار
حنجرتها يجلس إله .

● وقال عزيز أباظة :

تشدو فتسكب فى الأرواح صافية	من سلسل من رحيق الخلد مختوم
تعطيك من دمها لحن الخلود فما	داود أحرى وإن أوفى بتقديم
هزت ربى الشوق هزا فاستدار لها	وقال من تلك ؟ فى فخر وتعظيم
تلك التى ازدانت بها فغدت	غنية باسمها عن كل تقديم

● قال المؤرخ عبد الفتاح غين :

« ميزات أم كلثوم الحقيقية » « مصريتها » . لم تكن مطربة ، وإنما خطيبة . كانت
على أنغام صوتها تخطب فى الناس : تحرضهم . . تشرح لهم . . تنقل انفعالها إليهم .
وكان انفعالها مصريا دائما . . وهذا الإخلاص لمصريتها كان منبعه الأساسى هو
إخلاصها لفنها ، وحبها الخارق للموسيقى والشعر ، والأداء ، وإحساسها طول
الوقت بأنها تنقل للمستمع رسالة ، تحاول كأي خطيب - أن تقنعه بشئ . كانت

تترنح من فرط الاستمتاع بما تغنى والإيمان به ، والرغبة في أن يؤمن به الآخرون . »

● قال الدكتور محمود أحمد الحفنى :

« لو أننى تنازلت لحظة عن موسيقتى الخاصة لأعيش فى صفة مصريتى العامة ، قللت عن إيمان وثقة وجدارة إن الفن والموسيقى لا يستأثران وحدهما بكل هذا الفضل ، بل مصر ومعها العروبة والشرق أحرزت بها فوزا ونصرا ، وسمت بفنها عزا وقدر . فالفنان العظيم مجد لوطنه كما هو مجد لفنه ، ودعاية لأمتة قبل أن يكون دعاية لمهنته : فشروات الشعوب ليست أموالا ، وإنما هى محصولها من العلوم والفنون . والفنانون فى الدولة هم كنوز ثروتها وباعثو قوتها ومخلدو عظمتها . ومصر مهد الموسيقى والتى انبعثت منها أشعة الفن الأولى فأضاءت العالم ، قد وهبتها العناية الإلهية فى نهضتها الحديثة أم كلثوم لتكون لحن التعبير عن مجدها ، ونغمة الإيضاح عن آمالها ، والصوت المترنم باستقلالها ، المتغنى بذكرياتها وأمجادها وما خلده التاريخ من مآثر دينها ودنياها . فقد ولدت فى فجر النهضة لتكون عنوان عظمتها ومذبة رسالتها . »

الفهرس

الصفحة

٥

المقدمة :

٧٠-٩

الفصل الأول : النشأة والتطور الفنى

نشأتها - أم كلثوم والحفلات - أم كلثوم تؤلف - لقاء أم كلثوم والشيخ أبو العلا محمد - نداء القاهرة - أنا ورامى - فضل الشيخ أبو العلا على أم كلثوم - أم كلثوم تغنى فى القاهرة - من البيت إلى القصر - أول اسطوانة - لقاء أم كلثوم والشيخ سيد درويش - أم كلثوم والملحن الهاوى - داود حسنى - الصراعات الفنية - البنت المفعوصة - بين منيرة المهدية وأم كلثوم - المنافسة بين المطربات الثلاث - حديث عن أم كلثوم ومنيرة المهدية فتحية أحمد وأم كلثوم - التنافس بين أم كلثوم وعبد الوهاب - محاولة للجمع بين أم كلثوم وعبد الوهاب فى عمل واحد - أم كلثوم نقيية للموسيقين .

١٣٧-٧١

الفصل الثانى : ملحنو أغانى أم كلثوم .

لقاء أم كلثوم ومحمد القصبجى - القصبجى ودوره فى المونولوج - من أشهر ألحان محمد القصبجى لصوت أم كلثوم - زكريا أحمد وأم كلثوم - من أشهر ألحان زكريا أحمد التى أنشدتها أم كلثوم - اللقاء بين أم كلثوم والسنباطى - من أشهر ما لحن رياض من قصائد لصوت أم كلثوم - أشهر ما لحن السنباطى من ألوان الطقطوقة والمونولوج والأناشيد - ألحان محمد الموجى لصوت أم كلثوم - أم كلثوم وألحان كمال الطويل - أم كلثوم وألحان بليغ حمدى - من أغانى بليغ لأم كلثوم - لقاء السحاب (أم كلثوم وعبد الوهاب) - ألحان محمد عبد الوهاب التى أنشدتها أم كلثوم - اللقاء الفنى بين أم كلثوم وسيد مكافى - مشروع أغنية من ألحان أحمد صدقى - محاولة تلحين فريد الأطرش لأم كلثوم -

١٦٦-١٣٩

الفصل الثالث : أم كلثوم والشعر

روت أم كلثوم عن بيرم التونسي - عن لقاءها مع أحمد شوقي - عن الشاعر على الجارم قالت - عن د . إبراهيم ناجي قالت - لقاء أم كلثوم وأحمد شوقي - لقاء أم كلثوم بأحمد رامى - أغانى رامى لأم كلثوم - خلاف بين أم كلثوم ورامى - لقاء أم كلثوم ومأمون الشناوى - أم كلثوم وبيرم التونسي .

١٨٦-١٦٧

الفصل الرابع : أم كلثوم وأسلوبها فى الغناء .

التقييم العلمى لصوت أم كلثوم - أم كلثوم تلحن - أم كلثوم والإذاعة - الحفلة الشهيرة - الوتر الحساس للإسلام - نقد أم كلثوم لأغانيها - الصوت يتحدى - أم كلثوم والعود - أم كلثوم الباحثة عن الثقافة والعلم - أم كلثوم والغدة الدرقية - فى أيامها الأخيرة .

٢٢١-١٨٧

الفصل الخامس : القوالب الغنائية التى غنت منها أم كلثوم

الدور - القصيدة - الطقطوقة - المونولوج - الأغنية الوطنية - أم كلثوم والسينما - مشروع فيلم ثومة - مشروع فيلم سميراميس - أغانى مجهولة - التقدير والأوسمة والنياشين التى حصلت عليها أم كلثوم .

٢٤٢-٢٢٣

الفصل السادس : أم كلثوم فى ذمة التاريخ

الشهور الأخيرة فى حياة أم كلثوم الفنية - الفن التشكيلى يخلد أم كلثوم - زواج أم كلثوم - زواج أم كلثوم من محمود الشريف - زواج أم كلثوم من د . حسن الحفناوى - قصص وحواديت - حينما قررت اعتزال الغناء - أم كلثوم بريشة الفنان صلاح طاهر - أم كلثوم فى عهد الأسرة المالكة - أم كلثوم فى عهد الثورة - عبد الحليم حافظ يبكى - أمنية القرآن - من هواة الكرة - فضل أم كلثوم على اخبار اليوم - عندما جلست أسمهان عند قدمى أم كلثوم

٢٤٣

من أقوال أم كلثوم المأثورة ،

٢٤٦

قالوا عن أم كلثوم

المراجع والمصادر

- ١- زكريا أحمد
صبرى أبو المجد
(المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر) (تاريخ لسلسلة أعلام العرب - ١٩)
أمين فهمى
- ٢- زكريا أحمد
جمعية أنصار الموسيقى زكريا أحمد - بدون تاريخ
محمود كامل
- ٣- محمد القصبجى
(الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١)
خليل المصرى ومحمود كامل
(اللجنة الموسيقية العليا)
صميم الشريف
- ٤- أم كلثوم (النصوص الكاملة لجميع الأغاني)
٥- الأغنية العربية
(منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى دمشق ١٩٨١)
د. نعمات فؤاد
إلياس سحاب
- ٦- أم كلثوم وعصر من الفن
٧- دفاعا عن الأغنية العربية
(المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ط١ / ١٩٨٠)
صميم الشريف
- ٨- رياض السنباطى
٩- أصوات وألحان عربية
١٠- لكل أغنية قصة
١١- محمد عبد الوهاب
رتيبة الحفنى
(دار الشروق ١٩٩١)
- ١٢- سحر الغناء العربى
١٣- الغناء المصرى
كمال النجمى (١٩٦٨)
أحمد عبد المجيد
(مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٧٠)
كمال النجمى
كمال النجمى (١٩٦٦)

رقم الإيداع ٩٤ / ٣٨٥٩
I.S.B.N 977-09-0209-8

مطابع الشروقة

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسن - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨١٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

